مختارات مترجمة

٣

تموثى جارتون آش

سقوط الأنظمة الشمولية فى اوروبا الشرقية

شاهد عيان فى وارسو وبودابست وپراج وبرلين

ترجمة **مجدى نصيف**

تقديم **سعد زهران**

مختارات مترجمة

(٣)

تأليف تيموثي جارتون آش

سقوط الأنظمة الشمولية في أوروبا الشرقية

شاهد عيان في وارسو وبودابست وبرلين وبراغ

ترجمة مجدي نصيف

تقديم سعد زهران

المحتويات

المقدمة

المقدمة

تعلقت آمال مئـات الملايـين مـن البشـر بوعـود الاشـتراكية. تلـك إحدى الحقـائق الكـبرى الثابتـة في تـاريخ القـرن العشـرين. حـدث ذلـك في الغالبية العظمى من الدول، بين عمال البلاد الصناعية المتقدمـة في البدايـة، ثم بين شعوب البلاد التابعة – خاصة بعد الحرب العالمية الثانية. كـان مـن النادر، في خمسينات وستينات هـذا القـرن، أن نجـد بلـداً مـن بـلاد العـالم الثـالث لا ينسـب حكامـه أنفسـهم للاشـتراكية، أو هـم – علـى الأقـل – يستفيدون من النموذج الاشتراكي للتنمية الاقتصادية والعدالة الاجتماعيـة. حتى ذلك الوقت كانت النظم (الشيوعية) في الاتحاد السـوفييتي السـابق وفي دول أوروبا الشرقية، كانت هي التجسيد الواقعي لتلك الآمال ومـن ثـمّ فـإن الأمل في وعود الاشتراكية ظل بالنسبة لهؤلاء البشر، متطابقـاً مـع الأمـل في مستقبل هذه الأنظمة.

والحق أن ما حققته هذه الأنظمة، حتى الستينات، كان جيداً، بل وكان – في نظر الشعوب في العالم الثالث – مُبهراً، حيث تمكنـت – في فـترة زمنية قصيرة – من الارتقاء بمجتمعاتها من مرتبة دول الدرجة الثالثـة إلى مرتبة دول الدرجة الثانيـة، إذ أصبحـت دولاً صناعيـة متوسـطة، اختفـت فيها البطالة والأمية، وتوفرت لسكانها خدمات صحيـة وثقافيـة وضمانـات

اجتماعية كان من المستحيل أن تتوفر في بلاد تأخذ بالنموذج الرأسمالي (مع افتراض تساوي القدرات الاقتصادية). هذا بالإضافة إلى أن هذه الأنظمة شكلت مجتمعة، نظاما دفاعيا مشتركا (هو حلف وارسو) حماها من تعدي قوى الغرب الرأسمالي المتربص بها، وضمن نوعاً من الاستقرار السياسي الداخلي، وشارك في الحفاظ على "السلام الأوروبي" الذي امتد منذ نهاية الحرب العالمية وأستمر حوالي خمسة وأربعين عاماً.

غير أن التاريخ يشهد بأن أداء هذه الأنظمة بدأ يضعف باطراد، على نحو يصعب إخفاؤه، منذ أواخر الستينات .. ... حتى إذا جاءت الثمانينات كان هذا الضعف قد وصل، بدرجات متفاوتة، إلى أشكال من الجمود، ثم النكوص. حتى جاء عام ١٩٨٩ ليكون، في شرق أوروبا، هو عام الانهيار و"الانهيار" تعبير شبه محايد. فمن وجهة نظر القوى التي شاركت في إسقاط هذه الأنظمة كان ١٩٨٩ عام "ثورة"، ومن وجهة نظر القوى التي كانت في الحكم، كان عام "ثورة مضادة".

غير أن ما حدث لهذه الأنظمة لم يكن شأنا يخص من كانوا يحكمون أو من أطاحوا بحكمهم فحسب، وإنما هو شأن أكبر، كان – وما يزال – الاهتمام به والاجتهاد لتفسيره وتوصيفه يخص عالماً بأسره كانت آمال غالبية سكانه متعلقة بوعود الاشتراكية، ومن ثم فإن هذا التقييم (أي الحكم على جدواه أو خسائره بالنسبة للقوى الموالية للاشتراكية)

والتوصيف (أي اعتباره "ثورة" أو "ثورة مضادة") شأن عالمي، ومن ثم ليس بمستغرب أن اختلفت حوله الآراء وتشعبت، وإن كان قد صنفها البعض للتبسيط إلى مجموعتين من الآراء: الأولى مجموعة الآراء التي تنظر إلى أحداث ١٩٨٩ من وجهة نظر الموالين للاشتراكية، الذين يرون أن مستقبل البشرية، بل بقاءها، مرهون بمستقبل الاشتراكية، مشروط بنجاحها في جولة أو جولات تاريخية قادمة، والمجموعة الثانية تنظر إلى نفس الأحداث من منظور ناقد للاشتراكية، بل ومعادٍ لها، وإن بدرجات متفاوتة.

وبعد جولة قراءات واسعة وجدتُ أن من بين أفضل ما نشر حول هذه التفسيرات هو ما كتبه المفكر الألماني جورجين هابرماس Jurgen Habermas (الأستاذ في جامعة جوته – في فرانكفورت) عام ١٩٩٠، وقت أن كانت الأحداث ما تزال ساخنة، حيث قدم تحليلا شاملا لوجهات النظر المتداولة حينذاك، في عبارة موجزة دقيقة، نافذة البصيرة، تكاد أن تكون نصاً فلسفياً. لذلك لم أتردد في ترجمة هذا النص، ووضعه كملحق لهذه الترجمة العربية.

مرة أخرى نعود إلى الحديث عن مئات الملايين من البشر الذين تعلقت آمالهم بوعود الاشتراكية واعتبروا أن النظم الشيوعية في الاتحاد السوفييتي وبلاد أوروبا الشرقية كانت هي التجسيد الواقعي لتحقيق هذه

الوعود - لنقول أن هؤلاء الناس أصيبوا بصدمة قاسية وخيبة أمل مروعة عندما انهارت هذه النظم في أوروبا الشرقية عام ١٩٨٩، ثم أعقبها سقوط النظام السوفييتي نفسه بعد ذلك بعامين. لكن العالم لم يلبث، بعد مرور بضع سنوات، أن شهد عجز الرأسمالية عن الوفاء بوعود كانت تقدمها للبلاد التي انجذبت للنموذج الاشتراكي الحكومي البيروقراطي، وتؤجل الوفاء بها إلى حين القضاء على تلك الأنظمة. وسرعان ما تنامى الوعي الجمعي للناس العاديين في كل البلاد ليدركوا أن النظام الرأسمالي العالمي يعاني أزمة عامة تزداد تفاقما عاماً بعد عام، وأن هذه الأزمة التي طالما ألقيت أعباؤها وتجلت مصائبها في بلاد العالم الثالث، أصبحت تطال البلاد الحديثة التصنيع في شرق آسيا وجنوبي شرقها، بل وها هي تصيب الدول المركزية الحاكمة، في أمريكا الشمالية وأوروبا الغربية واليابان، حيث تصاعدت نسبة البطالة، في مجموع بلاد المركز الرأسمالية في التسعينات، لتصبح أكبر مما كانت عليه أثناء الأزمة الاقتصادية الكبرى في الثلاثينات، وانخفضت الأجور الحقيقية لمجموع العاملين عما كانت عليه في السبعينات، وخفّضت الدولة ميزانيات الضمان الاجتماعي، وزادت نسب الجريمة والإدمان وغيرها من الأمراض الاجتماعية التي تصحب ازدياد الهوّة التي تفصل بين الأغنياء الذين يزدادون ثراءً وسطوة والفقراء الذين يزدادون بؤسا وتمردا، واستشرت أعمال العنف في أحداث الاحتكاك أو الصدام بين التكوينات السكانية والعرقية والطائفية... فضلاً عن تفاقم

عوامل عدم الاستقرار والاضطراب الدولي الناجم عن ازدياد الهوة التي تفصل الدول الغنية عن الدول الفقيرة.

هكذا، بعد أن كان العالم قد شهد - في أواخر الثمانينات ومستهل التسعينات - هجرة أيديولوجية جمعية في اتجاه الاعتقاد في تفوق النموذج الليبرالي الغربي وقدرته - ليس فقط على الصمود أمام تحدي النموذج الشيوعي السوفييتي، الاشتراكي الحكومي، وهزيمته، وإنما أيضا على تقديم الليبرالية "الجديدة" كالقوة الوحيدة القادرة على تسيير عجلة الحياة على ظهر هذا الكوكب، وأن مستقبل الشعوب والأمم رهن بالالتحاق بها أو السير على نهجها.. إلى درجة جعلت الكثيرين يصدقون نبوءة واحد من غلاة الدعاة للرأسمالية، هو فرانسيس فوكوياما، حين ذهب إلى أن نهاية الثمانينات تشهد آخر المعارك التاريخية الكبرى، وأن انتصار الليبرالية الغربية "الجديدة" مكتمل ونهائي، ومن ثم فإنها نهاية التاريخ !!

غير أن أحداث التسعينات، حتى قبل أن ينتصف عقدها، أثبتت أنها كانت نبوءة قصيرة العمر جدا، وأن حقائق الأزمة الاقتصادية والاضطراب الدولي أقوى من أيديولوجية نهاية التاريخ ونهاية الأيديولوجيا. ذلك أنه قبل أن تنتصف التسعينات كانت أصوات الناخبين تقصي اليمين المحافظ عن كراسي الحكم في بلد بعد آخر من البلاد الرأسمالية المتقدمة. وها نحن نشهد (عام ١٩٩٩) ثلاثة عشر بلدا من بلاد

الجماعة الأوروبية الخمسة عشر تحكمها أحزاب أو ائتلافات حزبية ترفع لافتات يسارية، تضم اشتراكيين وشيوعيين وخُضر ويساريين جدد .. الخ.. ولسنا هنا بصدد تقييم موثّق لأداء هذه الحكومات، وإن كنا أمْيل إلى الرأي القائل إنها من النوع الوسطي الذي ينحاز للأقوى.. أي أنه في غياب معسكر اشتراكي يُخشى جانبه، ويسار راديكالي صادق ومدقق، يستعيد تقاليد الدفاع النشيط عن أفقر فئات السكان في الداخل وأفقر الدول في الساحة العالمية – فإن هذه الأحزاب والائتلافات "اليسارية" التي وصلت إلى الحكم في الغرب ما تزال، من وجهه النظر هذه، أميل إلى تنفيذ صيغ معدلة من برامج الليبرالية "الجديدة". كذلك الحال في بلاد أوروبا الشرقية والاتحاد السوفييتي السابق، لم تنجح قوى اليمين الانقلابي المتطرف في الانفراد بالحكم، ودفع دولها إلى المنحدر الفاشي. بل وها هي ائتلافات حزبية عديدة ترفع لافتات اليسار وشعاراته تصل إلى الحكم، كما تعود إلى الحياة والنشاط حركات عمالية وتنظيمات نقابية وجمعيات المجتمع المدني .. وإن كان من السابق لأوانه أن نقول إنها قد استكملت الأهلية لإنجاز مهمة بناء نظم ديموقراطية مسئولة، تحظى بالرضا والقبول الجمعي، وتستند إلى مشاركة متعاظمة من جانب المجتمع المدني، وتعيد الاعتبار إلى المثل العليا لاشتراكية عصرية ومتحضرة.

ولكن، أياً كانت طبيعة هذه التغييرات التي تشهدها سنوات نهاية القرن شرقاً أو غرباً، فإنها تجسيد لنهوض يساري جديد وأكيد، ومؤشر يدل على بروز حقائق بالغة الأهمية، من بينها:

- أن اليسار، فكراً وممارسة، يتجاوز محنة النتائج السلبية التي ترتبت على تدهور وسقوط الشيوعية السوفييتية وتوابعها، ويجدد نفسه، ويستعيد قوته، ويثبت – مرة أخرى – أنه القوة القادرة على الكشف عن التناقضات الكامنة في بنية النظام الرأسمالي التي ما تزال، وستظل، تفعل فعلها لتعميق الهوة التي تفصل بين الفقراء والأغنياء على الأصعدة المحلية والعالمية، ومن ثم تفجير مزيد من الأزمات الاقتصادية والاضطرابات الاجتماعية والنزاعات الدولية. وقد أدى سقوط الشيوعية السوفييتية وتوابعها إلى تعميق هذه التناقضات وتفاقم تلك الأزمات، وليس العكس.
- وأن اليسار الذي ينهض اليوم، أياً كانت الأسماء التي يتخذها والمجالات التي ينشط فيها – يسار يتجدد، وان وعوده وتحركاته تلقى مزيداً من القبول الشعبي بقدر ما يكون قادراً، ليس فقط على نقد الرأسمالية، وإنما أيضا بقدر ما يكون قادرا على الاستفادة من تجاربه في القرن العشرين، أي قادراً على نقد ١- أنظمة الاشتراكية الحكومية، الاستبدادية الشمولية، مثل تلك التي كانت في بلاد الكتلة السوفييتية السابقة، و ٢- نقد النهج

الإصلاحي المهادن، مثل تلك التي حكمت مسار أحزاب الاشتراكية الديموقراطية في غرب أوروبا، وجعلت منها سنداً لهيمنة الشركات الكبرى عبر القومية على اقتصاد العالم، وهيمنة الدولة الأمريكية على شئونه السياسية والعسكرية، و ٣- بقدر ما يثبت (اليسار) من خلال النشاط اليومي أنه لا يرجئ تنفيذ كل شيء إلى ما بعد الاستيلاء على سلطة الدولة، وإنما بقدر ما يسهم بالنضال اليومي الدءوب، مع الناس العاديين وبينهم لتحسين أحوالهم والتخفيف عنهم في مواقع العمل كمنتجين ومشتغلين في المرافق والخدمات، وكمواطنين بسطاء يقع عليهم عبء القهر والإهانة والضيق، في المتاجر كمستهلكين وفي دواوين الحكومة ساعين لقضاء حاجاتهم، وفي الشوارع والمواصلات، كما في جميع مجالات الحياة – في الإسكان والتعليم والصحة والثقافة، وفي الريف الفقير والأحياء العشوائية، ومع الناس في مختلف مراحل العمر، بدءاً من الطفولة حتى الشيخوخة، ومع النساء والفتيات والفتيان والعجائز والمعوقين لكي يكونوا مؤهلين للاستفادة الفعلية من حقوق مدونة على الورق، واستكمال حقوق أخرى طال إنكارها وتجاهلها.

أي أن اليسار يتجدد وينهض بقدر ما لا يؤجل النضال للقضاء على العبودية العصرية إلى حين القضاء على النظام الرأسمالي.

- تمكن اليسار الذي ينـهض في التسعينات من تمزيق كثير من ستائر التعتيم التي كانت تطمس حقائق الأوضاع في دول الكتلة الشرقية السابقة، دول الاشتراكية البيروقراطية الحكومية، حيث كانت الصورة التي تروّجها أجهزة الدعاية والإعلام الغربية تقتصر على إبراز مظاهر الحرمان والقهر التي كان يعانيها المواطن البسيط، وتُصوّر أن كل آماله كانت معلقة بالفرار (أو الهجرة) من هذه الدول إلى الغرب – مع التعتيم على كل أشكال النضال الشعبي للاحتجاج ومحاولات الإصلاح أو التغيير. صحيح أنها كانت محاولات ضعيفة ومتفرقة، تواجه السلطات جماهيرها وقياداتها بإجراءات قمع سريعة وباطشة، ولكنها كانت كجبال الجليد، ما يظهر منها صغير ولكن كوامنها كانت كبيرة. وحين جاء وقت التدهور ولحظات الانهيار تبين أن الطاقات الشعبية، الكامنة المكبوتة، كانت هائلة .. وأن القيادات استكملت صلاحياتها للاشتراك في تحمل مسئولية التغيير وإنجازه في أسابيع أو أيام معدودة. كذلك كانت مشاركة الجماهير الشعبية عملية انفجارية، وكان الحضور الجماهيري هو الضمان لشل يد القوى اليمينية المحلية ومن يساندونهم من الخارج، عن دفع البلاد إلى منحدر الفاشية.



وبعد فإن مؤلف هذا الكتاب شاهد عيان. كان له حضور. يكاد يصل الى درجة المشاركة - وإن تكن جزئية - في الأحداث التي أفضت إلى سقوط الأنظمة التي كانت قائمة، حتى ١٩٨٩، في أربع بلاد. بولندا والمجر وتشيكوسلوفاكيا وألمانيا الشرقية. والكتاب شهادة حيّة لمراقب سياسي لماح، أقرب أن يكون كاتب سيناريو من طراز نادر، يتابع جميع جوانب الأحداث ومفارقاتها وتداخل العوامل المشكلة لها وتعقد مسارها، ومن ثم يتميز بالابتعاد عن التسطيح أو التبسيط المخل. ويستطيع القارئ، خاصة بعد أن يتأمل ما جاءت به التسعينات، أن يتبين أن الكاتب منحاز (وإن يكن ليس بأسلوب الشعارات أو ترديد المأثورات) لقضايا شعوب هذه البلاد، إلى درجة يكاد يوحد موقفه مع تحركاتها وانتفاضاتها، التي كانت هي العامل الأساسي في إسقاط الدكتاتوريات البيروقراطية التي كانت ترفع لافتات الاشتراكية أو الشيوعية التي ظلت عشرات السنين تبدو بالغة القوة شديدة البأس مستعصية على عوامل الإصلاح أو التغيير كما هي العامل الأساسي في سد الطريق أمام محاولات قوى اليمين المتطرف لدفعها إلى منحدر الفاشية، وما يزال حضورها هو الضمان لاستكمال إقامة نظم دستورية مسئولة، تجعل وعود الاشتراكية المتحضرة أقرب منالاً.

سعد زهران

فبراير ١٩٩٩

الشاهد والتاريخ

الشاهد والتاريخ

في أحد أيام أبريل ١٩٨٩، وجدت نفسي في منجم فحم ديميتروف في بيتوم بسيليزيا العليا. كانت المناسبة هي أول اجتماع عام علني لنقابة "تضامن"، منذ أعلن الجنرال ياروزيلسكي "حالة الحرب" في بولندا، في ديسمبر ١٩٨١. ارتسم غضب هادئ على الوجوه المتربة، وجلس رجل سمين نظيف الوجه يرتدي بذله، في الصف الأول: كان سكرتير الحزب (الشيوعي). وبعد دقيقة صمت حدادا على أولئك الذين قتلوا أثناء "حالة الحرب" – ومعظمهم من عمال المناجم – قدم رئيس لجنة "تضامن" مرشحي ليخ فاليسا في ذلك الإقليم، للانتخابات البرلمانية: مهندس مناجم، ومدرس،وآدم ميتشنيك زعيم معارضة وكاتب. تحدث المرشحون الواحد تلو الأخر. ولاحظ ميتشنيك أن هذه أول مرة في حياتهم يستطيعون فيها التصويت لمرشح من اختيارهم. وقال أن الانتخابات هي إعلان عن نهاية "النظام الستاليني الشمولي". ضغط سكرتير الحزب على أوراقه بيد بللها العرق.بعد وقت قصير أعلن رئيس لجنة "تضامن" لعمال المناجم المتجمعين، أن زائرا من بريطانيا موجود بينهم، "كاتب ألفّ كتابا عن "تضامن"". ثم أعطى لي الميكروفون. فوجئت، لكنني ارتجلت متلعثما خطابا، ذكرت فيه ثلاث نقاط رئيسية : الأولى أنني أتيت كمراقب مستقل لكي أكتب عن الحملة الانتخابية المدهشة هذه، والتي جذبت عيون العالم – مرة أخري –

إلى بولندا، والثانية أنني بصفتي مراقبا مستقلا أقول أن أدم سميث ميتشنيك معروف جيدا في الغرب وأنه رمز للشجاعة والمقاومة والشخصية المستقلة، والثالثة أنني كمراقب مستقل أريد أن أقول لهم انهم إذا أعطوا أصواتهم لميتشنيك وزملائه فإن الغرب سيقدم مساعدات لبولندا.

كانت مقولاتي الثلاث صادقة تماما، ولا أنكر أنها لو أخذت معا قد تفهم على أنها توصي المستمعين بالسير في طريق معين، وبمعنى أخر قد تفهم على أنها تدخل في الشئون الداخلية لجمهورية بولندا الشعبية. وهذا يعني "الطرد فورا من البلاد" وهي الجملة التي صرخ بها برونيسلاف جيرميك مستشار "تضامن" المحنك، حين سمع ما حدث. ولكنى لم أطرد. وفي نهاية العام لم تعد هناك جمهورية بولندا الشعبية لأطرد منها. فقد ألغي الشعب كلمة "الشعبية" من اسمها.

وعلى آية حال، كانت هذه هي حكاية أول خطاب انتخابي ألقيه في حياتي، وآمل أن يكون آخر خطاب. ألقيته باللغة البولندية في منجم فحم سيليزي.

قبل ذلك بأسبوع كنت في بودابست، أحضر احتفالاً وصف بأنه "احتفال للمعارضة". فبالقرب من الحوانيت التي تبيع "السافيردات" - الجرائد السرية - بدلا من المربى المصنوعة منزليا، كانت هناك لافتة تقول ببساطة: "هايد بارك". وفي سرادق نظم حوار بين ممثلي ما لا يقل عن سبعة

مجموعات سياسية منها: "حزب العمال الاشتراكي المجري" وهو الحزب الشيوعي الحاكم، من بين أحزاب وجماعات كثيرة. كان هناك أيضا: "الديمقراطيون الأحرار"، و"الاشتراكيون الديمقراطيون"،و" صغار الملاك"، وما يسمى بـ "حزب الشعب"، و"المنبر الديمقراطي المجري"، ثم "أصحاب الدعوة "تحالف الديموقراطيين الشباب". قال بالينت ماجايار، وهو عالم اجتماع ومتحدث باسم "الديموقراطيون الأحرار: "إن برنامجنا هو تغيير النظام وليس إصلاحه" كان "الديمقراطيون الأحرار" يرغبون في تغيير الدكتاتورية الستالينية - الجديدة إلى "اقتصاد سوق" يقوم على "الملكية الخاصة". وجاء أعلى تصفيق من الحاضرين في ذلك اليوم، عندما قال فيكتور أوربان زعيم "تحالف الديموقراطيين الشباب" ذو اللحية السوداء: "إن المجر ينبغي أن تترك حلف وارسو".

وحين خرجت من سرادق الاحتفال، أجلست على مائدة مهتزة إلى جوار كشك يبيع نسخا سرية من كتابي الذي يضم أحدث ما كتبته من مقالات من أوروبا الشرقية، وطلب مني التوقيع على تلك النسخ. وبدأ صاحب الكشك يتحدث بصوت عال مبتهج، بنداءات عالية من ذلك النوع الذي يقوله الباعة في المناسبات والأعياد.

بعد عدة فصول شتاء، جاء الربيع أخيرا. لكن في أبريل - ولو أن المقارنة بعام ١٨٤٨ تأتي إلى البال - كان ذلك هو الربيع لدولتين فقط: بولندا

والمجر. أما الدول الأربع الأخرى، فيما كان يطلق عليه خطأ اسم شرق أوروبا، فكانت مازالت متجمدة في نوعيات مختلفة من الدكتاتوريات، تتراوح بين التصلب البريجينيفي في تشيكوسلوفاكيا وألمانيا الشرقية، والطغيان السافر "لاشتراكية الأسرة الواحدة" في رومانيا. كان هذا يعني بالنسبة لي شخصياً أنني ممنوع من العودة إلى ألمانيا الشرقية، وأن أكتب عن تشيكوسلوفاكيا باسم مستعار هو ادوارد مارستون تارة ومارك براند تارة أخري [بدأ ادوارد مارستون يكتب لمجلة السبكتاتور البريطانية أول مرة من ألمانيا الشرقية في أواخر السبعينات. والآن حيث يقال أن ملفات جهاز أمن الدولة فتحت للدراسة أمام الباحثين فإنني أتوق إلى دراسة الملف الموجود باسم ادوارد مارستون]. وكان أحد المتخصصين الأمريكيين يشير إلى تلك الدول الأربع التي لم تعاد هيكلتها باسم: "عصابة الأربعة"، وهو وصف يمكن إطلاقه بصدق على زعمائها: أريك هونيكر، وجوستاف هوساك، وتيودور جيفكوف، وأخيرا وليس أخرا نيكولاى تشاوشيسكو.

وحتى ما كان يحدث آنئذ في بولندا والمجر مازال لا يمكن إطلاق وصف ثورة عليه إلا بالكاد. كان في الحقيقة مزيجا من الإصلاح والثورة. كان هناك عنصر قوى وجوهري للتغيير من أعلى تقوده أقلية مستنيرة في الأحزاب الشيوعية التي كانت ما تزال تحكم. ولكن كان هناك أيضا عنصر حيوي "للضغط الشعبي من أسفل". في المجر كانت هناك نسبة أكبر من

العنصر الأول، وفي بولنـدا كـان الأمـر تفـاعلا بـين العنصريـن في كـلا البلدين.على أن التفاعل كـان حادثـاً بفعـل مفاوضـات بـين الصفـوة الحاكمـة والصفوة المعارضة.

وهذه القصة لا يمكن أن تروى بتفاصيلها هنا. ومـع ذلـك لابـد من رواية بعض علامات الطريق المميزة. ففي كل من بولندا والمجر يمكن إرجاع يمكـن إرجـاع المسببات المباشرة لثـورات ١٩٨٩، إلى مـايو ١٩٨٨. والسـمة المميزة للثـورة – الإصـلاح في بولنـدا بـدأت بإضرابـات، وفي المجـر بمؤتمـر للحزب الحاكم، أبدل فيه جانوس كادار المريض بكارولى جروسيه الذي كان في السابعة والخمسين مـن عمـره، نـدا أشـيد بـه في الغـرب بصفتـه "شـاباً" براجماتياً وديناميكياً. لكـن مـا قـاده كـارولي جروسـيه في العـام التـالي كـان تراجعا مشوشاً أكثر من كونه تقدماً ديناميكياً، كان الحزب يخلي فيه موقعاً بعـد موقـع. وبنهايـة عـام ١٩٨٨، كـان الحـزب يسـمح بتشـكيل جماعـات المعارضة وأن تقوم بمظاهراتها. وفي يناير ١٩٨٩، وافق البرلمان المجري على ضمانات قانونية لحق الاجتماع والتجمهر (وإن لم يوافق آنذاك على ضمانات لحق الإضراب). وفي فبراير أعلن الحزب تأييده من حيث المبـدأ للتحـول إلى نظـام حزبـي متعـدد. وفي أبريـل أعلـن تخليـه رسميـا عـن المبـدأ اللينيـنـي "للديموقراطية المركزية".

نظام حزبي متعدد. وفي أبريل أعلن تخليه رسميا عن المبدأ اللينيني "للديموقراطية المركزية".

وإلى مدى معين، كان كل ذلك استراتيجية مقصودة للتقهقر حتى يمكن التقدم. أو طبقا لما يقوله المثل الفرنسي: "الرجوع إلى الخلف لكي يمكن القفز لمسافة أطول" "Reculer pour mieux sauter" على أن المشكلة كانت أن الحزب (الشيوعي) لم يصل أبداً إلى مرحلة القفز. أما أولئك الذين قفزوا، فكانت جماعات المعارضة المختلفة والأحزاب الوليدة التي رأيتها ممثلة في ذلك الاحتفال. والحقيقة أن الصحفيين شاركوا معها، ذلك أن تلك كانت "حركة" أديرت في وسائل الإعلام بمثل ما أديرت في الشارع. وبالتأكيد كانت هناك مظاهرات أخذ حجمها يتزايد. وبالذات تلك المظاهرات التي أقيمت بمناسبة ذكرى ثورتي المجر في ١٥ مارس ١٨٤٨، و٢٣ أكتوبر ١٩٥٦. ولكن حتى في تلك المناسبات حدث التأثير الرئيسي في المجر من خلال تقارير وسائل الإعلام، وبالذات التليفزيون. باختصار، كان هناك عدم تناسب عجيب بين "قوة الدفع" الضعيفة نسبياً للشعب، و"قوة الشد" التي يقوم بها الحزب.

لم يكن هذا هو الوضع في بولندا. فهنا لن نفهم قصة ١٩٨٩، إلا بالإحالة إلى أكبر "قوة دفع" شعبية، وأطولها نفساً، في تاريخ أوروبا الشرقية الشيوعية. إنها قوة دفع "تضامن" منذ عام ١٩٨٠. هنا بدأ طريق

نهاية الشيوعية بالتفاوض، بسلسلة ثانية من الإضرابات في مايو ١٩٨٨، هتف خلالها العمال: "لا حرية بدون تضامن". وكان ذلك الهتاف مثار انزعاج السلطات، وابتهاج "تضامن" ودهشتها معاً.

قضيت يوماً في مسقط رأس "تضامن" بترسانة لينين البحرية بميناء جدانسك. قادتني طالبة جذابة إلى هناك، سرت فوق حائط تحت أنبوبة ضخمة، وحول جسم عبارة سوفييتية يعلوه الصدأ، لتجنب بوليس مكافحة الشغب الذي كان يحاصر الترسانة. وفي مقر قيادة لجنة الإضراب شاهدت ليخ فاليسا يرتدي سروالاً مخططاً، وينتحل خفاً منزلياً من الجلد، وهو يتحاور مع تادييش مازوفيسكي الصحفي الكاثوليكي وأحد مستشاريه الرئيسيين، ويتجمهر حولها أكثر من نصف "اللجنة". كان مازوفيسكي يحاول إقناع فاليسا بأن يشارك بنفسه في المفاوضات ليلقي بثقله فيها، لكن فاليسا كان يتمنع بتخابث ثعلبي ويقول: "يا صديقي.. أنت رجل المفاوضات، وأنت رأس الحكمة". وكان تادييش يدور بعينيه كما لو كان يقول: "ماذا أفعل مع رجل مثل هذا؟". وفي وقت تال تحدثت مع بعض العمال القلائل الذين خاطروا باحتلال الترسانة. لخص أحدهم شكاواهم في الملاحظة التالية المركزة والبعيدة عن كونها تافهة: " أربعون عاماً من الاشتراكية ولا يوجد لدينا ورق تواليت". وعندما تمنيت لهم النجاح، قال أخر وهو يهز كتفيه: " ربما بعد ثلاثين عاماً". كان ذلك هو الشعور السائد.

وبعد ثلاثين ساعة أخرى، خرج بقية العمال المضربين، متشابكي الأيدي، والأب هنريك بانكوفيسكى على يمين ليخ فاليسا،وتاديبيش مازوفيسكي على يساره، بينما سار شخص أمامهم يحمل صليبا خشبيا كتبت عليه ٣ كلمات : "الله..الشرف.. الوطن" وتحتها ٣ تواريخ : ١٩٧٠و١٩٨٠ و١٩٨٨.

بدا الأمر وكأنه هزيمة. فحتى يوليه ١٩٨٨ ، كان جيرزى اوربان المتحدث باسم الحكومة آنذاك يستطيع أن يقول : "لقد أصبحت حركة "تضامن" ذكرى من الماضي لكن بعدها بشهر واحد، في أغسطس، حدثت موجه أخرى من الإضرابات اكبر من السابقة. طالب فيها المتظاهرون - بتأكيد اكبر وإجماع أكثر - بعودة "تضامن". وفي ٣١ أغسطس، وهو يوم الذكرى الثامنة لاتفاقية جدانسك التي كانت شهادة ميلاد "تضامن" انعقد اجتماع أعلن فيه عنه بين الجنرال شيسلاف كيسزاك وزير الداخلية آنذاك،وليخ فاليسا الذي حاولت السلطات تجاهله طوال هذه المدة الطويلة على أساس انه مجرد مواطن عادى. عندئذ استخدم فاليسا سلطته الشخصية لإنهاء الإضرابات.

وتبع ذلك أربعة أشهر من المفاوضات المضنية، والسرية في أحيان كثيرة،بين زعماء " تضامن"ومجموعه من داخل الحزب (الشيوعي). وأثناء ذلك انتصر فاليسا مرة أخرى في مناظرة تليفزيونية مع الفريد سيودوفيتنر رئيس اتحاد نقابات العمال الرسمي. وحولت مجموعة مستشاري ليخ

فاليسا نفسها - وهم أساسا من المثقفين- إلى "لجنة المواطنين". وكان من أهم العوامل أن أنصار التفاوض في الحزب كسبوا تأييد الجنرال ياروزيلسكي الذي وضع كل سلطاته الشخصية في خدمة ذلك الهدف، وتمكن من تحرير قرار بعودة " تضامن" في اجتماع عاصف للجنة المركزية انعقد في يناير ١٩٨٩. وهكذا فتح الطريق أمام محادثات "المائدة المستديرة" التي لم يسبق لها مثيل، والتي افتتحت يوم ٦ فبراير. ونشرت صورة المشتركين في "المائدة المستديرة" في جميع وسائل الإعلام في العالم*. لكن أهم شئ أن أنباءها انتشرت في كل دول أوربا الشرقية، وهو ماله مغزاه.

ويستحق تاريخ المائدة المستديرة، وما نتج عنها من فوائد فرعيه، وموائد فرعيه الفرعية، والاجتماعات غير الرسمية التي عقدت بقرية ماجدالينكا بالقرب من وارسو والأحاديث المثيرة المتبادلة بين مسجونين سابقين وسجانيهم السابقين، كل هذا يستحق كتابا منفصلا. وربما كانت أكبر مفارقه تاريخية في تلك المحادثات، هي أن وفد السلطة هو الذي كان ينادى بإجراء انتخابات في وقت مبكر اعتقاداً منه انه كلما كانت مدة الحملة الانتخابية قصيره، كلما تحسنت فرصة الحزب (الشيوعي) في هزيمة معارضه غير مستعدة على الإطلاق لخوض معركة انتخابية. وعلى

---

* نشرت صورة "المائدة المستديرة" في لقطه من أعلى، وفي وسطها باقة زهور كبيرة، وقد التف حولها المتفاوضون- المترجم

النقيض من ذلك، دخلت " تضامن" المفاوضات لتحصل على شئ واحد فقط، ألا وهو استعادة وجودها الشرعي. كانوا سيضغطون بعد ذلك لإجراء تغييرات أساسيه في الدستور، ووسائل الإعلام،والتعليم، والحكم المحلي. واعتقدوا إن الموافقة على إجراء انتخابات مبكرة مصحوبة بقيود يتم الاتفاق عليها، هو جزء من الثمن الذي كان عليهم أن يدفعوه - وكان جزء أخر من الثمن هو استمرار وجود رئاسة قويه تتمثل في الجنرال ياروزيلسكي. على أن ما حدث هو انهم اكتشفوا إمكانية الحصول على أكثر مما ساوموا عليه أصلا.وانتهى بهم الأمر ليس إلى انتخابات حرة لـ٣٥٪ من مقاعد "السيجم"* فحسب، ولكن بتصويت حر لكل مقاعد " مجلس الشيوخ" الجديد في البرلمان. وما حدث فعلا أن أول اقتراح لإجراء انتخابات حرة لمجلس الشيوخ جاء من عضو في وفد الشيوعيين أثناء اجتماع من الاجتماعات غير الرسمية التي أطلق عليها العامة في بولندا اسم "الماجدالينكا".

وقعت اتفاقية " المائدة المستديرة" يوم ٥ أبريل. وجاء في افتتاحية تلك الوثيقة الطويلة المعقدة إنها " بداية الطريق إلى الديمقراطية البرلمانية".واقترح أحد أعضاء وفد الحزب، وضع جملة بين قوسين بعد تلك الديباجة، تفيد أن جانب الحكومة - التحالف يعتبر أن الديموقراطية

---

* البرلمان البولندي - المترجم

البرلمانية هي "الديمقراطية الاشتراكية". فتشاور وفد "تضامن" ثم قال انه سيوافق إذا ما أضيفت بالمقابل جمله تقول : "إن هذا كان - أيضا - بداية بناء بولندا مستقلة ذات سيادة". فتنازل وفد الحزب عن اقتراحه. وهكذا شطبت كلمة " الديمقراطية الاشتراكية" من الوثيقة.

بعد ثلاثة أسابيع وجدت نفسي متوجها إلى ميناء حدانسك في قطار الصباح السريع، وفي البوفيه وجدت العربة مليئة بمثقفي المعارضة من وارسو، الذين اختير معظمهم الآن كمرشحين للبرلمان من "لجنة المواطنين". كنا متوجهين إلى ترسانة لينين البحرية، لاجتماع يضم ٢٦١ مرشحا لـ "تضامن " من جميع أنحاء بولندا. انعقد الاجتماع في نفس الصالة التي عقد فيها اجتماع لجان الإضراب عام ١٩٨٠. كانت تتناثر بالقاعة نفس الصناديق الزجاجية التي تحتوى نماذج سفن، وتمثال النسر الأبيض، وتمثال نصفي للينين. وحين توجه ليخ فاليسا إلى المنصة، نظر إلى تمثال لينين نظرة ضاحكه ذات مغزى. بعدها التقطت صورا للمرشحين كل منهم على حدة وهو يصافح ليخ فاليسا، ٢٦١ مصافحة. كان اندريه فايدا المخرج السينمائي هو الذي يشرف عل عملية التصوير. وقال لى "برونيسلاف جيريميك" هذه الانتخابات ليست ديمقراطية تماما، ولكنها تعطى الأمل بأنه خلال أربع سنوات ستكون هناك انتخابات ديمقراطية حرة".

أربع سنوات ! كم تبد تلك الأفكار الجريئة حينئذ متواضعة الآن.

على انه إذا افترضنا أنه لم يحدث ما هو اكثر من ذلك في الشهور السبعة الأخيرة لعام ١٩٨٩، لكان ما حدث في بولندا والمجر بين شهري يناير ومايو سيسجل في نهاية العام على أنه مثير وتاريخي ولم يسبق له مثيل. على أن "تلك النجاحات " التي تم التوصل إليها بالتفاوض، أو تلك الثورات - الإصلاح، نسيت عندما بدأ التاريخ يسرع خطاه بمعدل مذهل. فأولا كان هناك انتصار " تضامن" غير العادي في انتخابات يونيو، والتي أدت إلى تعين أول رئيس وزراء غير شيوعي في أوروبا الشرقية منذ أربعين عاما ثم تأتى عملية إعادة دفن رفات ايمري ناجي بطل ١٩٥٦، في بودابست، والأحداث التي أدت إلى أول حل رسمي لحزب شيوعي حاكم في أوروبا الشرقية.

في أثناء ذلك، حدث اثر جانبي غير مقصود، بل وفي الحق غير "مأخوذ في اعتبار" الثورة - الإصلاح، المجرية، إلا وهو تمزيق الستار الحديدي بين المجر والنمسا الذي سمح لعدد متزايد من الألمان الشرقيين بالهروب عبر الحدود " الخضراء" الآن. كان ذلك عاملا مساعدا حيويا للثورة التي انفجرت متزامنة تماما مع الذكرى الأربعين لتأسيس جمهورية ألمانيا الديمقراطية. وتبعت ذلك بلغاريا بثوره قصر، بالإضافة إلى مساعدة صغيرة من الشارع. لكن أحداث تشيكوسلوفاكيا تبعت ذلك بسرعة في براغ.

وفي إحدى الأمسيات، وكنت منتشيا بالشراب إلى حد ما، قلت لأولجا زوجة فاسلاف هافيل أن تشاوسيسكو سيسقط قبل نهاية العام. فدخلت معي في رهان على زجاجة شمبانيا. وعندما أفقت صباح اليوم التالي، اعتقدت أنني سأخسر الرهان. لكن قبل حلول الكريسماس ...

لم يتردد أحد في أن يطلق على ما حدث في رومانيا اسم "ثورة" فبعد كل شئ بدت كثورة : جماهير غضبى في الشوارع، دبابات، مباني حكومية تتصاعد منها النيران، الدكتاتور يوضع أمام حائط ويطلق عليه الرصاص مع زوجته على أن التساؤل جاد فيما إذا كان ما حدث في بولندا والمجر وبلغاريا أو حتى في تشيكوسلوفاكيا وألمانيا الشرقية، يمكن أن يطلق عليه التعريف : "ثورة" إلا في محتوى فضفاض للغاية، وقد عبر عن هذا الشك، كثير من مثقفي تلك البلدان المعنية. فهل يجب أن توصف حركات شعبية – في الحقيقة – مهما كانت تلقائية وضخمة ومؤثرة، إلا إنها لم تتسم بالعنف كلية تقريبا، بكلمة لها ذلك الانفعال الوثيق بالعنف ؟ ومع ذلك، فإن تغيير الحكومات، لا بل تغيير الحياة في كل تلك البلدان، لم يكن أقل عمقا من تغييرها في رومانيا. فبخليط من الاحتجاج الشعبي ومفاوضات الصفوة، تحول مسجونين إلي رؤساء وزراء وتحول رؤساء وزارات إلي مسجونين.

أن تلك النهاية الفجائية الساحقة "لعهد بائد" والتي حدثت في كل بلدان شرق أوربا خلال شهور قليلة. قد تبرر استخدامي لكلمه ثورة كعنوان فرعي لكتابي. وعنوان هذا الكتاب " نحن الشعب" وهي الكلمات الأولى من دستور الولايات المتحدة الأمريكية،مقصود بها، إلى جانب جذب انتباه القراء، أن تلمح إلى ثلاث نواحي ملحوظة لتلك الأحداث، الاستخدامات وأيضا الغموض في تعريف "الشعب" (وهو نفس ما حدث عند وضع دستور الولايات المتحدة الأمريكية نفسه) حقيقة أنه في المجر وبولندا وتشيكوسلوفاكيا على الأقل، كان لدى زعماء الثورات فيها فكرة واضحة تماما لا عن النظام الدستوري الذي يودون بناءه، وليس فقط عن ذلك الذي يريدون تحطيمه،وأن ذلك النظام الجديد له شبه ليس بالقليل بذلك المؤسس في الولايات المتحدة (والذي يمكن أن يطلق عليه المرء أوربا عبر الأطلنطي) منذ مائتي عام، وأخيرا الإحساس بأن تلك الأحداث في بلاغتها وتواليها المسرحي في الشارع، تتصل بصورة ما، بقرن مضى وليس بعالمنا المعاصر.

و لا أستطيع أن أؤكد، أكثر من اللازم، على أن هذا الكتاب ليس تاريخا شاملا للأحداث في أوروبا الشرقية في عام ١٩٨٩، وأنا لا أدعي أنني أقدم تحليلا كاملا للسياسة السوفييتية، وللعوامل الاقتصادية،وللتطورات

داخل الأحزاب الشيوعية وحكوماتها، دعك من الأسباب الطويلة المدى.* ولا أدعي إنني أقدم تنبؤات عن المستقبل. فالكتابة عن عـام ١٩٨٩ في بدايـة عـام ١٩٩٠ قد تكون اقل تهورا من الكتابـة عـن عـام ١٧٨٩ في بدايـة عـام ١٩٩٠. ولكنه تهور على أية حال.

و أنا لا اصف أحداث بلغاريا ورومانيا لأنني لم أكـن هنـاك. كنـت موجودا في لحظات هامة في بلدان أخرى،ولكن حتـى في تلـك الحـالات تـأتي أساسا من داخل حركات المعارضة، ونحن نطلق عليهم " الناس العـاديين" في شوارع العواصم.والفصل الخاص ببراغ هو أطول فصـول الكتـاب، لأن موقفـي كشاهد كان من موقع فريد. إن عيب الشاهد، على عكس المؤرخ، هو الجزئية في الزمان والمكان وإصدار لأحكام. فالشاهد لا يمكن إلا أن يكون في مكان واحد فقط في وقت واحد. وهو ينحو لأن يعطي أهمية مبالغا فيها. لما يراه ويسـمعه شخصيا. أما المؤرخ فيمكنه أن يجمـع روايـات جميـع الشـهود دون أن يؤثـر موقعه على تلك الخبرة الشخصية - ومـا حـدث لاحقا يغـيّر نظرتنـا إلى مـا حدث سابقاً، والمؤرخ يعرف عادة اكثر مما حدث سابقاً، لأنه ببساطة يكتب فيما بعد وأخيراً هناك الجزئية في الحكم.

---

* إن شيئا من ذلـك يمكـن أن يوجـد في كتـابي المبكريـن: " الثـورة البولنديـة " polish revolution و"الاستفادة من المحن " the uses of adversity ويعتبر كتـابي هذا تكملة لهما.

قال أشروود "أنا كاميرا" لكنني في الحقيقة لم اكن كاميرا، فالكاميرا لا تلقى بخطاب انتخابي في منجم فحم سبليزى. وبالتأكيد بذلت أقصى ما في وسعى لأتوصل إلى الحقائق،وللاستماع إلى مختلف الجوانب، ولأن أكون منصفا ومنتقدا في أن واحد. لكن القارئ سيجدني متعاطفا بشكل عام مع أولئك الذين قاموا بتلك الثورات وليس مع أولئك الذين حاولوا منعهم من القيام بها، مع المسجونين السابقين وليس مع سجانيهم. وهناك القليل من القوانين التي توصف بأنها أكثر شمولية من قانون "أكتون" الذي يقول "إن كل السلطة تفسد" وأنني لأجرؤ على القول بأن الحكام الجدد في تلك البلاد سيفسدون أيضا ً. وأن يكون المرء قد اضطهد، ليس بالضرورة أفضل حماية من الغواية بأن يضطهد الآخرين. وكثير من الزعماء الشيوعيين السابقين في أوروبا الشرقية كانوا هم أنفسهم مسجونين سياسيين سابقين : هونيكر، وهوساك،وكادار، وحتى تشاوشيسكو :

أنا وكل الناس، نعرف
ما يتعلمه كل أطفال المدارس
إن أولئك الذين يتعرضون للشرور
يفعلون الشر هم أنفسهم.

لكني كمعظم أهـالي دول أوروبـا الوسـطى والشـرقية، أدرك الثمـن الإنساني الذي دفع في ظل الشرور القديمة، وأشعر بالارتيـاح للتخلـص من تلك الشرور. ولهذا فإنني لا أميل لأن أبدا منذ الآن في مطاردة شرور جديدة.

هذه هي العيوب الخطيرة للشاهد، ولكن له مزاياه أيضا. فالشـاهد قد يكون محظوظـاً فـيرى أشـياء لا يجدهـا المؤرخ في أي وثيقـة. فقـد تكـون نظرة، أو هزة كتف، أو ملاحظة عابرة في بعض الأحيان أكـثر كشـفا لقضيـة من مائة كلمة – وفي تلك الأحداث أكثر من معظـم أحـداث التـاريخ المعـاصر، فإن الكثير مما له أهمية كبـيرة، لم يكتـب أبـداً، إمـا لأنـه حـدث في ثنايـا حوارات سريعة لم يتم تدوين أي سجل لها، أو لأن الأمر تمت مناقشته على الهاتف، أو لأن الكلمات والصور ظهرت على التلفزيون (لا يمكن أن نغـض النظر عن التلفزيون، فلا شك أن مؤرخي تلك الأحـداث في المستقبل سـيكون عليـهم أن يقضـوا نفـس الوقـت الـذي سيقضونه في المكتبـات، في أرشـيف التلفزيون).والشاهد يمكنه أن يميز كيف أن ما يبدو تلقائيـا، هـو مرتـب في الحقيقة، وان ما هو مرتب بعناية، هو في حقيقـة الأمـر نتـاج غـير مقصـود لارتباك شديد. وربما يكون أصعب شئ على المؤرخ، هو أن يمسك بالإحساس بما لم يكن النـاس يعرفونـه عـن المسـتقبل، في لحظـة تاريخيـة معينـة. وفي محاولة للحفاظ على تلك السمة، الجهل المحمود إن شئت التعبير، رتبـت هذا الكتاب بالطريقة الآتية : الأبواب الأربعة الرئيسية تضم راويات عن :

انتخابات يونيو في بولندا، وإعادة دفن رفات إيمرى نـاجى في بودابسـت في شهر يونيو أيضا، فتح سور برلين في شهر نوفمبر، وأسبوعان مـن الثـورة في براغ أواخر شهر نوفمبر.ولقد كتبت تلك الأبواب كما سجلتها وقتها أو بعـد ذلك بقليل، في مذكراتي وفي مقالاتي لـ " نيويـورك ريفيـو أوف بوكـس"، أو لمجلة NY REVIEW OF BOOKS سبكتاتور البريطانية. وقد أنهيت كل باب من تلك الأبـواب الأربعـة، بموجـز ملخـص للغايـة عـن التطـورات اللاحقة حتى نهاية عام ١٩٨٩، معتمدا فيها على مصادري الأولية.

وكل ما كتبته به نقائص، لكن ربما به أيضاً سمات كتابته بسـرعة والأحداث "طازجة ". أما البـاب الأخـير فـهو مجموعـة مـن التـأملات عـن الثورة، كنت قد جمعتها لإلقاء محاضرة.

وهكـذا فـإن للكتـاب إطـارين زمنيـين : الأول فـوري المعـاصرة، والثاني ينظر إلى الوراء من البدايات الأولى لعام ١٩٩٠. ولسوف يقوم القـارئ بوضـع إطـاره الزمـني الثـالث لشـهور وحتـى لسـنوات قادمـة. ولـو حـدث وتطورت الأمور إلى أسوأ في أوربا الشرقية، حين تقرأ كتابي هذا. فقد تجـد أن مـا كتبتـه مفعمـا بـالأمل لدرجـة سـخيفة،ومشـبعا بـروح المرح لدرجـة مخيفة. وليس عندي مـا أقولـه سـوى أن ذلـك كـان مـا أحسسـت بـه في ذلـك الوقت.

وارسو: الانتخابات الأولى

وارسو : الانتخابات الأولى

إذا عدنا بنظرنا إلى الوراء بدا لنا واضحا أن "تضـامن" كـان ينبغـي أن تحقق انتصاراً ساحقاً يوم الأحد ٤ يونيو ١٩٨٩، في أول جولة لأقـرب مـا يمكن أن يطلق علية انتخابات حرة شهدتها بولندا خلال نصف قرن.

لابد أنهم أدركوا أنهم سيفوزون،وإن لم يعرفوا ! جلست أتناول طعام الغذاء في ذلـك الأحـد مـع أدم ميتشـنيك، المجـهد، المحبط، لم يكـن يعرف. وجلست مع جاسيك كورون في وقت متأخر مـن تلـك الأمسـية، كنـا نشرب معا،وكان عصبياً، لكنـهَ لم يكـن بـدوره يعـرف. لم يكـن هنـاك مـن يعرف.

و بالتأكيد سـارت الحملـة الانتخابيـة بشـكل جيـد. كـانت هنـاك عوائق كبلت الحملة منذ البدايـة : انعـدام التنظيـم، وعـدم وجـود الأمـوال الكافية، وقلة المكاتب، وعدم كفاية العاملين، وفوق كل شـئ عـدم تمكينـهم من الوصول إلى وسائل الإعلام. ورغم كل هذه العقبات أمست حملة المعارضـة التي قامت بها "تضامن" مهرجانا قوميا. ورغم كل المزايا الأولية التي تمتـع بها "حـزب العمـال المتحـد البولنـدي" مـن وجـود التنظيـم والمـال والمكـاتب والعاملين والسيطرة الاحتكارية على الإذاعة والتلفزيون، كانت الحملة التي نظمها هو وشركائه المؤتلفين معه، ضعيفة إلى درجـة غـير عاديـة. اختـارت

"تضامن" مرشحا واحداً ليخوض المعركــة الانتخابيــة. لكـل مقعـد كـان مـن حقها التنافس علية، طبقا لشروط اتفاق محادثات "المائدة المستديرة" لم تكـن إجـراءات الاختبـار ديموقراطيـة وإن كـانت مؤثـرة للغايـة. أمـا الحــزب، والائتلاف، فقد أضاعوا أسابيع في صراع شبه ـ ديموقراطي، ثم قدم عدداً مـن المرشحين لكل مقعد في معظم الدوائر، وبذلك تتفـرق الأصوات الـتي يحصـل عليها.

غطت وجوه وأسماء مرشحي " تضامن" الحيطان في كل مكان. وظهر كل منهم في صورة مـع ليخ فاليسـا، وكـانت هـذه الصـور قـد التقطـت أثنـاء الاجتماع الشهير الذي تم في حـوض لينـين لبنـاء السـفن.وتحـت كـل صـورة جملة واحدة بخط ليخ فاليسا. رسـالة بسـيطة : "يجـب أن ننتصـر". وعلـى النقيض من ذلك، كـان التعـرف علـى أسمـاء مرشـحي الحـزب – الائتـلاف يتطلب، في أحيان كثيرة، بحثا خاصـاً مستفيضاً. كـانت إعلانـات "تضـامن" الدعائية ملونة باللونين الأبيض والأحمر، وقد كتبت العبارة الشهيرة بخط اليد الذي لا يمكن أن تخطئه العين. وفي أماكن عديدة كانت إعلانات الحزب قد تقهقرت إلى استخدام لون أزرق باهت رغم كل الإمكانيات. كـانت إحـدى شعارات الحزب النمطية تقول : "معنا ستكون أكثر أمانا" وهو شعار يصلـح كما لاحظ أحد المراقبين الإيطاليين كإعلان عن "موانع الحمل" اكثر مما يصلح لمرشح لدخول البرلمان في معركة انتخابية حامية الوطيس.

كنت أراقب جاستيك كورون في اليوم السابق للتصويت. كان يـروح جيئة وذهاباً على مسرح سينما متهالكة بحـي زوليبـورز العمـالي، يسـتثير حماس مؤيدي "تضامن" عرض علينا في بدايـة الأمـر، شـريط فيديـو طويـل، معظمه غير مسموع، عن تاريخ "لجنة الدفاع العمالية" KOR التي تأسسـت عام ١٩٧٦. كان ذلك بالنسبة لمعظم الحضور مجـرد تـاريخ قديـم. بعدهـا بـدأ كورون يجيب علـى الأسئلة. كـان أخـر هـذه الأسئلة حـول نقطـة مركزيـة حولها خلاف في الحملة الانتخابية : السيطرة على التلفزيون. قـال كـورون إن البث التلفزيوني ينبغي أن يكـون "عامـاً " وليـس "حكوميـا "، أن يكـون مثل "بي بي سي" البريطاني. ثم اقتطف ملاحظة كاشفة أدلى بها أحـد كبـار مسئولي الحـزب الحـاكم أثنـاء محادثـات "المـائدة المستديرة " حيـث قـال: "سنعطيكم " الزومـو " - أي بوليـس مكافحـة الشـغب - قبـل أن نعطيكـم التلفزيون ". وعلق كورون على ذلك قائلاً : " انه على حق تماما، ذلك إنـني أفضل التلفزيون "

صباح الأحد، يوم التصويت، ذهبت إلى مقر التصويت في زوليبورز برفقـة الناشـر السـري الـذي لا يقـهر اندرزيـش روزنـر، وزوجتـه آنيـــا، وطفلتهما زوزيا التي لا يزيد عمرها عن السبع سنوات. لاحظـت آنيـا بفخـر أن تلك أول مرة في حياتها تذهب فيها للتصويت، إذ قاطعت كل الانتخابات السابقة غير الحرة.واعترف اندرزيش انه أدلى بصوته مرة واحدة مـن قبـل.

وهو شئ محرج للغاية. ولكن كان عمره آنذاك ثمانيــة عشـر عامـاً فحسـب، ولذلك يمكن تجاهل تلك المـرة. تدفـق نـهر طويـل مـن النـاس، علـى الأرض الجدباء بين بلوكات العمارات الـتي لم ينتـهى العمـل فيـها بعـد، يـدورون حـول بـرك طينيــة متجنبـين الخـوض فيـها وهـم في طريقـهم إلى صنــاديق الانتخاب. وخارج مركز التصويـت كـانت " نقطـة الإعـلام " الوحيـدة تتبـع "تضامن ". وفي المركز كان كل شيء ملون بالألوان القومية الرسميــة : اللونـان الأبيض والأحمر : الرايات والملصقات،وحتى صناديق الانتخاب.

سلمت أوراق التصويت المعقّـدة لاندرزيـش وآنيـا : أوراق تصويـت منفصلة لكل مقعد في " السجيم" وهي " القائمة على المستوى القومي" المؤلفـة من خمس وثلاثين مرشحا بارزا من الحزب - الائتلاف. هؤلاء كان يجب أن يحصلوا على مجرد خمسين بالمائة أو اكثر من أصـوات النـاخبين ليفـوزوا في دوائر "مغلقة " عليهم. ثم ورقة تصويـت حمـراء طويلـة تضـم أسمـاء جميـع مرشحي "مجلس الشيوخ " العديدين. تجاهل اندرزيش وآنيا المكان المخصص للتصويت والستارة المسدلة عليه، وجلسا علـى مـائدة، وبـدآ عمليـة الشـطب الكبرى. وأحد أخطاء الاتفاقية هو الموافقة (عندما صمّم الحزب - الائتلاف) على أن يتم التصويت عن طريق شطب أسماء المرشحين غير المرغـوب فيـهم، وليس برسم علامة على المرغوب فيهم. هكذا أرتفع صرير الأقلام عندما أخـذ صديقاي يشطبان اسما بعد اسم في القائمة الرسميــة. كانـا يفعـلان ذلـك علـى

مهل مستمتعين باللحظة. وبلمسة رحمة أنثوية حانية. تركت آنيا اسما واحداً لم تشطب عليه من الخمس وثلاثين مرشحا رسميا في القائمة القومية" كان اسم قاض لم يكن "خنزيرا كاملاً" كما قيل آنذاك. ثم عدنا إلى المنزل نلف حول البرك الطينية الكبيرة، مارين بالبلوكات السكنية التي لم ينته بناؤها بعد، الشقق التي أقامها النظام الشيوعي. كنا نشعر بدفء هادئ ورضا عميق.

تكرر نفس هذا المنظر في كل أنحاء وارسو. فما أن حل منتصف اليوم، حتى انتظمت صفوف طويلة أمام المراكز الانتخابية. وعندما كنت أسال عن السبب، كان التفسير هو : "كما ترى، هذا هو موعد انتهاء الصلاة" هذا بالإضافة إلى التعقيد البالغ لإجراءات التصويت التي أخذت لذلك وقتا طويلا. أتى بعض الناخبين بعد أول "تناول"* لأطفالهم، يسحبون وراءهم بنات صغيرات في أردية بيضاء طويلة : أول "تناول" وأول انتخابات. لم يكن ذلك بالنسبة للأطفال فقط فقد رد زوجان ليسا في مقتبل العمر، على سؤالي قائلين وهما يبتسمان وقد اشتبكت أيديهما: نعم يا سيدي إنها المرة الأولى. وفي حي "براجا" على شاطئ النهر. وهو الحي الذي يماثل حي "البرونكس"* في نيويورك، أخذ أطفال المدارس يراقبون فصولهم

---

*التناول أحد أسرا الكنيسة المسيحية . فخلال القداس تتم الصلاة على "جسد" "ودم" المسيح. وبعدها "يتناولهما" بعض المصلين. – المترجم

* حي برونكس – من أفقر أحياء نيويورك – المترجم

وهي تستخدم كمراكز تصويت : مدرسة الديمقراطية. كـان كـل طفـل يحمـل تحت إبطه لفافة من ملصقات انتخابية، قاموا بنزعـها مـن علـى الحيطـان، وأخذوها كتذكارات.

في ممر بمقر للتصويت، أقترب مني رجل مُسن تبدو علية علامـات الحيرة، وسألني : "لا تؤاخذنـي يـا بنـى، هـل بيلينسـكى مـن جماعتنـا ؟ فأجبته : "نعم ... إنه من جماعتنا" فعاد، وارتفع صرير القلم وهـو يشـطب على كل "القائمة القومية" وهو يهمس لنفسه قائلاً : "لقد عانيت منـهم بمـا فيه الكفاية، طوال هذه السنوات" ثم حين تسلم الورقة الحمراء التفت مـرة أخرى ليسألني : "وفنديسين ... أهـو مـن جماعتنـا ؟ أجبتـه : "نعـم.. مـن جماعتنـا" ثـم سـألني : "وترزيشياكوفسـكي أيـن أسمـه؟" فأخذنـا نفحــص القائمـة بدقـة بحثـا عـن اسمـه. وفي هـذه اللحظـة جـاء سـكرتير مـن لجنـة الانتخابات يطقطق بلسانه وسألني بعدوانية عصبية : "مـا هـو الـدور الـذي تلعبه هنا ؟ كما لو أنه ينبغي أن أجيبه بقولي : "عميلاً للإمبريالية!"

في المساء، قمت بزيارة المطبعة العتيقة لصحيفة الحـزب اليوميـة "تريبيونـا لودو" وهى تطبـع الآن الصحيفـة اليوميـة المرتجلـة لــ "تضـامن" والمعارضـة "جازيتا فيبوريزا – " النشرة الانتخابية ". كانت تكنولوجيا الطباعة تماثل تلك التي كانت أيام تشارلز ديكنز في بريطانيا لكن أكثر مـا جـذب اهتمـامي هو "الرقيب" المتواجد بالموقع ومما أبهجني كثـيرا أن محـرري "الجازيتـا "

طلبوا مني الدخول للرقيب برسم كاريكاتوري للحصول علـى موافقتـه وكما لقنـت، طرقـت البـاب، وقلـت بلهجـة شخص ملـول : "مساء الخـير ... الجازيتا فيبوريـزا، الصفحـة الخامسـة" وبـدلا مـن شـخص مخيـف يضـع نظارات سوداء، وجدت أمامي امرأة ترتدى ثوبا مشجرا رخيصا، كما لـو كانت خادمة كانت تمسك بيدها كوب شاي، وقد تدلـت مـن فمـها سيجارة كانت تلك المرأة هي الرقيب. أخذت مني الرسم الكاريكاتوري، وأخذت تقرأ المقال المصاحب،ويفترض أنها كانت تبحث فيه عن "مضمون هدام" وإن كنت قد شعرت أنها فعلت ذلك لتثبت إنـها تسـتطيع القـراءة. وقعـت علـى ظـهر الرسم،وأرجعته لى ثانية،وشـوحت بيدهـا كـي ابتعـد، ورجعـت إلى كـوب شايها. فانحنيت وتركتها. وحتى عندئذ، ولم أكن أعـرف مـا تخبئـه الأيـام القادمة، شعرت أنه قد سنحت لى فرصـة لمشاهدة طقـس مـن طقـوس قبيلـة آخذة في الاندثار.

في وقت تالي تناولت كأسا مع جاسـيك كـوروك الـذي كـان يمضـى الوقت قبل ظهور النتائج . كان يروى بطريقته الفكهة ... عن رحلتـه الأولى للولايات المتحدة الأمريكية و اجتماعه بـالرئيس الأمريكـي جـورج بـوش . وعندما سألته عما قاله له الرئيس الأمريكي ، رد علي قـائلا: "قـال لي إنـه يقف إلى جانب الديمقراطية". فقلت له : "وأنا كذلك ".

صباح اليوم التـالي. أيقظـني رنـين التليفـون قبـل الثامنـة بقليـل.
وجاءني صوت يانوش أوينز كيفيتز، المتحدث باسم "تضامن" على المستوى الرسمي خلال السنوات السوداء الطويلـة منـذ عـام ١٩٨١ وهـو يقـول " لقد انتخبت في البرلمان". ويبدو انه حقق انتصارا كبـيراً علـى المستوى القومـي.
وخلال اليوم كله تواترت الأنبـاء الطيبـة، نبـأ بعـد آخـر كـان مقـر رئاسـة "لجنة مواطني وارسو" بمقهى يسمى "مقهى المفاجآت" -- أسم على مسـمى - وكان الدور الأرضي يضم مجموعة كاملة مـن شاشـات العقـول الإلكترونيـة، تقوم بجدولة آخر النتائج أولاً بأول.

وبحلـول بعـد الظـهيرة، تبـين لزعمـاء "تضـامن" أنـهم اكتسـحوا المجلس: كان من الواضح أنهم فازوا، وفي الجولة الأولى بجميع المقاعد الـتي كانوا يتنافسون عليها، باستثناء عدد لا يتعدى أصابع اليدين. حدثت أشـياء ثلاثة دفعة واحدة: فقد الشيوعيـون الانتخابات، وفازت "تضامن" واعـترف الشيوعيون بأن "تضامن" فـازت. وقـد تبـدو الأشـياء الثلاثـة منطقيـة، ومـع ذلك، فحتى اليوم السابق كان كل من يتنبأ بتلك الأحداث، سيعتبر مجنوناً.
وزيادة على ذلك، كانت الأشياء الثلاثة منفصلة ومتمايزة، رغـم أنـها كـانت متصلة منطقيا.

فأولا وفوق كل شـئ، خسـر الشـيوعيون الانتخابـات، ولكنـهم لم يخسـروا السـلطة. فمـازال لديـهم الجيـش والبوليـس، وجـهاز الحـزب،

و"النومينكلاتورا". خسروا التصويت، وبينما فاز جميع مرشحي "تضامن" تقريباً في الجولة الأولى كان على معظم مرشحي الحزب - التآلف الحاكم أن يخوضوا الجولة الثانية يوم ١٨ يونيو. كان من اكثر الأشياء مهانة أن مرشحين فقط من مرشحيهم الخمسة والثلاثين في "القائمة القومية"، حصلا على نسبة الخمسين في المائة من الأصوات الصحيحة، والتي كانت مطلوبة. وبكلمات أخرى، شطب أكثر من خمسين في المائة من الذين ذهبوا للاقتراع وتحملوا المتاعب، اسما بعد أسم : رئيس الوزراء، ووزير الداخلية، ووزير الدفاع، وآخرين من الشخصيات الحاكمة.

وثانياً فازت "تضامن" وهى لم تنتصر على الحزب - التآلف الحاكم وحده فحسب، بل انتصرت أيضاً على مرشحين محترمين للغاية في بعض الأحوال، مثل مديرين ناجحين، أو شخصيات تليفزيونية شهيرة. أو ممثلين لجماعات معارضة أكثر راديكالية بل لقد انتصروا على أقوى مرشحين: المسيحيون الديموقراطيون الذين كانوا يتمتعون بالتأييد الصريح لأساقفة الكنيسة، بل ومن في قمة الكنيسة. ففي ليلة التصويت، قام الكاردينال جوزيف جليمب رئيس الكنيسة (البولندية) باستقبال سلطت عليه الأضواء عمداً - للمرشحين المسيحيين الديموقراطيين ضد آدم ميتشنيك وجاسيك كورون، مرشحي "تضامن" الرسميين، وإن كانا من المجموعة التي يصفها ميتشنيك بحق "مجموعة اليسار العلماني". لكن رغم هذا التدخل

السافر غير العادي. فاز مرشحا "تضامن" فوزاً ساحقاً وتمتم المتفكهون : "على رئيس الكنيسة أن يقدم استقالته ".

وقد يعتقد البعض انه لم يكن ينبغي على " تضامن" أن تقلق بخصوص شعبيتها. لكن القلق ساورها. فقد توقعت معظم استطلاعات الرأي العام أن تتفتت أصوات الناخبين غير الشيوعيين. ومهما كانت الشرعية التاريخية النابعة من ١٩٨٠و١٩٨١*، ومهما كانت الشرعية الروحية من مباركة البابا، التي هي أسمى من مباركة الكاردينال جليمب**، ومهما كانت الشرعية الثقافية النابعة من نجوم السينما والحائزين على جائزة نوبل*** ومهما كانت شرعية التحدث باسم نقابات العمال النابعة من إضرابات العام الماضي، فليس هناك شيئاً، لا شئ إطلاقاً، يضاهي الشرعية من صناديق الانتخاب.

هناك خصم واحد فقط لم تهزمه " تضامن" ويمكن أن يطلق، بالقياس إلى "الجنرال شتاء"، الجنرال "الامتناع عن التصويت". لقد أجمعت جميع أطراف الحملة الانتخابية علي شئ واحد، ألا وهو انه ينبغي على

---

* إشارة إلى بدء تشكيل "تضامن" بميناء مدينة جدانسك وملايين العمال الذين انضموا لها، والمعارك التي خاضتها وانتهت بإعلان الحكام العرفية – المترجم.

** يؤيد البابا جون بول "تضامن" بينما يؤيد الكاردينال جوزيف جليمب رئيس الكنيسة الكاثوليكية البولندية اليمين الديمقراطي المسيحي– المترجم.

*** حصل ليخ فاليسا زعيم "تضامن" على جائزة نوبل– المترجم.

الجميع أن يتوجهوا إلى صناديق الانتخابات للإدلاء بأصواتهم. ورغم هذا كانت نسبة الذين أدلوا بأصواتهم من الناخبين متواضعة. ٦٢٪. وطبقا للأرقام الرسمية التي لا يعتمد عليها كثيراً ، فإن هذه النسبة أقل من نسبة الذين أدلوا بأصواتهم على استفتاء "الإصلاح الاقتصادي" عام ١٩٨٧. وربما استجاب قليلون لنداءات صدرت عن المعارضة الراديكالية لمقاطعة هذه الانتخابات لأنها ليست حرة تماماً. وربما شعر بعض موظفي الحزب المخلصين بالقرف مما يجرى لدرجة أنهم ظلوا في بيوتهم. لكن استطلاعاتي أنا شخصياً تقترح أن السبب هو التعب الشديد وعدم الإيمان بقدرة أي قوة سياسية: حمراء كانت أو بيضاء أو زرقاء، على إيقاف الانحدار الاقتصادي اليائس لبولندا.

أما الشيء الثالث الذي حدث وكان جديراً هو الأخر بالملاحظة، فهو اعتراف الحزب بالحقيقة. ففي مساء الاثنين ٥ يونيو ١٩٨٩ حين عرفت أولى النتائج، ظهر جان بيز يتاجا، المتحدث باسم اللجنة المركزية "لحزب العمال البولندي المتحد" (الشيوعي)، أثناء نشرة الأخبار المسائية، وهو يجلس جنباً إلى جنب مع يانوش أونيز كيبفتس من "تضامن"، وقال: "كان للانتخابات صفة استفتائية، وقد فازت فيها " تضامن". قال أشياء أخرى كثيرة من بينها على سبيل المثال: " إنه إذا هدد الانتصار والنزعة المغامرة الوضع في بولندا إلى حد الفوضى، فسيهدد ذلك الديمقراطية ويزعزع

السلام الاجتماعي بشكل خطير". (يكاد المرء يخطئ ويعتبر ذلك تهديداً) ولكن إذا أخذنا في الاعتبار أن ذلك هو أول رد فعل حزب أحتكر السلطة لأكثر من أربعين عاماً، وحارب" تضامن" بأسنانه ومخالبه لأكثر من سبعة أعوام. لقدرنا ذلك الموقف تقديراً كبيراً. بعد يومين قال الجنرال ياروزيلسكي ببساطة: "كانت تلك أول مرة يختار فيها الناخبون بحرية. وقد استخدموا تلك الحرية في شطب أسماء أولئك الذين كانوا في السلطة حتى ذلك الوقت".

الأحد ٤ يونيو ١٩٨٩

علامة، ليس فقط في تاريخ بولندا فيما بعد الحرب العالمية الثانية، وليس في تاريخ أوروبا الشرقية، ولكن في تاريخ العالم الشيوعي. ومع هذا، فعندما أندفع زعماء " تضامن" في حوارات محمومة، ومفاوضات، واجتماعات سرية في وقت متأخر من الليل، كان رد فعلهم مزيجاً عجيباً من الشعور بالقوة وعدم التصديق والانزعاج. انزعاج من المسئوليات الجديدة التي تواجههم الآن : مشاكل النجاح. ولكن أيضاً خوف متسلل من أن الأمور لا يمكن أن تسير هكذا بشكل سهل طيب. وشدد من هذا الخوف الأخبار القادمة من الصين عن " مذبحة " الطلبة الذين تظاهروا من اجل الديمقراطية في ميدان تيانانمان والتي حدثت في نفس اليوم. كانت تجربة مخيفة أن أشاهد. مع مجموعة من الصحفيين البولنديون المعارضين. في نفس يوم

الانتخابات بعد الظهر. الأخبار ينقلها التلفزيون من بكين : الأحكام العرفية. الدبابات. الغازات المسيلة للدموع. الجثث التي كانت تحمل على الأكتاف.لقد شاهدنا نفس الشيء هنا من قبل : في جدانسك، وفي وارسو.

حين بدأ زعماء " تضامن " ينغمسون في السياسة الحقيقية بكل مراوغاتها وحلولها الوسط وأنصاف حقائقها، شعر كثيرون منهم بمشاعر متناقضة. كان هناك اكثر من مجرد لمسة حنين للحقائق البسيطة والوضوح الأخلاقي في فترة الحكم العسكري. فقد يتوق المرء بشدة لأن يكون لبولندا سياسات " عادية "، لكن الموضوع يتحول إلى شئ آخر حين تشاهد أصدقاءك يتصرفون كسياسيين عاديين. ومع ذلك فما هو البديل ؟ آتى الجواب : "ميدان تيانانمان ".

واجهت " تضامن " عدة قضايا أساسية بعد فوزها في الانتخابات: البنية الداخلية لحركة المعارضة،طبيعة مساهمتها في الحكومة وتوقيته وشروطه، ردها على الأزمة الاقتصادية التي تمسك بخناق البلاد والأخذة في الازدياد والتعمق. فماذا كان شكل " تضامن" صيف عام ١٩٨٩ ؟ كانت ثمة أشياء على الأقل :

<u>فأولاً</u> كانت " تضامن " هي ليخ فاليسا الذي وصلت شعبيته وسلطته الشخصية إلى قمم غير عادية. ساندها بطبيعة الحال كل اجتماع

عقده مع الرئيس الفرنسي فرانسو ميتران، والرئيس الأمريكي جورج بوش؛

وثانياً هناك المجموعة البرلمانية وتتكون من ١٦١ نائباً في "السيجم" الذي يضم ٤٦٠ عضواً، و٩٩ من مائة عضو بمجلس الشيوخ. مثل أولئك النواب الجدد اتجاهات وتقاليداً شديدة التباين والاختلاف. ولكن يوم ٤ يونيو كان قد تم انتخابهم جميعاً - سواء أكانوا " اشتراكيين ديموقراطيين، أم محافظين، مسيحيين أم يهود، أذكياء أم أغبياء " لأنهم مرشحو " تضامن " وليخ فاليسا. قال أحد المرشحين الشيوعيين الذين هزموا، بمرارة شديدة : "لو آن " تضامن " - أو المعارضة - رشحت حماراً، لاختاره الشعب ". ومن المحتمل أن يكون هناك بعض الصحة في هذا الكلام. ويمكن للمرء أن يضيف لو كان الحزب الشيوعي البولندي قدم " سان بول " كمرشحه، لكان الاحتمال أن يهزم "؛

وثالثاً كانت " تضامن" هي البنية الفضفاضة لـ"لجان المواطنين" على المستوى القومي والإقليمي والمحلى، والتي نظمت الانتخابات فعلياً. فإلى جانب المخضرمين من النشطين في "تضامن"، انضم كثيرون من النشطين سياسياً إلى "لجان المواطنين" تلك : أطباء ومهندسون ومدرسون وصحفيون، لم يمارسوا العمل السياسي من قبل. وكان هؤلاء هم التنظيم الأساسي في كل

دائرة بالنسبة لأعضاء البرلمان الجدد. فكانوا بهذه الطريقة هم الحضانات المحلية لديمقراطية بولندا الوليدة؛

ورابعاً وأخيراً، كانت " تضامن" كما نشأت في بداية الأمر نقابة عمالية. لكن نمو "تضامن" كنقابة عمالية كان بطيئاً منذ أعيد تسجيلها في شهر أبريل. فلم تكن هناك تلك الديناميكية الوفيرة لخريف عام ١٩٨٠ عندما انضم ما يقدر بحوالي ثلاثة ملايين عامل إلى النقابة الوليدة في أسبوعين. فبعد إعادة تسجيلها بشهرين، قدرت عضويتها بين المليون ونصف، والمليونين، ولا يتصور أحد أن يصل رقم عضويتها إلى عشرة ملايين عامل، كما كان عام ١٩٨١. وإذا ما عبرنا عن ذلك بطريقة أخرى لقلنا أن حوالي واحد فقط من كل سبعة ممن أعطوا أصواتهم لمرشحي " تضامن" - المعارضة، اختار الانضمام إلى نقابة " تضامن ". وفي أحسن الأحوال ستستغرق المسألة بعض الوقت لفهم العلاقة بين الأربعة أوجه لتضامن.

كان أحد مصادر الخلاف المتكرر، هو أسلوب ليخ فاليسا المتغطرس، للزعامة بل و"الدكتاتوري" في الحقيقة كما يقول البعض، الأسلوب الذي يمارسه في النقابة وفي الساحة السياسية الأوسع. فحتى في الفترة الأولى للوجود الشرعي "لتضامن"، عامي ١٩٨٠ و١٩٨١، كان لـ "ليخ فاليسا" موقفاً متبايناً إلى حد ما داخل الحركة، من الديمقراطية. ولم يضعف من اتجاهه هذا، ارتفاعه الفريد إلى وضعية " الحاصل على جائزة نوبل"

ورجل دولة على النطاق الدولي. لكنه رد الآن، كما فعل عندئذ، رداً عمليا قوياً. ففي مقابلة صحفية في أول عدد من مجلة "سوليدارتي ويكلي" التي أعيد إصدارها، تساءل: "هل يمكنك أن تقود سفينة في بحر عاصف، بأسلوب ديموقراطي تماماً ؟".

اصبح نموذجه الشخصي الذي يحترمه ويحتذيه اكثر فأكثر، هو الماريشال جوزيف بيلسدوسكي الذي قاتل من اجل استقلال بولندا في البداية، ثم ترأس "الجمهورية البولندية المستقلة " بعد انقلابه عام ١٩٢٦، بأسلوب سلطوي واضح. سمعت ليخ فاليسا يقول في الاجتماع الأول للهيئة البرلمانية لتضامن والمعارضة التي كانت قد انتخبت حديثاً : "في الحقيقة، ينبغي علينا أن نبدأ اجتماعنا بغناء" نحن اللواء الأول، مشيراً بذلك إلى النشيد الذي كانت ترددة كتائب بيلسدوسكي أثناء الحرب العالمية الأولى. لكنه حين واصل كلامه محدداً كيف يريد أن يبني شكل "مجموعة برلمانية" وقيادتها، لم يكن هو حتى مجرد عضو فيها، قوبل بتمرد فوري. قال الذين ردوا عليه : "إن هذا نوع من الانقلاب، ونحن في حقيقة الأمر لا نستطيع أن نبدأ في بناة الديموقراطية. بهذه الأساليب البلشفية ". وتراجع ليخ فاليسا على الفور وصاح محتجاً : " أنا احب الديموقراطية. أنا أهوى الديمقراطية". وسيحدث ما حدث في هذا الاجتماع، في السنوات القادمة، وفي الصراعات الأكبر التي لابد ستحتدم. فهناك حاجة موضوعية إلى أن يكون ليخ فاليسا

زعيما قويا. لأن هناك حاجة موضوعية إلى زعامة قويـة. وقـد تكـون هنـاك أيضاً - وذلك إذا جاز للمرء أن يخمن - رغبة شخصية في وجود زعيـم قـوي. وقد يكون الأسـلوب السـلطوي الـذي قوبـل مقابلـة سيئة مـن الديمقراطيين المعارضين، قد يرفع من شأن ليخ فاليسا، بالفعل، في نظر جمهور أوسع.

ومـع هـذا، فبينمـا كـان ا لماريشـال بيلسدوسـكي محاطـاً بالكولونيلات، فإن ليخ فاليسا محاط بأساتذة الجامعات. وبينما كانت بولندا ما قبل الحرب العالمية الأولى تعيش وسط أوربا التي تغطيها الدكتاتوريات، تنظر بولنـدا اليـوم ناحيـة أوروبـا الغربيـة ذات الديمقراطيـات الليبراليـة. فأستاذ الجامعة الحكيم الدكتور برونيسلاف جيريميك هو ساعد ليخ فاليسا الأيمن، وهو خليط مثير من الماكولية والميكافيلية، يعرف بالضبط مـا تحتـاج إليه بولندا : الأوربية، الغربية، العصرية.

في ذلك الاجتماع الأول لـ" اللواء الأول" الذي أنعقد خلف الأبـواب المغلقة بقاعة المحـاضرات الرئيسـية بجامعـة وارسـو. أنتخـب جـيريميك رئيساً للمجموعة البرلمانية للنواب الذين رشحتهم وتبنتهم " تضامن" في كـل من مجلس البرلمان. وحـين جلـس علـى مقعـده، اكتسـب الاجتمـاع فجـأة، السرعة والنظـام. وكـانت أول قضيـة دار حولهـا الحـوار. هـي الاسـم الـذي ينبغي أن تطلقه " المجموعة " علـى نفسـها. صمّم ليـخ فاليسـا، ضـد رغبـة بعض الحاضرين، على ألا يتضمـن الاسـم كلمـة "تضـامن". وإنمـا ينبغـي أن

يكون مفتوحا لجميع الاتجاهات الديمقراطية المستقلة في بولندا وقال أن هناك الآن اتجاهات مختلفة ستتسع الخلافات فيما بينها في المستقبل ،ولابد وأن يحدث ذلك. إذا ما كان لبولندا أن تصبح ديموقراطية حقيقية. اقترحت عدة أسماء، وفي النهاية استقر الرأي على "المنتدى البرلماني للمواطنين" OKP.

عند تلك النقطة، في منتصف شهر يونيو، وضع زعماء "تضامن" "جدول أعمالهم" المثالي للانتقال إلى الديمقراطية والذي أطلق عليه المخططون البولنديون اسم " الهارمونوجرام". وهو كما يلي: سيعملون في السنة أو السنتين القادمتين كمعارضة، داخل وخارج البرلمان، تتحكم في سلوك حكومة اكثر كفاءة إذا ما استمرت تحت قيادة الحزب الشيوعي، وتدخل تشريعات جديدة في مجالات جديدة، وتفتح وسائل الإعلام أمام جميع الاتجاهات، وتصلح النظام القضائي، وتبنى تنظيماتها عند القواعد الجماهيرية، وتبني نقابة "تضامن" كذلك. بعد هذه السنة أو السنتين تجرى انتخابات المجالس المحلية، فتضع نهاية لسيطرة "النيومينكلاتورا" غير الكفء والبيروقراطية الفاسدة، على تلك الدرجات الحيوية السفلي من الحياة العامة البولندية. وأثناء ذلك تجرى مشاورات مستمرة غير رسمية بين زعماء الحزب الشيوعي الحاكم، وزعماء " تضامن" تحل خلالها القضايا التي يدور حولها خلاف.

وخلال أربع سنوات، كما اتفق في مفاوضات "المائدة المستديرة" تجرى انتخابات حرة تماماً للبرلمان، على المستوى القومي. وعند تلك النقطة يكون من المتوقع تشكيل حكومة غير حزبية. ويمكن ضمان الاستقرار والقبول السوفييتي، عن طريق الرئيس الجنرال ياروزيلسكى المنتخب لمدة ست سنوات. وبجرعة لا بأس بها من التفاؤل والخيال، يمكن تصور انتخاب ليخ فاليسا كرئيس للجمهورية في عام ١٩٩٥، الذي سيترأس آنذاك نظاماً، وإن كان مركزياً وحتى شمولياً عند القمة، إلا أنه رغم ذلك يسمح بديموقراطية متعددة الأحزاب، وملكية مختلطة، واقتصاد سوق ينمو من تحته. باختصار، سيكون ليخ فاليسا بالنسبة لبولندا ما كانة الجنرال ديجول لفرنسا. هكذا يتحقق "هارمونوجرام" الحلم، لو تساوت جميع الأشياء.

لكن جميع الأشياء غير متساوية، لا داخلياً ولا خارجياً. وكانت المشكلة الداخلية أن "تضامن" تمتص إلى السلطة بأسرع مما تريد. فقد واجهت اختيارات لم تكن تتوقع أبداً أن تواجهها. وأكدّ زعماء "تضامن" انه حين جرى التفاوض على "المائدة المستديرة" لم يذكر اسم الجنرال ياروزيلسكي بصفة قطعية فيما يتصل بذلك المنصب. لكنه إذا كان لم يذكر بصفة قطعية فذلك لأنه أي تلميذ كان يمكنه أنه يرى أن المنصب مفصّل

عليه. كانت تلك هي الصفقة. وبدا آن التوزيع المتفق عليه للمقاعد في البرلمان، يضمن انتخابه.

لكن أحداً لم يضع في الحسبان المستوى الضخم لفوز "تضامن" ولهزيمة الحزب - الائتلاف؛ لا "تضامن" ولا الحزب على السواء. وعندما كشف بعض الأعضاء الذين كانوا خانعين قبلاً، من "الحزب الديمقراطي" "وحزب الفلاحين المتحد" وهما في الائتلاف الحاكم، أنهم لا يريدون أن يصوتّوا للجنرال ياروزيلسكى، وجدت "تضامن" نفسها في وضع مخيف، فهي تبدو ظاهرياً أنها قادرة على منع انتخاب الجنرال ياروزيلسكى رئيساً لجمهورية بولندا. فلن يغفر لهم مؤيدوهم أبداً أنهم صوتوا مع الجنرال ياروزيلسكى والجيش والبوليس وجهاز الحزب، وربما موسكو، لن يرضى أي منهم بمرشح من خارج الحزب الحاكم (الشيوعي). فماذا بحق السماء على " تضامن" أن تفعله ؟ هكذا ظهر أمامنا المنظر السيريالي لأشخاص أعتقلهم الجنرال ياروزيلسكى وسجنهم أثناء فترة الحكم العسكري، ومع ذلك فهم يجهدون تفكيرهم في الطريقة التي يضمنون بها انتخابه رئيساً.

في نفس الوقت، حدث تحول إلى الأسواق في الاقتصاد "المرئي" - العلني، إذ أدخلت سلسلة من الزيادات في أسعار الحاجيات، كان قرار زيادتها قد تأجل إلى ما بعد الانتخابات. زادت أسعار السكر، والكحوليات، والبنزين، في تتابع سريع. وإذ رأى الناس زيادات أخرى

قادمة في الطريق. اندفعوا في حمى الشراء فاختفت السلع من على أرفف المحلات، وارتفع سعر تبديل النقد في السوق إلى مستوى غير مسبوق حتى وصل سعر الدولار إلى ستة آلاف "زلوتي" [العملة البولندية] ويجعل هذا متوسط الأجر الشهري بسعر السوق الحر حوالي خمسة جنيهات إسترلينية شهرياً. وانهار تجميد كان مزمع إجراءه للأسعار والأجور، وتزايد التضخم إلى أرقام في خانات المئات. ولم يكن من الممكن استمرار الوضع بهذه الطريقة.

بعد الانتخابات، كانت الحكومة التي تحصل على تأييد "تضامن"، هي وحدها التي ستحوز المصداقية اللازمة لتمرير الإجراءات المؤلمة للتقشف وإعادة الهيكلة التي ستصاحب بالضرورة أي برنامج جاد للإصلاح الاقتصادي. وكما أوضح الرئيس ميتران والرئيس بوش والسيدة مرجريت تاتشر، فإن الغرب الذي ينظر إليه جميع الأطراف الآن بصفته "يد الله"، سوف "يقدم غوثاً كبيراً للديون ومساعدة مباشرة متواضعة للقطاع الخاص حتى في تلك الظروف المتسمة بالفوضى. لكنه لن يستطيع أن يقدم برامجاً واسعة المدى من مساعدات "البنك الدولي" و"صندوق النقد الدولي"، إلا إلى حكومة تستند إلى الدستور، وتتبع سياسة اقتصادية تتسم بالمصداقية.

قال زعماء "تضامن" انهم غير مستعدين لذلك الدور: عمليا ونفسيا. ذلك أن اقتصادييهم ليس لديهم إلا خطوطاً عامة لبرامج، بل والأسوأ أن برامجهم متنافسة، تبدأ من البرنامج الراديكالي الليبرالي إلى برنامج "السوق

الاشتراكي". لكنهم لا يملكون، ولا يمكن أن يكون لديهم، التفاصيل العملية التي لا يمكن الحصول عليها إلا بالجلوس على كراسي الوزارات. لكن تلك الوزارات، والهرم الكامل للبيروقراطية تحتها، كان ما يزال يشغلها جميعاً رجال وضعهم الحزب: النومينكلاتورا. ودخول الحكومة في ظل تلك البنى الأساسية دون تغيير سوف يكون، كما تقول "تضامن": حكماً عليها بالفشل. ويقتضي تغيير تلك البنى وقتاً. والوقت هو الشيء الذي لا يمتلكونه. لقد كسبوا الانتخابات، والبلاد في حاجة إليهم... الآن.

حصلت عليهم البلد، ولكن ليس فورا. فأولاً كان على مجلسي البرلمان، كهيئة مشتركة، انتخاب رئيسا للجمهورية. فهل يفوز ياروزيلسكي؟ استمرت النتيجة معلقة لمدة شهر بعد الجولة الثانية الانتخابية. وأخيرا تم انتخاب الجنرال يوم ١٩ يوليو، بأغلبية صوت واحد فقط. كان السبب الوحيد في فوزه هو "تضامن": سبعة من أعضاء "تضامن" – المعارضة صوتوا عمدا بطريقة غير صحيحة لكي يضمنوا انتخابه، بينما امتنع عدد آخر عن التصويت. وغضب كثير من مؤيدي "تضامن" غضباً شديدا، لكن العقل المدبر للحركة جادل بأن ما حدث هو أفضل نتيجة ممكنة. كان لابد من انتخاب ياروزيلسكي. كانت تلك هي الصفقة. فقد كانت الأجهزة التي يقودها الحزب، والجيش، والبوليس، ما تزال تمسك بزمام السلطة الحقيقية في البلاد. ومن ناحية أخرى يبين انتخابه بأقل

أغلبية ممكنة – وكما هو واضح بناء على رضا "تضامن" – يبين بلا مواربة من هو الذي يملك الشرعية الحقيقية في البلاد. وفي الحقيقة، فإنه أثناء محادثة جرت بعد انتخابات ٤ يونيو، توقع واحد من أذكى تلك العقول السياسية، هذه النتيجة بالضبط [ولابد من عدم ذكر اسمه نظراً للظروف التي مازالت قائمة في البلاد حتى الآن]. قال: "إذا بدا أن الرئيس لن يحصل على الأغلبية اللازمة، فإن بعضنا ينبغي أن يسقط صريع الأنفلونزا"!.

وفي اجتماع كامل لقيادة "حزب العمال الموحد"، غير الموحد بطريقة مزمنة، اتفق على أن يخلف ميشيسلاف راكوفسكي، الجنرال ياروزيلسكي كزعيم للحزب. ويقال أن راكوفسكي ليبرالي، وينظر إليه في الغرب بعين الرضا منذ قديم. ودعا راكوفسكي جنرالاً شيوعياً آخر، هو الجنرال كيزتشاك لتأليف حكومة "ائتلاف كبرى" تضم "تضامن". كان كيزتشاك شخصية رئيسية في الاتفاق الذي تم التفاوض حوله في "المائدة المستديرة"، لكنه كان أيضا وزيراً للداخلية أثناء فترة الأحكام العرفية بكاملها. فهل يخدم زعماء "تضامن" الأن، تحت قيادة سجانهم السابق؟ إذن من الذي فاز في الانتخابات ؟ لقد كان الجنرال كيزتشاك نفسه على "القائمة القومية"، ولم يفز. وعندما قال لآدم ميتشنيك في اجتماع بعد الانتخابات: "إني أرحب بك في "السيجم"، رد عليه قائلاً: " لا يا سيدي الجنرال أنا

الذي سأرحب بك في "السيجم". ومع هذا، كان عدد من استراتيجيي "تضامن" الأساسيين ومن بينهم ميتشنيك نفسه، يفكرون في ذلك الوقت في محتوى تحالف استراتيجي مع "شيوعيين إصلاحيين". ثم جاء ليخ فاليسا ليقدم اقتراحا بديلاً: "تحالف صغير" ليس "مع الشيوعيين ولكن مع الأحزاب التابعة السابقة. " الحزب الديموقراطي" و "حزب الفلاحين المتحد". كان معظم نواب الحزبين، مستعدين تماما للتخلي عن أسيادهم السابقين، وأن يكونوا لأنفسهم بعض المصداقية قبل إجراء انتخابات حرة حقيقية. وكان هذا الائتلاف الصغير سيحوز على أغلبية في البرلمان، حيث أنه خصص للشيوعيين ٣٨٪ من مقاعد "السيجم" طبقا لشروط اتفاقية "المائدة المستديرة".

بعد أسبوعين آخرين من المفاوضات المحمومة، اعترف الجنرال كيز تشاك، متفضلا، بأنه لا يمكنه تشكيل حكومة، فتكرم الرئيس ياروزيلسكي بدعوة تاديبيش مازوفيسكي ليشكل حكومة.هكذا انتقل الصولجان من يد السجان، إلى يد السجين لأن تاديبيش مازوفيسكي، مثله مثل معظم عظماء "تضامن"، كان قد اعتقل لمده عام في ظل الأحكام العرفية. كان ليخ فاليسا قد كشف أنه يأخذ في اعتباره اختيار أحد ثلاثة مرشحين لمنصب رئيس الوزراء: مازوفييسكي، وكورون، وجيرميك. بينما كان - طبقا للعالمين ببواطن الأمور - يتوق في سريرته لأن يتولى هو نفسه المنصب.

كان مازوفييسكي أقل من أن يكون منافسا سياسيا لـ "ليخ فاليسا" في المستقبل من جيرميك. ولأنه كاثوليكي ورع - رأيه كان ليبراليا - فهو مقبول أيضاً في الكنيسة. ومن المفترض انه سيحاول إقامة "تحالف عريض" وليس صغيرا، يضم شيوعيين في مناصب حساسة.

لم يكن أحد يعرف في ذلك الوقت إذا ما كانت موسكو ستقبل ذلك الترتيب. فرغم التصريحات العمومية الجميلة، وآخرها ما جاء في خطاب ميخائيل جورباتشوف أمام "المجلس الأوروبي" بستراسبورج في شهر يوليو، كان هناك بعض التأفف المنذر من صحيفتي "البرافدا" و "الإزفستيا". ويقال أن ما كان ذا أهمية قاطعة في تحديد موقف الحزب وموسكو، كان مكالمة تليفونية بين ميخائيل جورباتشوف وراكوفسكي الزعيم الجديد لحزب "العمال البولندي الموحد" (الشيوعي) يوم ٢٢ أغسطس. [ومرة أخرى أتساءل إذا ما كان المؤرخون سيجدون في المستقبل أي سجل مكتوب لتلك اللحظات التاريخية]. وصدق "السيجم" يوم ٢٤ أغسطس عل تعيين مازوفييسكي، وحصل على أصوات معظم النواب الشيوعيين، وأمسى واضحاً أن الحزب الشيوعي مستعد من حيث المبدأ ليخدم تحت رئاسته.

بعد ثلاثة أسابيع أخرى من المفاوضات الطويلة المضنية، استطاع مازوفييسكي تشكيل حكومته الجديدة وتقديمها للبرلمان يوم ١٢ سبتمبر. عند إحدى مراحل التفاوض اضطر إلى أخذ فسحة من الوقت ليتمشى في

حدائق لازينسكي، بدا عليه الإرهاق الشديد لما بذله من مجهود في الشهر السابق. قال في خطاب قبوله أمام "السيجم": " أتيت كعضو في "تضامن" وكمخلص لميراث أغسطس". وأنهى خطابه بالقول: "أنا أؤمن بأن الله سيساعدنا على أن نخطو خطوة عظيمة على الطريق الذي انفتح أمامنا الآن". أعيد نشر هذه الكلمات بالضبط في "تريبونا لودو" صحيفة الحزب (الشيوعي) اليومية، بالبنط العريض. كما قدمت الصحيفة تاريخ حياة أعضاء الحكومة الجديدة. ها هنا يجلس جاسيك كورون كوزير للعمل والشئون الاجتماعية، جنباً إلى جنب مع الجنرال شيسلاف كيز تشاك الذي ظل وزيرا للداخلية. لقد احتفظ الحزب (الشيوعي) بالوزارتين المهمتين، وهما وزارتا الداخلية والدفاع، وإن سلمت حقيبة وزارة الخارجية إلى شخصية مستقلة غير حزبية،إذ تولاها البروفيسور كريزتوف سكوبيز فيكي، وهو محام محترم متخصص في القانون الدولي.

ومع ذلك، كانت أهم المناصب هي المناصب الوزارية الاقتصادية. فخلال كل الفترة البطيئة والمؤلمة التي استغرقتها المفاوضات على طريق التحول، سار الاقتصاد إلى الأسوأ والأسوأ ثم الأسوأ. فجذور الأمراض الاقتصادية البولندية يمكن إرجاعها إلى الماضي إلى عشرين عاما عند بداية تجربة جيريك المشئومة، وربما إلى أربعين عاما مضت عندما فرضت الستالينية الكاملة على البلاد. وربما إلى خمسين عاما، إلى تاريخ الغزو

النازي لبولندا. لكن ليس هناك شك في أن بولندا دفعت ثمنا اقتصاديا إضافيا لكونها "فاتحة الطريق الجليدي للتحول السياسي". كان هذا حقيقيا بمعنى أشمل خلال الثمانينات، وبمعنى أضيق خلال عام ١٩٨٨. ففي تلك الفترة أخذت كل القيود السياسية تضعف، بما فيها تلك المفروضة على المطالبات بزيادة الأجور، وقامت آخر حكومة شيوعية في بولندا باتخاذ إجراءات غير مسئولة وبالذات قرار تحرير أسعار المنتجات الزراعية، بدون أن تخلق السوق الحرة لتنظيمها، عند هذا، تصاعد التضخم إلى ذروات علا من ٦٤٪ عام ١٩٨٨ إلى ٦٤٠٪ عام ١٩٨٩.

ساد بين المتحدثين للشئون الاقتصادية لـ "تضامن" أثناء مفاوضات "المائدة المستديرة" وأثناء الحملة الانتخابية، طريق التفاؤل الحريص والتدريجي "للسوق الاشتراكية". وكان رئيس الوزراء الجديد شخصيا متأثرا إلى حد كبير بالتعاليم الاجتماعية للبابا، فكان يؤمن أيام شبابه المبكرة بإمكانية "الاشتراكية - المسيحية". ومع ذلك كان أول تصريح أدلى به كرئيس الوزراء: "إني أبحث عن لودفيج ايرهارد الخاص بي" ولقد وجده في اقتصادي راديكالي - ليبرالي هو لاسيك بالسيروفيتش، "ايرهارده دون سيجار". وضم الفريق الذي اختاراه أثنين من أعلى المدافعين عن السوق الحرة والخصخصة في بولندا، وهما تادييش سيريجسك وزير الصناعة الجديد، والكسندر باسينسكي وزير الإسكان الجديد.

عمل فريق بالسيروفيتش بسرعة مثالية، جاهدا ليعوض ليس خمسين يوما، بل خمسين عاما مفقودة. وخلال أسبوعين كان بالسيروفيتش يقدم لوزراء مالية العالم الغربي في اجتماع لـ "صندوق النقد الدولي" بواشنطن، الخطوط العامة لخطة "تحويل اقتصاد بولندا إلى اقتصاد سوق". وخلال ثلاثة أشهر فقط، قدم للبرلمان البولندي يوم ٢٧ ديسمبر ميزانية متوازنة، ومجموعة مكونة من إحدى عشر قانونا هدفها وضع أسس الاقتصاد البولندي لنصف القرن القادم. ورغم أن الوقت كان الكريسماس – أعياد الميلاد– وأخذ النواب يدمدمون، فقد انتهوا من سن جميع القوانين المطلوبة في أثني عشر يوما لا غير، حتى يمكن إطلاق طلقة البداية لبولندا في اليوم الأول لعقد التسعينات الجديد. وفي فترات الاستراحة، كان النواب يصطفون ليقطعوا "تورتة" عيد الميلاد التقليدية مع رئيس الوزراء، وهم ينشدون التراتيل الدينية في فترة انتظارهم. وقالت صحفية "تضامن" اليومية "جازيتا فيبورزا" أن "النواب الشيوعيين كانوا أعلى النواب صوتا خلال التراتيل". أه ... نعم. في نفس ذلك الوقت ألغوا كلمة "الشعبية" من أسم الدولة ليعود إلى الاسم التاريخي القديم : "جمهورية بولندا". وأعادوا وضع التاج فوق رأس النسر البولندي في شعار الدولة.

على أن الاختيار الحرج للتحول الاقتصادي، كان ما يزال في الطريق. وكانت المرحلة الأولى من التحول السياسي سلمية وبراجماتية

يسودها الوفاق بطريقة ملحوظة. فبعد قتال دام لأكثر من عشر سنوات بين زعماء "تضامن" و"الحزب الشيوعي". أصبحوا الآن يعملون جنبا إلى جنب بلا حنق يزيد على ما بين فريقي كرة متنافسين. وظلت معظم البيروقراطية المركزية في مكانها تعمل بإخلاص بل وبحماس في خدمة سيدها الجديد.

حين قمت بزيارة صديقي هنريك فوزيناكوفيسكس، وهو مثقف كاثوليكي أسند إليه منصب نائب المتحدث باسم الحكومة، ويشغل حجرة مكتب تدل على أهميته، اكتشفت أن التحديث الرئيسي الوحيد الذي نفذ في مبنى "مجلس الوزراء" كان إيجاد حجرة لتنس الطاولة. فكما قال ليخ فاليسا مرة: "قد لا تصبح الأمور أفضل، لكنها على الأقل ستكون أكثر بهجة". وعند الجلوس في الكانتين لا يستطيع المرء أن يفرق بين "النومينكلاتورا" وبين أعضاء "تضامن". وربما كان أعضاء "تضامن" يجلسون غير مرتاحين في البذات الجديدة وهم يضعون ربطات العنق. علق جاسيك كورون على هذا بقوله: " إن هذه الملابس تحرمني من نصف قدراتي الذهنية" وعاد إلى القميص المفتوح والجينز.

بعد ثلاثة أشهر فقط لا غير، أصبحت الحياة السياسية البولندية "طبيعية" بدلا من أن تخضع لـ "التطبيع". فبدلا من المنظر السياسي المعقد للثمانينات بممثليه الثلاثة الكبار: السلطة، "تضامن"، الكنيسة، جاء منظر جديد ممثلوه الرئيسيون: الحكومة، والبرلمان، والرئاسة. ثم ليخ

فاليسا كـ "جوكر" ورئيس منتظر. وبدأت الحكومة تحكـم. وقـد يبـدوا هـذا شيئا عاديا، ولكن لم يحدث في بولندا منذ خمسين عاما على الأقل.

اعتقد كثير من المراقبين أن السمة النقابية أو سمـة حركـة العمـال للمعارضة البولندية – لتضامن – ستكون عيبا رئيسـيا عندمـا يبـدأ السـير في طريق التحول إلى اقتصاد السوق، لأن الذين سيعانون أقسى معانـاة من ذلـك التحول، هم بالتحديد العمال، وبـالذات العمـال غـير المـهرة في المجمعـات الهائلة، الستالينية المهدرة، والـتي هـي معـاقل لـ "تضـامن". علـى أنـه في النصف الثاني لعام ١٩٨٩، بدا وكأن العكس هو الصحيـح. أمسـت "تضـامن" ضعيفة الآن كنقابة، حيث وصل عدد أعضائها في نهاية عام ١٩٨٩ بالكـاد إلى المليونين. لكن ظل ميراث "تضامن" ميزة لا تقدر بثمن.

كان رئيس الـوزراء، ووزيـر العمـل، ورئيـس "منتـدى المواطنـين البرلماني"، و رئيس تحرير "جازيتا فيبوروزا" – هذا إذا تركنا ليـخ فاليسـا جانبا – رجال "تضامن" بلا مراء. فلو أنهم وجـهوا نـداء الآن إلى العمـال: " لا تضربـوا". أو "اقبلـوا إغـلاق المصـانع"، أو "اقبلـوا تخفيـض الأجـور"، فسيكون لدى زعماء "تضامن" فرصة أفضل لكي يستمع إليـهم العمـال أفضـل من أي شخص آخـر، لأن العمـال يعرفـون أن أولئـك الرجـال، أكـثر مـن أي رجال آخريـن، قـد نـاضلوا مـن أجـل حقوقـهم علـى مـدى السـنوات العشـر الماضية. قام جاسيك كـورون بـالذات، بتوجيـه مناشـدات مباشـرة تنفـذ إلى

القلب. للجمهور من خلال برنامج حوار أسبوعي تليفزيوني (فكما ذكر في اجتماع ما قبل الانتخابات. أنه يفضل السيطرة على البوليس السري). وفي الشهور الأولى لحكومة مازوفييسكي. وجدت الحكومة نفسها في وضع فريد، تتزايد فيه شعبيتها مع ارتفاع الأسعار. وفي استطلاع للرأي العام أجري يوم ٤ يناير. قال ٥٧٪ ممن تم سؤالهم إن سجل الحكومة "جيد" أو جيد جدا"، بينما أعلن ما لا يقل عن ٥٠٪ أنهم يفضلون العلاج المقترح للاقتصاد البولندي. لكن إذا كانت تلك الشعبية ستبقى بعد "العلاج بالصدمة"، فهذه مسألة أخرى.

في أحد أيام أكتوبر ١٩٨٩، دعيت ممثلة جميلة جدا. اسمها جوانا سبيزيبكوفيسكا الظهور على شاشة التليفزيون البولندي. في برنامج إخباري. كانت تريد أن تلقي بيانا. قالت: "سيداتي ..سادتي..في يوم ٤ يونيو ١٩٨٩. انتهت الشيوعية في بولندا. كان من الطريف أن تجد فتاه جميلة تقول مثل هذه العبارة، وبالذات في التليفزيون البولندي. لكن ... هل كان شيئا حقيقيا؟ هل كان صحيحا ؟ قال البروفيسور الحكيم برونيسلاف جيرميك: "لا أدرى إذا كنت أنا شخصيا أستطيع أن أدلي بهذا البيان في التليفزيون. لكنها الحقيقة غير المزوقة. وأنا اتفق معها تماما". ففي ذلك الوقت لم نكن نعرف تلك الحقيقة. ربما كنا نلتمسها. ولكن إذا نظرنا إلى الماضي، ونحن في شهر يناير ١٩٩٠. نستطيع أن نقول بالفعل أن ٤ يونيو

١٩٨٩ كانت نقطة التحول. إن القول بأن الشيوعية انتهت من بولندا في ذلك اليوم لهي مبالغة شعرية. ولكن نهاية الشيوعية في بولندا جاءت مباشرة بعد التصويت الحر للشعب البولندي في ذلك اليوم العظيم، يوم ٤ يونيو. وربما ليس في بولندا وحدها.. ..

بودابست: الجنازة الأخيرة

بودابست: الجنازة الأخيرة

في بولندا كانت الانتخابات،

وفي المجر كانت الجنازة. جنازة إيمري ناجي الذي أعدم منذ واحد وثلاثين عاما تماما. منذ عام واحد بالضبط، قام أعضاء المعارضة بمظاهرة لإحياء الذكرى الثلاثين لوفاته، يوم ١٦ يونيو. آنذاك قام البوليس بتفريق المظاهرة بالعنف. اليوم يساعد البوليس - نفسه - المعارضة لتنظيم مراسم إعادة دفن غير عادية لإيمري ناجي، بطل عام ١٩٥٦.

يعرف الجميع أن الدبابات الروسية سحقت تلك الثورة، مما دعم نمط استجابة السوفييت، وعدم استجابات الغرب - لثورات أوروبا الشرقية على مدى الثلاثين عاما الماضية. لكن المجريين يتذكرون على وجه الخصوص، الخداع والمخاتلة اللتين تميز بها إعدام إيمري ناجي: كيف استدرج هو ومعاونوه من ملجأهم بالسفارة اليوغوسلافية ببودابست، بعد أن قدم يانوش كادار تعهدا رسميا بخط يده بضمان سلامتهم، وتقبض عليهم قوات الأمن السوفيتية، ويرحلون إلى رومانيا، ثم يوضعون في سجن انفرادي بالمجر، ثم يقدمون لمحاكمة زائفة زيفا فاقعا، ويحكم عليهم بالإعدام، ثم يشنقون. ويتذكر المجريون أيضا كيف أن جانوس كادار الرجل المسئول مباشرة عن شنق إيمري ناجي أخذ، هو، والدولة والحزب

الذي قاده وصحفه وكتبه المدرسية، يكذب ويكــذب ويكــذب حــول أحداث ١٩٥٦، على مدى ثلاثين عاما. لقد كــانت ذكريــات شــعبية استمدت قوتها من كبتها طوال تلك السنوات.

كان ميكوش فاسارهيلي أحد المتهمين القلائل الذيــن لم يحكــم عليهم بالإعدام في المحاكمة، وعاشوا في بودابست ليروا هذا اليوم، الــذي أعيد فيه اعتبار إيمري ناجي وأنصاره. وميكلوش رجل هادئ مبتســم ذو جسم متهالك، كان يعمل مستشارا لإيمري نــاجي، وكــان المتحــدث الصحفي باسمه أثناء الثورة. في الثمانينات أصبح كأخ اكــبر للمعارضــة الديموقراطية الناشئة، يعرفه جيدا الزوار الغربيون، وأنه كان أيضا يحتفــظ بصلات مع أعضاء كبار في الحزب. أخذ هو وأقرباء من أعدموا ومتمردين ونشطين في المعارضة ومن بقى على قيد الحياة من هؤلاء الذين وفوا مــدد سجنهم بعد المحاكمة، أخذوا يراقبون وينتظرون. صادق أحــد حــراس السجن، وعرف أن بقايا رفات إيمري ناجي وزملائه قد دفنت في مقــبرة مجهولة لا تحمل أية علامات، في قطعة أرض رقم ٣٠١ بركن إحدى المقابر النائية. وطوال فترة وجود جانوس كادار في السلطة، لم تكن هنــاك أيــة فرصة لإحقاق العدل، ولو حتى على سبيل الذكرى، فتبرئة نــاجي، هــي إدانة لكادار. وطبقا لرواية مصدر موثوق به، فإنه عندما حاول اثنان مــن أعوان كادار إقناعه بالانتقال، صاح في وجههما قائلا:

- " أنتما تعرفان ما سيحدث، فخلال أشهر سيعيدون اعتبار لاسلو راجيك، وخلال سنة سيعيدون اعتبار إيمري ناجي"!

فرغم أن العالم قد نسي ذلك التاريخ البعيد، ورغم أن الغرب كان يتغنى بالمدائح في كادار، إلا أنه كان يتذكر كان ماكبث، أما إيمري ناجي فكان بانكو.

في ربيع عام ١٩٨٨، حين أصبح من الواضح أن جانوس كادار في طريقه لأن يخرج من السلطة، أسس أقرباء الذين أعدموا ومن ظل على قيد الحياة بعد السجن، "لجنة العدل التاريخي". وفي الذكرى الثلاثين للإعدام، أقاموا احتفالا صغيرا كريما في قطعة الأرض رقم ٣٠١". لكن المظاهرة التي تجمعت بعد ذلك في وسط بودابست لإحياء نفس الذكرى، قام البوليس بتفريقها. ومع رأى زعماء الحزب الجدد حتمية إعادة الاعتبار لإيمري ناجي ورفاقه كشرط أساسي لإمكانية أن يستعيدوا مصداقيتهم. ذلك أنهم إذا لم يفعلوا ذلك ستظل ظلال ١٩٥٦ تخيم عليهم. لذا أعلنت الحكومة في شهر يناير أنها قررت السماح باستخراج الرفات، وإعادة دفنها في مقبرة لائقة. وبعد يومين أسرع إيمري بوشجوى بخطوات التغيير السياسي، بأن نشر نتائج لجنة متفرغة من اللجنة المركزية، كان قد تم تشكيلها لإعادة تقييم الأربعين عاما الماضية (!) ثم أعلن أن أحداث

١٩٥٦ كانت "هبة شعبية" ضد "حكم أقلية حقير من شأن الأمة". وليس "ثورة مضادة" كما كان يقال.

على أن قيادة الحزب لم تكن هي التي نظمت عملية إعادة الدفن، ولا الحكومة. لكنها كانت لجنة "العدل التاريخي" بالاشتراك مع مجموعات المعارضة الرئيسية. [لكن المسألة تمت أيضا بمشاورات شخصية مع إيموي بوشجوى، وسياسيين إصلاحيين آخرين]. أعلنت اللجنة أن ذلك "يوم للاحتفال بنقل رفات إيمري ناجي وإعادة دفنه وإعادة بعثه السياسي" وناشدت الجماهير أن تراعي الهدوء والرزانة، وأنه لا يجب رفع آية شعارات سياسية، بل يكتفي برفع العلم القومي، أو أعلام سوداء فقط، وألا تستغل المناسبة للقيام بأية اضطرابات من أي نوع.

ومع هذا، ففي الأيام السابقة على إجراء تلك المراسم، ساد توتر بالغ بين كبار المسئولين. كانوا خائفين من الشعب.

١٦ يونيو ١٩٨٩. ميدان الأبطال:

الأعمدة الكلاسيكية – الجديدة الضخمة متشحة بالسواد. وتتدلى من الشرفات أعلام المجر الوطنية. كبيرة الحجم بألوانها الثلاث الحمراء والبيضاء، ولكن كل علم منها به ثقب في وسطه، كتذكرة بما فعله متمردو ١٩٥٦ عندما قطعوا شعار المنجل والمطرقة من أعلامهم. شعلات لهب تشتعل بجانب التوابيت الستة المرصوصة بجوار بعضها على سلم صالة

الفنون: خمسة توابيت لإيمري ناجي وشركاه المقربين أما التابوت السادس فهو رمزي لـ "الثائر المجهول" والمنظر كله من تصميم المهندس لازلو راجيك، وهو أحد المعارضة النشيطة، ونجل ضحية في واحدة من أسوأ المحاكمات الستالينية سمعة. وفي الناحية الأخرى من الميدان، تقع السفارة اليوغوسلافية. نفس السفارة التي لجأ إليها إيمري ناجي وعدد من زملائه بعد دخول القوات السوفيتية: قطعة رمزية أخرى من المنظر.

الموسيقى الجنائزية يعلو صوتها من مكبرات الصوت، والناس تحت الشمس المحرقة في انتظار أن يضعوا الزهور تحية لشهدائهم: المواطنون العاديون أولا، ويضع كل منهم قرنفلة. ثم بعدهم الوفود الرسمية، كل وفد باقة كبيرة: المجالس المحلية، الدبلوماسيون، رجال الكنيسة، وفد من وارسو تعبيراً عن التضامن البولندي – المجري، وعدد من كبار المسئولين من سياسي الحزب – الجناح الإصلاحي، يمثلون الحكومة والبرلمان، ولكنهم بالتأكيد لا يمثلون الحزب.

ثم تأتي الخطب، وتتضمن تسجيلاً قديماً لنداء من نداءات إيمري ناجي الإذاعية عام ١٩٥٦. ويقول ميكلوش فاسار هيليي: "استمعتم في التو إلى كلمات إيمري ناجي". ويعيد إلى الذاكرة اللحظة السحرية قبل التدخل السوفيتي الثاني والأخير (يوم ٤ نوفمبر) عندما سكت الرصاص وتوقف سفح دماء الأخوة وبدأت عملية المصالحة

والتحول الديموقراطي " يناشد الجميع" القبول والرضا بأولئك الذين يفكرون بطرق مختلفة ويتصرفون بطرق مختلفة،أنه ذلك الأسلوب فقط يمكننا أن نضمن التحول السلمي إلى مجتمع أوربي عصري حر وديموقراطي".

ثم يتساءل ساندور لاسز "رئيس مجلس عمال بودابست "عام ١٩٦٥: "هل ستنمو شجرة الحرية في المجر وهي ترتوي من دماء هؤلاء الأبطال؟" ويجيب على هذا التساؤل بقوله: "هناك ثلاث عقبات أمام الحرية: الأولى: وجود القوات السوفيتية على الأرض المجرية، والثانية: الحزب الشيوعي المتمسك بالسلطة، والثالثة: تفكك المجتمع".

ثم يتحدث أحد الباقين على قيد الحياة من الذين حوكموا مع إيمري ناجي، ويدعو الجميع لأن يضموا أياديهم في أيادي بعضهم، ويهتفوا بكلمات الشاعر المجري ساندور بيتوفي (١٨٤٨): "لن نعود عبيدا بعد اليوم. فيتعالى هتاف "لن نعود عبيداً بعد اليوم".

ومع ذلك، تظل الجماهير المحتشدة التي قد يصل عددها إلى مئتي ألف، هادئة حتى يقف آخر المتحدثين، فيكتور أوربان، ذو الشعر الفاحم، ومن "الديموقراطيون الشباب"، ويصيح "أيها المواطنون .. منذ أربعين عاماً ورغم الاحتلال الروسي والدكتاتورية الشيوعية، أتيحت للأمة المجرية الفرصة والقوة والشجاعة لأن تحاول تحقيق أهداف ١٩٤٨."... واستمر

قائلاً " نحن الشباب لا نستطيع أن نفهم الكثير من الأشياء عن الجيل القديم..إننا لا نفهم كيف يمكن أن ننسى زعماء الحزب والحكومة الذين كتبوا لنا ما كتبوه من تزييف لتاريخ الثورة في الكتب المدرسية، يتنافسون الآن ليلمسوا تلك النقوش، كما لو كانت تمائم حظ .. ولا نعتقد أن هناك ما يدعونا للشعور بالامتنان لأنه سُمح لنا أن ندفن موتانا الشهداء.. إننا لا ندين بالشكر لأي أحد لأن منظماتنا السياسية يمكنها أن تنشط وتعمل الآن". صفق الناس كما لو كان ذلك ما ينتظرونه. واستمر يقول: "إذا آمنا بروحنا وقوتنا، فإننا نستطيع أن نضع نهاية للدكتاتورية الشيوعية. وإذا صممنا بما فيه الكفاية، فإننا نستطيع أن نجبر الحزب على قبول إجراء انتخابات حرة. وإذا لم نفقد الرؤية لمثاليات ١٩٥٦، فإننا سنستطيع عندئذ أن ننتخب حكومة تبدأ بمفاوضات فورية من أجل انسحاب سريع للقوات الروسية". فتصفق الجماهير تصفيقاً حاراً متواصلاً. ويعرض كل هذا على الهواء في التليفزيون.

وتذهب بعدها مجموعة صغيرة بالأوتوبيس إلى المقبرة البعيدة، وهناك، وطبقاً لرغبة الأقارب، يعاد دفن رفات الشهداء في نفس المكان الذي رقدوا فيه مجهولين لما يقرب من ثلاثين عاماً. وأذهب إلى هناك برفقة بعض شباب "الديموقراطيون الشباب"، وآدم ميتشنيك الذي جاء لحضور المراسيم ممثلاً التضامن البولندي – المجري ويخرج ميتشنيك يده من نافذة

الأوتوبيس، رافعاً إصبعيه بعلامة النصر "V" ويقلده بعض "الديموقراطيون الشباب" وتبدو علامات الحيرة على معظم المارة، لكن بعضهم يرد ويلوح بيده مبتسماً ابتسامة متوارية.

زرت قطعة الأرض رقم ٣٠١ التي أصبحت أسطورة الآن، بعد المراسم التي تمت العام الماضي مباشرة. ومازال عندي صورة "مقلب الزبالة" الذي كان يوجد في الموقع آنذاك، والذي نظف ومهد الآن لإجراء مراسم الدفن على الأقل. لقد امتد طريق جديد الآن ليصل إلى "القطعة رقم ٣٠١" اصطف على جانبيه حرس شرف. وفي الأرض أقيمت لوحات خشبية خشنة في الحالات التي تم فيها التعرف على هوية المدفونين، لوحات منحوتة بأشكال مجرية تقليدية وليس صلباناً (كما هو المعتاد – المترجم). جو غريب، يرجع جزئياً إلى أن الناس تقف تتبادل الأحاديث السياسية العادية، بينما يستمر إلقاء الخطب، خطبة بعد أخرى. لكن هذا الجو الغريب يعود أيضاً إلى الغياب الكامل تقريباً لأي رموز أو طقوس أو كلمات دينية مسيحية.

ويذكر في أحيان كثيرة أن إيمري ناجي قال أثناء محاكمته: "أنني لأتساءل إذا كان هؤلاء الذين يدينونني الآن، هم أنفسهم الذين سيردون اعتباري فيما بعد". لكن ميكلوش فاسار هيلي يقول أن هذا مجرد خرافة، وأن ما قاله ناجي فعلاً هو "أن الكلمة الأخيرة ستكون كلمة الشعب

المجري، وكلمة التاريخ، وكلمة الحركة العمالية العالمية" .. حسناً. إن الحركة العمالية العالمية لم تعد موجودة الآن، لكن الشعب المجرى والتاريخ تكلما. وطبقاً للروايات التي جمعها فاسار هيليى من زملائه في السجن ومن سجانين سابقين، فإن إيمري ناجي أمضى معظم ليلته الأخيرة يكتب. لكن ما كتبه لم يصل إلى زوجته أبدا. كان كل الذي تسلمته من السجن خاتم زواج ظهر أنه مزيف.

أسم لم يرد ذكره في الخطب، رغم أنه ماثل في ذاكرة الجميع. أنه أسم جانوس كادار. وهو يذكر ليس كزعيم المجر الشيوعي "الليبرالي" الذي كان الغرب يفضله في السبعينات، ولكنه يذكر بصفته الخائن الذي وصل إلى الحكم بعد ناجي على ظهر الدبابات السوفييتية، والذي كان مسئولاً مسئولية مباشرة عن مقتل إيمري ناجي. أين هو اليوم؟ ذلك الملك العجوز المريض؟ هل يشاهد التليفزيون؟ هذه ليست جنازة إيمري ناجي، إنها "بعثه" وجنازة جانوس كادار.

هذا ما كنت أفكر فيه آنذاك. وفي اليوم التالي انتشرت إشاعة تقول أن كادار وزوجته انتحرا في ذات الوقت الذي كانت تجرى فيه مراسم إعادة دفن ناجي. والحقيقة أنه مات بعد ذلك بثلاثة أسابيع في نفس اليوم الذي أعلنت فيه "المحكمة العليا المجرية" إعادة الاعتبار لإيمري ناجي بشكل قانوني كامل. إنها لسخرية من سخريات القدر، لا يجرؤ شكسبير

نفسه على كتابتها في إحدى مسرحياته ودفن جانوس كادار بمدفن الحركة العمالية. بمقبرة "كيربيزي" بالقرب من مقابر الشيوعيين الذين ماتوا في القتال ضد هبة ١٩٥٦.

كانت الجنازة المجرية، مثلها مثل الانتخابات البولندية، إحدى العلامات في تاريخ أوروبا الشرقية في فترة ما بعد الحرب العالمية الثانية، إنها تعلم بوضوح نهاية فترة ما بعد ١٩٥٦ المرتبطة ارتباطاً وثيقاً باسم جانوس كادار. لقد مات كادار عندما ولى زمنه لكن الأقل وضوحاً هو ما تشير الجنازة إلى بدايته.

كانت ردود الأفعال تجاه الجنازة مختلطة. شعر البعض في الأجنحة الأكثر راديكالية في المعارضة،إن "اللجنة من أجل العدل التاريخي" قدمت تنازلات للشيوعيين الإصلاحيين أكثر من اللازم ورغم أن عائلات وأصدقاء ناجي هم الذين نظموا الحدث من الناحية الفعلية، إلا أنها أخذت مظهر جنازة رسمية. لقد سمح لزعماء إصلاحيين بارزين في الحزب (الشيوعي المجري) مثل إيمري بوشجوى وميكلوش نيميتز رئيس الوزراء، وماياتاس سينروروس رئيس البرلمان، بأن يأخذوا دورهم في الوقوف كحرس إلى جانب نعش إيمري ناجى، فبدا كما لو أن السلطات قد تمكنت من الإدعاء بأنها هي التي قامت بهذه الثورة.

كان أولئك الذين لهم الحق الذي لا مراء فيه في إرث إيمري ناجي، أقل شعوراً بالغيظ. قال لي الكاتب أرباد جو مستيز "حاول أن تكون سعيداً معنا". لم يكن أكثر ما هز المشاعر هو المراسم العظيمة أو إعادة الدفن، بل كان حفلة بسيطة بشقة فاسار هيليي، شارك فيها عدد صغير من الأقرباء والأصدقاء والباقين على قيد الحياة، كان بعضهم في أول زيارة له لبودابست لأكثر من ثلاثين عاماً. كانت الحفلة في الظاهر هادئة لتناول المشروبات احتفالا بالذكرى، لكن البريق العميق لم يكن يماثله شئ، إلا ربما الشعور بفوز "تضامن" في بولندا في الانتخابات. لقد عاشوا ليروا هذا اليوم.وإذا كانت أحداث ذلك اليوم قد ساعدت إيمري بوشجوى، سياسياً، للإسراع بالإصلاح داخل الحزب، فهذا مصلحة أيضاً، لأنهم كانوا أقل استعداداً من "الديموقراطيون الشباب" الغاضبين للقول بأنه "حتى إذا كان الحزب (الشيوعي) سيتم إصلاحه بشكل راديكالي فليس له دور يلعبه في تحويل المجر". فبعد كل شئ كان إيمري ناجي شيوعياً.

وعلى النقيض من ذلك، وصفت صديقة مؤرخة احتفال "ميدان الأبطال"، بأنه يشبه "حفلة تنكرية"، وقارنته باحتفال تم منذ ما يقرب من قرن، دفن فيه لاجوس كوست، بطل ١٨٤٨، بمراسم رسمية، على يد عهد يحتقره! كان هناك شيء من الحقيقة في ذلك أيضاً. هكذا كان من العجيب أن نراقب مثلاً البروفيسور إيفان ت. بيرسيذ المؤرخ ورئيس "أكاديمية

العلوم المجرية"، وهو يقدم احتراماته أمام النعوش الستة. إنه رجل ذكي بكل تأكيد حاول الاقتراب من الحقيقة بالقدر الذي يجعله مستمراً في أن يكون في وضع مؤثر داخل المؤسسة الكادارية. لقد ترأس اللجنة الفرعية، التي تشكلت من اللجنة المركزية، والتي بدأت برد الاعتبار رسمياً لإيمري ناجي. كان هناك كثيرون أسوأ منه. لكن ماذا كان سيقول، منذ عدة سنوات فقط، لو أن عضواً بالأكاديمية اقترح أن يقال علناً ما يقوله الجميع الآن؟ كان سيقول: "الوقت مازال ليس ناضجاً". وبطبيعة الحال ليس لأحد من المحظوظين المستريحين في الغرب أن يحكم عليه، فلا أحد يعرف كيف سيتصرف أي منا في مثل تلك الظروف. لكن ليس هذا بالسبب لتجاهل جميع الاختلافات. فالعدل التاريخي، مثله مثل الخيانة، شيء يتعلق بالزمن الذي يقع فيه.

كان أكبر تساؤل هو: ما مدى استجابة البلاد ككل للحدث؟ كان البعض يخشى أو يأمل – حسب وجهة النظر – إن إظهار الشعور الشعبي بشكل هادئ للغاية يشير إلى وجود بقايا عميقة صعبة الحركة، من اللامبالاة والتشكك والشك في كل الأمور السياسية. وقال آخرون أنه لا يمكن أن يبالغ في تأثير الحدث على المدى الطويل، وفوق كل شيء إذاعته في التليفزيون في طول البلاد وعرضها. فلاشك أن ذلك سيكسر حاجز الخوف. ثم بعد ذلك تعود العواطف والذكريات التي كبتها الناس داخلهم

نصف أعمارهم إلى الظهور. أما أكثر التقييمات تفاؤلاً، فأتت من فيكتور أوربان من "الديموقراطيون الشباب". قال أن جنازة إيمري ناجي ستكون بالنسبة للمجر ما كانته زيارة البابا جون بول الثاني لبولندا. فهل يفتح الطريق أمام "تضامن" مجرية ؟.

وحقيقة الأمر أن لا أعظم الآمال تحققت، ولا أكبر المخاوف. فلم تحدث استجابة ضخمة، وظلت المساهمة السياسية منحصرة في الانتليجنسيا. لكن الأمور أيضاً لم تسر ببساطة في طريق الإصلاحيين في الحزب (الشيوعي)؛ وكانت تلك هي النتيجة السياسية المباشرة. ففي الاجتماع الموسّع للجنة المركزية للحزب، الذي انعقد بعد أسبوع من جنازة إيمري ناجي، تمكن الإصلاحيون من الإطاحة بكارولى جروسيه (الذي أشادت به السيدة مرجريت تاتشر رئيسة وزراء بريطانيا منذ عام مضى بالضبط، وقالت أنه "رجل على صورتها" !). واستبدلوه بمجلس رئاسة مكون من أربعة،كان هو فيه مجرد أقلية في مواجهة إيمري بوشجوى، ونيميتز،ونيرو نايرز المصلح الاقتصادي القديم. كان نايرز وليس جروسيه هو الذي مثّل المجر في قمة "حلف وارسو" ببوخارست. وأعلن الاجتماع الموسّع موعداً لمؤتمر غير عادي للحزب، ينعقد في ٧ أكتوبر. ولكن قصة الأشهر القليلة اللاحقة، لم تكن مجرد قصة المعركة داخل الحزب، فإلى جانب الصراعات الخارجية في وسائل الإعلام، وسلسلة الانتخابات

الفرعية التي فاز فيها مرشحو المعارضة، احتلت تلك الشهور قصة المفاوضات البيزنطية الفائقة التعقيد بين الحزب [إلى المدى الذي نستطيع فيه الحديث عن حزب واحد موحد] وبين مجموعات المعارضة شديدة التنوع.

ويمكن أن نقارن تلك المفاوضات مقارنة عامة بمفاوضات "المائدة المستديرة" البولندية. لكن بينما تفاوض الحزب البولندي مع "تضامن" "على مائدة مستديرة"، كان الحزب المجري يتفاوض مع "مائدة مستديرة"، كانت "المائدة المستديرة" للمعارضة مظلة تنظيمية جمعت معاً أهم مجموعات وأحزاب المعارضة. لقد تأسست بعد وقت قصيرة من مظاهرة ذكرى ١٥ مارس والتي أظهرت كيف أن العمل المشترك يمكن أن يكون مؤثرا. وقام بتنسيق العمل بتلك "المائدة المستديرة" مجموعة مستقلة صغيرة مقبولة من الجميع: "منبر المحامين المستقلين". تحاوروا لبعض الوقت مع السلطات عن مجرد شكل "المائدة". فقد كانت السلطات تريد "مائدة مستديرة" على النمط البولندي. أما "المائدة المستديرة" للمعارضة، ولكونها هي نفسها "مستديرة" فلم تكن تريد مائدة عادية على طرفيها: "هم" و"نحن". وتوصلوا إلى حل وسط: مائدة ثلاثية، يجلس على الجانب الثالث ممثلو – ما يسمونها في الغرب – "منظمات شبه لا حكومية" وإن كانوا في المجر

يطلقون عليها "منظمات شبه لا حزبية". وترأس الجلسات مايتاس ستوزوروس، رئيس البرلمان، وجلس بمفرده على الجانب الرابع للمائدة.

وبدأت الاجتماعات يوم ١٣ يونيو، ثلاثة أيام قبل جنازة إيمري ناجي. أفتتح المحامي إيمري كوينا مفاوضات المعارضة بقوله "علينا أن ننجز سلمياً مهام ثلاث ثورات مجرية لم تنجز أهدافها". واستمرت المحادثات لمدة ثلاثة شهور. شهر أطول من المحادثات التي استغرقتها محادثات "المائدة المستديرة" في بولندا. لكن ذلك يعود إلى انقطاع المحادثات خلال شهر أغسطس، جزئياً لأنها كانت قد وصلت إلى طريق مسدود، وأيضاً لأنه شهر الإجازات الصيفية. وكما في بولندا، كانت هذه المحادثات أهم حدث سياسي في المجر.

وأخيراً وقعت اتفاقية يوم ١٨ سبتمبر. ومثل اتفاقية "المائدة المستديرة" في بولندا، فإن هذه الاتفاقية وثيقة معقّدة تتضمن سلسلة من مسودات القوانين والتعديلات الدستورية بخصوص قضايا تمتد من الإجراءات الانتخابية ووضعية الأحزاب السياسية، إلى تغييرات في قانون العقوبات. وخلافاً للاتفاقية البولندية، نصت الاتفاقية المجرية على إجراء انتخابات برلمانية حرة تماماً. على أنه قبل إجراء تلك الانتخابات، كان ينبغي انتخاب رئيس جمهورية بواسطة البرلمان القديم الموصوم والمتمسك بالخط القديم عموماً. وكما حدث في بولندا، حيث تم التفاهم الضمني على

أن يذهب منصب الرئاسة إلى الجنرال ياروزيلسكي، تم هنا أيضاً في المجـــر تفاهم ضمني على أن يشغل المنصب، إيمري بوشجوى. على أن جماعـــات المعارضة الأكثر صراحة في عدائها للشـــيوعيين مثـــل "الديموقراطيـــون الأحرار" (خلفاء المعارضة الديموقراطيـــة الســـابقة) و "الديموقراطيـــون الشباب"، ونقابات العمال المستقلة، خرجوا على الإجماع قبل أن يجـــف حبر الاتفاقية. ورفضت التوقيع عليها أصلاً.

نظم "الديموقراطيون الأحرار" سرعة حملة للضغط وفرض وجهـة نظرهم، وتمكنوا من جمع مائتي ألف توقيع على عريضة تطـــالب بـــإجراء استفتاء شعبي على أربع قضايا، أهمها تأخير انتخابات الرئاسة إلى ما بعـــد الانتخابات البرلمانية العامة. عندئذ قام الحزب (الشيوعي) بحركة التفـــاف جانبيه، مقترحاً ألا ينتخب البرلمان الرئيس، وإنما يتم انتخابـــه بـــالاقتراع المباشر. كانوا يعتقدون أن إيمري بوشجوى يمكن في هذه المرحلة الفـــوز في هذه الانتخابات الرئاسية المباشرة. ورفض "الديموقراطيون الأحرار" هـــذا الاقتراح. وإذا كانت حملة الديموقراطيون الأحرار تبدو لأول وهلة وكأنهـا موجهة أساساً ضد الشيوعيين، فهي في الحقيقة كانت موجهة بنفس القـــدر إلى منافسيهم الرئيسين في المعارضة "المنبر الديموقراطي المجري". وبســـبب هذه الحملة زادت عضوية الحزب، ووطّدوا سمعتهم كـــأعداء للشـــيوعية

وسط الجماهير الأعرض. كانت أحزاب المعارضة أكثر انشغالا بـالصراع فيما بينها، من صراعها بمحاربة الشيوعيين.

وقد يبدو ذلك خبلاً، لأنه على عكس بولندا، كان الشـيوعيون في المجر مازالوا يشكلون الحكومة. لكن موقف أحزاب المعارضة هذا، كان مؤسساً على تقدير صحيح لعلاقات القوى الحقيقية في البـلاد. فبعـد ٧ أكتوبر قد يكون المجريون قد تساءلوا: "أي شيوعيين؟"،لأنه في أول أمسـية لانعقاد مؤتمر "حزب العمال الاشتراكي المجري" (الشيوعي) حلّ الحـزب نفسه وألغى كلمة "العمال" من اسمه، واستأنف أعماله تحت أسم "الحـزب الاشتراكي المجرى". بدا أن هذا انتصار للإصلاحيين، لكن عضوية ذلـك الحزب القديم –الجديد نمت بسرعة بطيئة للغاية، ووصلت إلي أكثر بقليـل من خمسين ألفاً في نهاية العام. وأثناء ذلك، بعث إلى الحياة، حزب شـيوعي جديد– قديم سمى نفسه بتحد، "حزب العمال الاشتراكي المجرى" بقيـادة كارولى جروسية!.

في ١٨ أكتوبر مّرر البرلمان التعديلات الدستورية التي تم الاتفـاق عليها: مع المعارضة في مفاوضات"المائدة المستديرة". وكانت أكثر تلـك التعديلات إثارة هي إلغاء كلمة "الشعبية" من أسم الدولة، وتغيير افتتاحيـة الدستور، بحيث أصبحت تقول: "الجمهوريـة المجريـة دولـة مسـتقلة ديموقراطية تقوم على حكم القانون، تعترف بقيم الديموقراطية البورجوازية

والاشتراكية الديموقراطية معاً على نفس المستوى". (وهكذا تسربت كلمة الاشتراكية هنا).

ظهر يوم ٢٣ أكتوبر، يوم الذكرى الثالثة والثلاثين لاندلاع "ثورة ١٩٥٦"، أعلن ماتياس ستوروس، من شرفة المبنى الفخم للبرلمان على ضفاف الدانوب، رسمياً، "الجمهورية المجرية الجديدة". بدأ الحديث، والجماهير ترد عليه بتصفيق عالٍ : "لقد كان الحافز للدستور الجديد، الدروس التاريخية للهبة التاريخية وحركة الاستقلال الوطني لأكتوبر ١٩٥٦". إلا أنه أرتكب خطأً جسيماً في الحكم على الأمور عندما قال: "وسنضع في الاعتبار التطور المستمر والمتوازن لعلاقتنا مع جارنا الأكبر الاتحاد السوفييتي طالما كان ذلك في مصلحة بلادنا". وربما كان هذا صحيحاً، لكن هذه الكلمات لم تكن مناسبة في ذلك الظرف. صفرت الجماهير، وصاحت صيحات استهجان. وفي المساء التقت ثلاث مسيرات تذكارية أمام البرلمان، للقيام باحتفال حقيقي في حريته واستقلاليته، ألقيت فيه كلمات من رجال قضوا مدد عقوبة سجن طويلة، ومن شباب متسلق على التماثيل!.

ثم عاد الجميع إلى السياسة المعتادة. حصل "الديموقراطيون الأحرار" على حق إجراء الاستفتاء، وفازوا بهامش صغير، فتأجلت الانتخابات الرئاسية لما بعد الانتخابات البرلمانية العامة التي تحدد ميعاد

إجرائها في ٢٥ مارس ١٩٩٠. أمسى المسرح السياسي مشوشاً إلى درجة أنه حين أجرى استطلاع للرأي العام، وضع أسم حـزب وهمـي تمامـاً: "الحزب الديموقراطي المجرى"، أجاب ١٢ % مـن الذيـن شـاركوا في الاستفتاء أنهم سيعطون أصواتهم لهذا الحزب.

هكذا سارت المجر في طريق بترتيب يختلف عن بولندا. فـهي في واقع الأمر حصلت على "التعدديـة الحزبيـة" قبـل حصولهـا علـى الديموقراطية؛ وكانت الحكومة ما زالت مشكلة أساساً من أعضاء الحـزب القديم – الجديد. أما بولندا فتشكلت فيها حكومة غير شـيوعية أساسـاً ولكن سياسات جبهة شعبية وائتلافيات محدودة. وبكل تـأكيد سـتتطور الأمور بسرعة في البلدين، وستحاول كل منهما أن تتقدم على الأخـرى وتجذب اهتمام الغرب أكثر. لكن هناك شيئين مشـتركين في البلديـن. فالسياسات "الإصلاحية – الثورية" عمقت الأزمة الاقتصادية، بسبب أنهـا استغرقت وقتاً طويلاً، لكن هذه الأزمة نفسها كانت عـاملاً رئيسـياً في حدوث التغييرات في المقام الأول. على أن الانفتاح السياسي قد حدث بلا مراء في كلا البلدين. صحيح أنه لم تكن هناك لحظة محددة عـام ١٩٨٩ ذات أثر حاسم في المجر، مثل انتخابات ٤ يونيو في بولندا، لكن جنـازة ١٤ يونيو كانت من حيث الرمز والعواطف ذات أثر مقارب جداً.

في اليوم السابق على الجنازة، قابلت أحد الباقين على قيد الحياة (من الذين حكم عليهم بأحكام ١٩٥٦). أرماد جو ستر، ذلك العجوز الجذاب. قال لي: "أنا سعيد لأني عشت لأرى نهاية هذه الكارثة، لكنني أود أن أموت قبل بداية الكارثة القادمة". فالتشاؤم المجرى لا شفاء منه، مثل التفاؤل البولندي. ومع ذلك فكلاهما غنى بأغنى مصدر طبيعي في أوروبا الشرقية: السخرية.

برلين: نهاية "السور"

برلين :نهاية "السور"

الألمان الشرقيين، يراقبون ما يجرى بهدوء، أو يروحون جيئة وذهاباً في "شريط الموت" على دراجاتهم البخارية.

صباح الأحد ١٢ نوفمبر، سرت عبر "السور" وعبر الأرض الفاصلة، مع جمهرة من أهالي برلين الشرقية. كان برج مراقبة على يسارنا، ومخبأ هتلر على يميننا، أشار لنا "حراس الحدود" بالعبور، وهم مأخونون. في فبراير الماضي فقط، أطلق زملاء لهم الرصاص على رجل كان يحاول الهرب إلى برلين الغربية. أجزاء من "السور" كانت تقف بدون نظام حيث ألقاها "الونش" وللمرة الأولى واجهت الكتابات المتعددة الألوان على "السور"... الشرق. صفق جمهور من البرلينيين الغربيين حين عبرنا، ووزع علينا رجل خرائط مجانية لمعالم المدينة. استدرت عائداً مرة ثانية، مروراً بحرس الحدود ورجال الجمارك الذين نظروا إلىّ نظرة أكثر اندهاشا من الأولى. لاحظت رجلاً طويلاً في بزة عسكرية خضراء غير مألوفة، تبين لى أنه الجنرال هادوك، القائد الأمريكي في برلين.

بحلول الليل، كان عمال من برلين الغربية قد قاموا بتفكيك تلك المنصة الشهيرة، كما لو كانت أحد مناظر فيلم سينمائي لا حاجة به الآن.

لقد أنهت "مصيدة فئران" أوروبا عرضها الذي استمر ثمانية وعشرين عاماً، ليخلي المسرح لعرض آخر.

شاهد الجميع صور الاحتفالات البهيجة في برلين الغربية: الجماهير الحاشدة توقف المرور في "كور فور ستندام" وسمعوا فرقعات أغطية زجاجات الشمبانيا، وشاهدوا غرباء يتعانقون، وفي أعينهم الدموع. شاهدوا أكبر حفلة شارع في تاريخ العالم. نعم، كان الأمر مثل ذلك. ولكن ليس هذا فحسب.

لقد فاض ما يقدر بمليوني شخص من أهالي ألمانيا الشرقية على برلين الغربية، في عطلة نهاية الأسبوع، ولم يفعل معظمهم أكثر من السير في الشوارع في مجموعات عائلية هادئة، يصحبون في أحيان كثيرة أطفالهم الصغار في عرباقم. وقفوا صفوفاً أمام البنوك ليصرف كل منهم مائة مارك غربي "قيمة الترحيب" (حوالي ٧٠ دولار)، والتي كانت حكومة ألمانيا الغربية تمنحها للزوار من ألمانيا الشرقية. ثم ذهبوا ليتسوقوا بحرص شديد. في معظم الحالات قاموا بشراء شئ أو شيئين صغيرين، وفي أحيان أخرى بعض الفاكهة الطازجة، أو جريدة غربية، لعب أطفال. ثم رجعوا بهدوء ثانية - وهم يحتضنون أكياس مشترواقم - عبر الحائط، إلى الشوارع "الرمادية المهجورة لبرلين الشرقية... مواطنهم".

ومن الصعب للغاية وصف نوعية هذه الخبرة، لأن ما فعله كـــل منهم كان شيئاً لا يخرج عن المألوف، بطريقة عادية للغاية. وفي الحقيقة أنهم كما لو كانوا قد استقلوا باصات مـــن شـــرق "العاصمـــة" إلى وســـطها ليتسوقوا. لقد سار أهالي برلين في شوارع برلين، فماذا يمكـــن أن يكـــون طبيعياً أكثر من ذلك؟

ومع ذلك، ماذا يمكن أن يكون أكثر غرابة؟

"ثمانية وعشرون عاماً. وواحد وتسعون يوماً": هكذا قال رجـــل في أواخر العقد الثالث، يتمشى في "فردريك شتراس". "ثمانية وعشـــرون عاماً، وواحد وتسعون يوماً منذ بناء "السور". ففي ذلـــك اليـــوم مـــن أغسطس من العام ١٩٦١، كان والداه يريدان الذهاب إلى حفلة سينمائية متأخرة في برلين الغربية، كان أبنهما البالغ من العمر آنذاك إحدى عشـــر عاماً، متعباً، فلم يستطع الذهاب معهما. وفي ســـاعات الفجـــر المبكـــرة استيقظوا على زمجرة الدبابات، ولم يذهب الصبي إلى برلين الغربيـــة منـــذ ذلك اليوم البعيد، حتى يوم هدم "السور". ويسألني سائق تاكسي بابتسامة ماكرة:"كم يبلغ أجر العبّارة إلى إنجلترا؟" قبلها بيوم واحد، لم يكن مـــن الممكن حتى مجرد التفكير في هذا الأمر

إن الجميع، جميع السائرين بالفعل في شوارع برلين الشرقية، إما أهم كانوا قد رجعوا لتوهم من برلين الغربية، أو في طريقهم إليها. أوقفني زوجان يرتدى كل منهما سترة قطنية، سألاني وهما يلهثان:

- "هل هذا طريق الخروج ؟ أتينا على وجه السرعة من يينرج".

ثم قالا في لهجة سكسونية قحة:

-"قلبانا يدقان مثل الطبل".

ولم يتغير مظهر الجميع وهم عائدون إلى مواطنهم. عدا أكياس المشتريات الغربية التي تروى القصة، لكن الجميع تغيروا من الداخل تغيراً كاملاً. قال بواب فندق:

-"يقف الناس الآن رافعين هاماقم، يقولون ما يفكرون فيه، وحتى العمل أصبح أكثر بهجة، وأعتقد أنه حتى المرضى سيتركون أسرة المرض".

كانت برلين الشرقية، وليس برلين الغربية، هي التي اكتسبت، عطلة نهاية الأسبوع تلك الروح السحرية "لعيد العنصرة"، التي شاهدقا آخر مرة في بولندا خريف ١٩٨٠. رجال ونساء عاديون يجدون صوهم وشجاعتهم. وكما يقول بواب الفندق: "هذا هو الليبنسموت". هذه هي اللحظات التي تشعر فيها أنه في مكان ما، رفرف ملاك جناحيه.

قد يكونون أناساً عاديين، يفعلون أشياءً عاديـــة للغايـــة، لكـــن البرلينيين فهموا على الفور الأبعاد التاريخية للحـــــدث. قـــال أحدهـــم: "بالطبع. ..الشرير الحقيقي كان هتلر". وكانت هناك ورقة ملصقة علـــى بقايا "السور" تقول: "ستالين مات، وأوروبا تحيا". وقال لي الرجل الـــذي أحصى الثمانية وعشرين عاماً وواحد وتسعين يوماً:

– "أكثر ما حرك شجوني ملصقاً مرتجل يقول"اليوم فقط انتـــهت الحرب حقاً".

حملت جريدة "بيلد" الألمانية الغربية، عنوانا كبيرا على صفحتـــها الأولى بألوان العلم الألماني:

"صباح الخير يا ألمانيا"

وتحته خطاب جياش من المحررين إلى ميخائيل جورباتشوف شعر الألمان الشرقيون أيضا بالامتنان لجورباتشوف، لكن الأكثر أهمية: كان شعورهم بأهم كسبوا فتح "السور" لأنفسهم. كان ضغط مظاهراقم السلمية الضخمة وحده هو الذي أجبر زعامة الحزب على اتخاذ تلك الخطوة . ويلاحظ أحد العمال : "كما ترى ... يظهر ما حدث أن لينين كان مخطئا عندما قال " أن الثورة لا تنجح إلا بالعنف " لكن ثورتنا كانت سلمية." وحتى اللجنة المركزية للحزب اعترفت في " برنامج العمل " الذي

كتب على عجل : "أنها حركة جماهيرية ثورته أدت إلى عملية من التقلبات العنيفة"

لماذا حدث ما حدث ؟ ولم حدث بتلك السرعة ؟

لم يتنبأ أحد في ألمانيا الشرقية بما حدث. وعندما سمحت لى سلطات جمهورية ألمانيا الديموقراطية في آخر الأمر في يوليو (١٩٨٩) بالعودة بعد انتظاري عبثاً لسنوات، كان الرسميون يعتقدون بكل تأكيد أن الوضع معقد للغاية، ويهزون رؤوسهم، لكن الكنيسة والعاملين في حركة المعارضة كانوا متشائمين تشاؤماً عميقاً. كان جهاز آمن الدولة (التازي) ما يزال يبدو قوياً للغاية، ولم يكن أغلبية السكان مستعدين للمخاطرة برخائهم المتواضع. وأكثر من ذلك، كانت صفوف المعارضة قد تخلخلت نتيجة الهجرة إلى الغرب: كان كل من يشارك في مظاهرة يؤخذ إلى قسم البوليس ويهدد بالزج في السجن لمدة طويلة، ثم يؤخذ إلى حجرة أخرى في قسم البوليس، ويقدم له ضابط طلب هجرة مكتوب بعناية: السجن أو الغرب. قال لي أحد الأصدقاء "أن هذا الاختيار صعب كالاختيار بين الجنة والنار". ثم أضاف قائلاً بمرارة: "بعد وقت قصير للغاية، لن يبقى أحد في هذا البلد سوى حشد من الأغبياء المتعلقين بكل ما هو قديم، وقليل من المثاليين المجانين".

وقد يكون من الحكمة، بدرجة ما، إرجاع النظر إلى الوراء. على الأقل يمكن للمرء أن يضع قائمة من بعض العوامل التي جعلت كأس السخط الشعبي يفيض. في البداية كان هناك "السور" نفسه، "السور" والنظام الذي يمثله ويحافظ عليه قائماً. "فالسور" لم يكن حول أطراف ألمانيا الشرقية وإنما كان في قلبها، في مركزها الفعلي، فكان بذلك في قلب كل ألماني شرقي. كان من الصعب حتى بالنسبة لمن هم من بلدان أوروبية شرقية أخرى، تقدير الضغط النفسي الكامل الذي يفرضه السور. كتب طبيب من برلين الشرقية كتاباً فيه الأمراض التي نتجت عن وجود "السور" وما استتبعها من عمليات انتحار بطبيعة الحال. أطلق على هذا اسم "مرض السور". ومن أحد النواحي كان اللغز الذي حير الجميع دائماً هو لِمَ لَمْ يتمرد أهالي ألمانيا الشرقية.

وكان العامل الثاني، من ناحية الزمن والأهمية هو جورباتشوف، فلقد كان "تأثير جورباتشوف" أقوى ما يكون في ألمانيا الشرقية، فقد كانت ألمانيا الشرقية متوجهة بقوة ناحية الاتحاد السوفييتي، ومعتمدة عليه في نهاية الأمر أكثر من أي دولة أخرى في أوروبا الشرقية. لذا لم يكن بلا سبب أن تعديلاً في الدستور أعلن عام ١٩٧٤ : "أن جمهورية ألمانيا الديموقراطية في حلف مع الاتحاد السوفييتي، للأبد، وبلا عودة". كان يقال لشباب ألمانيا الشرقية على مدى سنوات طوال: "أن تتعلم من الاتحاد

السوفييتي معناه أن تتعلم كيف تسكت"، وهذا ما فعلوه. فلسنوات عديدة أخذ الألمان الشرقيون يستخدمون اسم ميخائيل جورباتشوف: والنموذج السوفييتي ضد حكامهم. وقدم جورباتشوف "الدفعة" الأخيرة خلال زيارته للمشاركة في الاحتفال بالذكرى الأربعين لإقامة جمهورية ألمانيا الديموقراطية يوم السابع من أكتوبر ١٩٨٩، عندما قال كلاماً محسوباً بعناية: "إن الحياة نفسها تعاقب المتأخرين"، ومن خلال الأخبار التي "سربت" بعناية فائقة بأنه قال للزعيم أريك هونيكر: "أن القوات السوفييتية لن تستخدم للقمع الداخلي (في ألمانيا الشرقية)، وكذا بتشجيعه المباشر (طبقا لمصادر ألمانية غربية مطلعة) لايجور كرينز ولزعيم الحزب في برلين جونتر سكابوفسكي بالتحرك لخلع هونيكر.

لم يكن النموذجان المجرى والبولندي بتلك الأهمية بالنسبة لألمانيا الشرقية. بالتأكيد عرف الألمان الشرقيون ما يحدث في هذين البلدين عن طريق تليفزيون ألمانيا الغربية الذي يشاهدونه كل يوم، وبكل تأكيد عرفوا أن التطورات في هذين البلدين قد أظهرت أن إجراء تغييرات أساسية أمر ممكن. لكن بالنسبة للألمان الشرقيين، ألغى البؤس الاقتصادي في بولندا نموذجها السياسي. أما المجر فربما كان لها تأثير أعظم لتمتعها بوضع اقتصادي أفضل وبتاريخ أقل تعارضا مع سمات ألمانيا وتاريخها، وقد تجرؤ على القول بسمات قومية معارضة. ولذا كانت المكان المفضل للألمان

الشرقيين لقضاء إجازاتهم. ومع ذلك، لم يكن نموذج إصلاحات المجر هو الإضافة الحرجة، إنما كان ذلك هو فتح حدودها مع النمسا.

فحالما بدأ المجريون في شهر مايو (١٩٨٩) إزالة الأسلاك الشائكة لـ "الستار الحديدي"، بدأ الألمان الشرقيون يهربون عبره. وحين ازدادت أعدادهم، وتجمعوا في معسكرات اللاجئين ببودابست، قررت السلطات المجرية في أوائل سبتمبر (١٩٨٩) أن تدعهم يذهبون إلى النمسا بطريقة رسمية، متجاهلة بذلك اتفاقية ثنائية مع جمهورية ألمانيا الديموقراطية وتحول السيل شيئاً فشيئاً إلى فيضان: عبر الحدود أكثر من ١٥٠ ألفاً خلال الأيام الثلاثة الأولى، وعند نهاية شهر أكتوبر كان خمسين ألفاً قد عبروا الحدود. وحاول آخرون الخروج عن طريق سفارتي ألمانيا الغربية في براغ ووارسو. فكان ذلك هو العامل المساعد النهائي للتغيير الداخلي في ألمانيا الشرقية.

كان نشاط المعارضة الذي تحميه الكنيسة آخذ في التزايد أثناء الصيف. وأظهرت الرقابة المستقلة على الانتخابات المحلية في مايو، إنها انتخابات مزورة وفي شهر يونيو أدى التأييد الشديد لسلطات ألمانيا الشرقية للقمع في الصين إلى موجة أخرى من الاحتجاجات. ومن المهم أن نتذكر أنه حتى موعد احتفالات الذكرى الأربعين لتأسيس الدولة في السابع من أكتوبر، وخلالها استخدم البوليس القوة، بل وحتى الوحشية في

الحقيقة لتفريق الاحتجاجات، لتخويف كل من تسول له نفسه التفكير في الانضمام لها. جر شبان من شعورهم عبر الشوارع، وألقي بفتيات وأطفال في السجون، وضرب متفرجون أبرياء.

ولو كان لنا أن نحدد "نقطة تحول"، فربما كانت يوم الاثنين ٩ أكتوبر، اليوم التالي لسفر جورباتشوف عائداً إلى موسكو. فمنذ أواخر الصيف، كانت الصلاة "من أجل السلام" التي تقام بانتظام مساء كل يوم أثنين في كنيسة سانت نيكولاس بمدينة ليبزج ، تتلوها مظاهرات صغيرة في ميدان كارل ماركس الملاصق للكنيسة. وفي بداية الأمر كان معظم المتظاهرين ممن كانوا يريدون الهجرة. لكن في يوم ٢٥ سبتمبر كان عدد المتظاهرين بين خمسة آلاف وثمانية آلاف شخص، وكان الذين يريدون الهجرة بينهم أقلية. وفي يوم الثاني من أكتوبر بينما كانت أزمة النزوح إلى الغرب تتعمق، قامت أكبر مظاهرة تلقائية في تاريخ ألمانيا الشرقية منذ هبة ١٧ يونيو سنة ١٩٥٣. إذ شارك فيها ما بين ١٥ إلى ٢٠ آلفاً. كانوا يرددون نشيد الأممية "الأنترناشونالي"، وطالبوا بشرعية "مبادرة المواطنين" :النيو فورم – أي "المنبر الجديد". أصيب البوليس بالارتباك، وفي بعض الأماكن تم التغلب عليه سلمياً بالكثرة العددية.

على أنه في يوم ٩ أكتوبر، وبعد القمع الوحشي الذي حدث أثناء احتفالات الذكرى الأربعين لتأسيس الدولة، والذي جرى قبلها

بيومين وقف بوليس مكافحة الشغب ووحدات الجيش و"جماعات القتال" من المصانع، على أهبة الاستعداد لإخلاء ميدان كارل ماركس، ميدان تينانمان ألمانيا الشرقية. وجاء في مقال بالجريدة المحلية كتبه قائد إحدى "جماعات القتال" هذه: "نحن مستعدون للدفاع عن الاشتراكية بقوة السلاح لو دعت الحاجة". لكن ما حدث هو أن تجمع حوالي ٧٠ ألف متظاهر ليقوموا باحتجاجهم السلمي، وفي تلك المرة لم تستخدم القوة لتفريقهم [ويجب أن نذكر هنا أن رقم ٧٠ ألفاً هو مثل أي أرقام أخرى، يدل على حشد جماهيري، ينبغي أن يؤخذ كتقدير تقريبي]. ادعت مصادر مقربة من إيجون كرينز رئيس الحزب الجديد، والذي يملك السيطرة السياسية العليا للأمن الداخلي، أنه هو الذي أتخذ القرار الجورباتشوفي الشجاع بعدم استخدام العنف. ولقد أدعى حتى أنه ذهب إلى ليبزج بنفسه ليمنع إراقة الدماء.

لكن الروايات التالية والتي رواها أولئك الذين كانوا مشاركين فعلياً في أحداث ليبزج، تقدم صورة مختلفة تماماً. وطبقاً لتلك الروايات، قام بأحرج الأدوار ثلاثة هم: كيرت مازدر الموسيقار الشهير في ليبزج ، ومعه بيرند لوتز لانج الفنان الاستعراض المعروف جيداً، وبيتر زيمرمان وهو قسيس. لقد تمكنوا من إقناع ثلاث زعماء محليين للحزب بالاشتراك معهم في توقيع نداء درامي وجه في آخر دقيقة لعدم استخدام العنف

وتمت قراءة النداء في الكنائس، وأذيع بمكبرات الصوت، وأوصل القائم بأعمال رئيس الحزب في ليبزج النداء إلى البوليس. وكان هذا النداء هو الذي تسبب في الفارق بين الانتصار والكارثة. ويبدو أنه في وقت تال في المساء، أتصل إيجون كرينز ليسأل عما يجرى. كانت تلك اللحظة على أية حال مصيرية بالنسبة لتقدم إيجون كرينز للاستيلاء على السلطة، فبعد تسعة أيام حل فيها محل أريك هونيكر كزعيم للحزب، كانت الثورة قد بدأت فيها بالفعل.

ولو قلنا أن نمو الاحتجاج الشعبي كان شديد التسارع، لكننا نصفه بأقل مما حدث. لقد كان في الحقيقة انفجاراً غير عنيف. لقد نمت تلك المظاهرات السلمية، غير العادية والمُصممة في أمسيات كل يوم أثنين بلبيزج، والتي كانت تبدأ دوماً بصلوات من أجل السلام. نمت أسبوعاً بعد أسبوع، من ٧٠ ألفاً إلى ١٤٠ ألفاً إلى ٣٠٠ ألفاً إلى ربما نصف المليون. دخلت ألمانيا الشرقية كلها فجأة في مخاض، دينا قديمة حبلى بعالم جديد، إن تذكرنا الصورة التي رسمها كارل ماركس. ومنذ ذلك الوقت فصاعداً، كانت تصرفات الشعب أفعال، وتصرفات الحزب ردود أفعال ... "الحرية" كانت مطلب المتظاهرين في ليبزج، فيعلن إيجون كرينز إصدار قانون جديد للسفر. "حرية السفر" كانت صيحة الحشود، فأعاد كرينز فتح الحدود مع المجر. قالت إحدى اللافتات في المظاهرات "اقتراح

اليوم:" أول مايو: فلتمر القيام أمام الشعب وهي مقتطف للكاتبة كريستا وولف أثناء المظاهرة السلمية الضخمة في برلين الشرقية يوم ٤ نوفمبر، فتخلى مزيد من الزعماء عن مناصبهم. طالب الشعب بـ "انتخابات حرة" فاستقال مجلس الوزراء بأجمعه. غنت الجماهير "نحن الشعب" ففتحت قيادة الحزب "السور". كان كأس المرارة قد امتلاء حتى الثمالة. وأضافت كل من سنوات "مرض السور"، والأكاذيب، والركود، والنموذجين السوفييتي والمجرى، جرعاتها. وفي اللحظة التي رفع فيها غطاء القمع، فاضت الكأس. عندئذ، أكتشف الألمان الشرقيون بسرعة مدهشة، ما أكتشفه البولنديون قبل ذلك بعشر سنوات، أثناء زيارة "البابا" لعام ١٩٧٩. اكتشفوا تضامنهم. أعلنت لافتة في الكسندر بلاتز:

"تحيا ثورة أكتوبر ١٩٨٩"

وهذا ما كان. أول ثورة سلمية في تاريخ ألمانيا. ومع هذا، فإن فتح "سور برلين" يوم التاسع من نوفمبر، ومن بعده فتح الحدود بين الألمانيتين، غيّرا من شروط الثورة بكاملها. فقبل ٩ نوفمبر كانت المسألة هي كيف يجب أن تحكم هذه الدولة: جمهورية ألمانيا الديموقراطية. كان الشعب يعيد المطالبة بما يسمى بـ "دولة الشعب"، وكان يؤكد على الديموقراطية في اسم دولته. أما بعد ٩ نوفمبر فقد أصبحت المسألة هي ما إذا كانت تلك الدولة ستستمر في الوجود إطلاقاً.

كنت شاهداً على تلك اللحظة في قلب الثورة في ليبزج في أمسية يوم أثنين قارصة البرودة، بعد أثنى عشر يوماً من فتح "السور". فعندما كنت أقود سيارتي على الأوتوبان – الذي أنشئ في الثلاثينات – قادماً من برلين، استمعت إلى حوار في راديو السيارة، مع زعيم محلي للحزب الاشتراكي الديموقراطي SDP الذي تشّكل حديثاً. سئل: "ما هي مبادئك الأساسية؟" كان رده يدور بطريقة مبهمة حول الطبقات الاجتماعية الدنيا وقدرتها على تحرير نفسها، وفي نفس الوقت عدم قمع الطبقات الأخرى كما فعل الشيوعيون. وسأله المذيع الذي كان يدير الحديث : " هل تريد دكتاتورية؟" فأجاب بسرعة: " كلا ... لا نريد دكتاتورية". شيء يطمئن. كان هناك إذن شيء في الجو.

وجدت طريقي إلى كنيسة سانت نيكولاس خلال ضباب جليدي، كانت الكنيسة ممتلئة عن آخرها. وكان الحديث الديني عن "قابيل و هابيل". قال الواعظ أن الذين على شاكلة قابيل يجب ألا تعطي لهم الفرصة للاستمرار في السلطة، وإن كان يجب أن تقدم لهم فرصة الاستمرار في الحياة وأن يغيروا من أنفسهم. كان موضوع الوعظه بأكمله يدور حول الحاجة إلى التفهم والتقبل والصلح. على أن هذه الروح لم تكن هي السائدة بين الحشد الضخم في الخارج، في ميدان كارل ماركس وحوله. رفع الحشد لافتات ظهر فيها أريك هونيكر يقف خلف قضبان

وهو يرتدى ملابس السجن. وندد متحدث بعد آخر بأربعين عاماً من الأكاذيب والفساد والمحاباة والامتيازات والتبديد.

كانت إحدى مصادر الاهتمام الشديد، ما أدعى من سوء استخدام الحكام لتحويلات العملة الصعبة من ألمانيا الغربية. أخذ الناس يغنون: "أين ذهبت كل العملة الصعبة؟" على أنغام الأغنية الشهيرة: "أين ذهبت كل الزهور؟". فأجاب أحد المتحدثين وسط تصفيق منتش، بحكايات عجيبة عن زعماء الحزب الذين اشتروا جزيرة بأكملها في البحر الكاريبي، وعن مارجوت هونيكر وزير التعليم السابقة وزوجة إيريك هونيكر التي تعودت على الذهاب إلى باريس مرة كل شهر لتصفيف شعرها. وطالب متحدثون آخرون بحل منظمة الشباب المسماة "الشباب الألماني الحر" وبإلغاء الهيئات الحزبية من أماكن العمل كما حدث في المجر. وافق الجميع على مطلبين أساسيين ملحين" إجراء انتخابات حرة، وإنهاء الإدعاء بالدور القيادي للحزب.

لكن ذلك كان نصف القصة فقط. أما نصفها الثاني فرواه بطريقة غاية في الفصاحة شخص قدم نفسه كحرفي بسيط. قال: "لم تقدم الاشتراكية ما وعدتنا به". ثم قال: "ولن تعطينا إياه الاشتراكية الجديدة أيضاً". وقوبل حديثه بتصفيق جاد، فاستمر يقول: "لسنا فئران تجارب". لقد انتظروا وتعبوا بما فيه الكفاية. لقد عرفوا جميعاً أن اقتصاد السوق الحر

قابل للنجاح. "إن إخواننا في الجمهورية الفيدرالية ليسوا أجانب، لذلـــك ينبغي إجراء استفتاء لإعادة التوحيد". وعند هذه النقطة بدأت مجموعــــة صغيرة تغنى شعاراً كان مكتوباً بالفعل على لافتات مرفوعة: "ألمانيا الموحدة بلد آبائنا"، وهى كلمات من النشيد القومي لألمانيا الشـــرقية، وبســـببها أمرت قيادة إيريك هونيكر بألا يغنى النشيد قط، بل تعزف موسيقاه فقـط. وبسرعة بدأت الجماهير الحاشدة تزأر "دويتشلاند إنبنج فازرلاند"، وكــان على أن أقرص نفسي حتى أتأكد أنني لا أحلم وأنني أقف بالفعل في ميــدان كارل ماركس بمدينة ليبزج في قلب ألمانيا الشرقية، ومائة ألف يصيحــون: "ألمانيا الموحدة بلد آبائنا".

ويجب القول أن كل اتجاه كان ممثلاً في ذلك الحشد، مـــا عـــدا الشيوعية. لقد رفعت رايات خضراء خلف المطالبين بإعادة التوحيد، وراية مكتوب "المزارعون الأحرار" إلى جانب راية الجماعة الأوروبيـــة الزرقـــاء والذهبية. ومع ذلك كان المرء يشعر أن الأصوات التي تنادى بالتوحيد هي الأصوات التي سيكون لها الغلبة، ليس بسبب قوة القومية، ولكن بســـبب قوة المنطق. فالبدائل التي تقدمها جماعات المعارضة الوليدة، سواء أكـــانت "المنبر الجديـــد"، أو "الحـــزب الاشـــتراكي الديموقراطـــي" أو "اليقظـــة الديموقراطية" أو"الديموقراطية الآن"، كانت كلها مبهمة ومشـــتتة وغـــير مؤكدة. أما البديل الذي تقدمه ألمانيا الغربية فقد كان معقـــولاً بطريقـــة

واضحة وفورية وطاغية. طالبت إحدى اللافتات المرفوعة أمام الحشـــود: "مرسيدس .. أشترى مصنع ساكسنريبج". كانت الحدود مفتوحـــة، ورأى الناس ألمانيا الغربية، ولقد فعل ذلك فعله.

في جولتي التالية على الطريق الدائري حول المدينـــة، لاحظـــت رجلاً مسناً، يحمل لافتة كرتونية على عصا صنعها بنفسه، كـــانت تحمـــل شعار ثورة أكتوبر ١٩٨٩ في ألمانيا الشرقية: "نحن الشعب"، لكنه محّـــور. بحيث يعنى "نحن أمة واحدة" وكانت الجماهير تردد ذلك التغيير. كـــانت إمكانية أن تقاوم الأغلبية في ألمانيا الشرقية طويلاً إغراء التوجه إلى ألمانيـــا الغربية تبدو في نفس ترجيح أن يعيش المارك الألماني الشرقي طويلاً بعـــد تنافس حر مع المارك الألماني الغربي. والحقيقة أن المسألتين متصلتان اتصـــالا قوياً: مسألة العمل والمسألة القومية. لآن معظم ما يحتاجه الناس العـــاديون يعتمد في نهاية الأمر على عملة صعبة قابلة للتحويل، فالمائة دويتش مـــارك "منحة الترحيب" صرفت بسرعة. كانت هناك لافتة أخرى مرفوعة وأنا في جولتي في الطريق الدائري: "العملة القابلة للتحويل ... وحدة الألمـــانيتين. لفم تعد "الدال" الكبيرة في كلمةDDR (أي جمهورية ألمانيا الديموقراطية) تشير إلى كلمة "ديموقراطية" كما المفروض دائما إلى كلمة "دويتشـــلاند" أي ألمانيا، و"دويتش مارك" أي المارك الألماني الغربي. سألت الرجل الـــذي يحمل تلك اللافتة عن الحزب الذي سيصوت لـــه في انتخابـــات حـــرة،

فأجاب: "بالتأكيد ليس لحزبي" !!! كان الرجل عضواً في "الحزب الاشتراكي المتحد" (الشيوعي).

تحول الأحداث هذا، بل قل تحول التطلعات الشعبية، جعل الكنيسة والنشطين في حركة المعارضة، في حالة ارتباك. ذلك أن نقطة البداية عندهم كانت دائماً أنهم لا يرغبون في إعادة التوحيد، بل يرغبون في العمل من أجل "جمهورية ألمانيا ديموقراطية" أفضل، ومن أجل ديموقراطية حقيقية. لم يكونوا يعتبرون إن جمهورية ألمانيا الفيدرالية هي أفضل صورة لألمانيا، وكانوا يعتقدون أن هناك بعض الإنجازات والقيم في جمهورية ألمانيا الديموقراطية تستحق البقاء: عدم مساواة واستغلال أقل مما في ألمانيا الغربية، تضامن إنساني أكثر، واهتمام أكثر بالآخرين. كانت تلك عنصراً من شيء كانوا مازالوا يرغبون في تسميته "الاشتراكية". كانت المعارضة في جمهورية ألمانيا الديموقراطية خليطاً عجيباً من التحريفية الماركسية، والديموقراطية الاجتماعية، واهتمامات الخضر وأنصار السلام، وبروتستنتينية من الجناح اليساري، فلقد كانت الكنائس البروتستنتينية في جمهورية ألمانيا الديموقراطية تصف نفسها منذ أواخر الستينات بأنها "كنيسة في إطار اشتراكي". وكما يعبر القس البروتستانتي إيدلبرت ريختر عندما تحدث نيابة عن مجموعة "اليقظة الديموقراطية": "إنها ليست فقط كلمة الاشتراكية، ولكن مبادئ اجتماعية معينة للاشتراكية هي التي ما زالت

تبدو لنا حسنة" ... تبدو لهم حسنة، ولكن ليس للشعب؟.

ويصعب في الحقيقة شرح تمنع هؤلاء المثاليين في أن يروا ألمانيا الشرقية تختفي ببساطة في جمهورية ألمانيا فيدرالية أكبر، لم يكن هذا الأمر ـ الذي اعتقدوا أنهم يبيعون مبادئهم لو نادوا به قابلاً للشرح تماماً سواء من الناحية المنطقية أو من الناحية الأيديولوجية. ولاشك أن العاطفة والتاريخ الشخصي كان لهما اليد الطولي. فكل واحد من هؤلاء الرجال والسيدات واجه عند نقطة ما قرار أن يذهب إلى الغرب كما فعل كثيرون من زملائه وأصدقائه لينفذ "إعادة الوحدة" الخاصة به. أما هم فقد قرروا البقاء للعمل داخل بلدهم من أجل جمهورية ألمانيا ديموقراطية أفضل وألمانيا أفضل. أحد أصدقائي المقربين وهو راعي كنيسة، عاد بالفعل إلى الشرق بعد بناء "السور"، وقال: "سيحتاجني الناس هناك". ولقد احتاجوه بكل تأكيد.

هل سيعرفون الآن، مرة واحدة، أن كل ما فعلوه كان هباءً؟ يقول باريك بوهلي، الفنان وأحد زعماء "المنبر الجديد" البارزين: " لا أريد أن أقول أن تلك الأربعين عاماً قد ضاعت، ببساطة لأنه في تلك الحالة ربما كان من الأفضل أن أكون قد هاجرت منذ عشرين عاماً". لقد بدأوا ينظرون، الآن في يناير ١٩٩٠، إلى الشهر الذي انقضي من ٩ أكتوبر إلى ٩ نوفمبر. بصفته لحظة لا يمكن أن تعود، لحظة قصيرة ازدهرت فيها الشجاعة المدنية، النضج السلمي والتنظيم الاجتماعي الذاتي الذي أصابها

بالسوء ليس الريح الباردة من الشرق ولكن ريحاً دافئة معطرة من الغرب. حيث أنه كانت فرصة ألمانيا الشرقية ومأساتها في نفس الوقت: فخلافاً لبولندا والمجر، لم تكن حدود تقرير المصير الاجتماعي وتقرير المصير القومي نفس الشيء.

لذا، ففي نهاية ١٩٨٩، كانت السياسات الشديدة الارتباك والمتفجّرة لألمانيا الشرقية، مختلفة تمام الاختلاف عن سياسات جيرانها من دول أوروبا الشرقية. لكن كانت هنا أيضا بكل تأكيد "مائدة مستديرة"، بل كانت هناك في حقيقة الأمر موائد مستديرة لا تحصى: قومية وإقليمية ومحلية. وفي تلك الموائد المستديرة حاول أولئك الذين ما يزالوا يريدون صنع ألمانيا ديموقراطية أفضل، أن يجدوا أرضية مشتركة مع أولئك الذين كانوا ما زالوا يمسكون بالبقايا المهلهلة للسلطة، وأن يشرحوا لهم لماذا يجب عليهم أن يتخلوا حتى عن تلك البقايا. وفي ألمانيا الشرقية، كما في بولندا والمجر، أمست "المائدة المستديرة" أعلى سلطة في البلاد. فهنا أيضاً حددوا على الفور تاريخ إجراء انتخابات حرة. وقام شبه البرلمان – الذي كان مازال قائماً – بالتصويت على إزالة كل إشارة في الدستور إلى الدور القيادي للحزب. وهنا أيضاً تبخرت سلطة ذلك الحزب وعضويته، بسرعة تخطف الأنفاس، آخذة معها أقوى جهاز أمن في أوروبا: "التازى" المخيف. (لن ينسى أبداً منظر رئيس ذلك الجهاز الجنرال إيريك ميلكي وهو يتراجع

أمام الميكروفون في "مجلس نواب الشعب" وهو يدمدم: "ولكني أحبكم جميعاً !"). وهنا أكثر من أي مكان آخر، ساعد القـادة الشـيوعيون البـاقون بأخطائهم، على الإسراع بسقوطهم الشخصي: وبالذات عن طريق محاولـة غير حكيمة بطريقة غير عادية لإعادة تكوين جهاز أمن الدولة بدعوى أنـه سيحمي الشعب من مجموعات اليمين المتطرف: "النيـو نـازي" – أي: النازيون الجدد. ولكن ... هنا على الأكثر تقف حدود الشبه.

فالحقيقة الطاغية للحياة السياسية في ألمانيا الشرقية عنـد بدايـة ١٩٩٠ كانت المد الجارف في اتجاه إعادة توحيد، أو قل توحيد جديد، مع ألمانيا الغربية. واتخذت تلك المسألة أشكالاً عديدة، كانت هنـاك مطالبـة بذلك في الشارع وفي كل الاجتماعات السياسية. وكان على كل مجموعـة من مجموعات المعارضة أن توائم نفسها مع ذلك المطلب، وإلا واجـهت السحق في مراكز التصويت. [من ضمن عـوارض ذلـك أن الحـزب الاشتراكي الديموقراطي أعاد تسمية نفسه على اسم سلفه ونظيره العظيـم في ألمانيا الغربيةSPD ، وهنا أيضا تحولت الدال D الكبيرة في ديموقراطـي إلى دويتشلاند]. كان هناك العدد المتزايد من الذيـن صوتـوا للوحـدة بأقدامهم، بهجرتهم إلى ألمانيا الغربية: حوالي مائتي شخص يوميـا في ينـاير ١٩٩٠، وهو نفس العدد الذي كان السـبب وراء إقامـة السـور في أغسطس ١٩٦١. ثم كان هناك أمثلة عديدة على التعاون العملي والجـهد

المشترك عبر الحدود بين الألمانيتين عبر الحائط: اتصالات جوية جديدة. وخطوط أتوبيسات ومشاريع مشتركة.

ظهر ذلك بطريقة أكثر وضوحاً في برلين، حيث كان أحد خطوط مترو أنفاق برلين الغربية، يجرى في محطات مغلقة لا تسكنها إلا الأشباح، ممنوع استخدامها، في برلين الشرقية فتحت هذه المحطات أبوابها وفتحت القطارات وقفز أهالي برلين الشرقية داخلها، وبين يوم وليلة تغيرت العقلية الجغرافية في برلين، فما كان من الأطراف، أصبح المركز، وهكذا أمست برلين مدينة واحدة مرة أخرى. لكن كان هذا هو نفس الوضع أيضاً على طول الحدود بين الألمانيتين. كان التوحيد يحدث من أسفل. ولقد حدث ما حدث لأن أناساً كثيرين على كلا الجانبين كانوا يريدونه أن يحدث. أما عن عدد أولئك الناس وبأي شروط، فإن انتخابات ١٩٩٠ في الشرق والغرب وحدها، هي التي ستظهر هذه المسألة.

ولو كانت هناك أشياء غير مضمونة في التحولات البعد - ثورية في بولندا والمجر، فإنها لم تكن لتقارن مع تلك التي تحدث في ألمانيا الشرقية، بل في ألمانيا ككل. وحكومة ألمانيا الغربية التي كانت تحث النظام الألماني - الشرقي على مدى عقود، بأن تدع الناس يسافرون كما يريدون، مسرورة الآن. ولكنها روعت لأن النظام ترك الناس يفعلون ذلك بالضبط. لأن الألمان الشرقيين كانوا يذهبون إلى ألمانيا الغربية بمعدل

أخذ يهدد سوق الإسكان والرعاية الاجتماعية، مما يهدد فوق كل شـــيء برد فعل سياسي حاد. وإذا لم تكن حكومة بون مستعدة لإقامـــة "ســـور" آخر، فإن الطريق الوحيد لمنع أعداد أكثر من الألمـــان الشـــرقيين مـــن الذهاب إلى ألمانيا الغربية، هو أن تقوم تلك الحكومة بعرض منظور لوحـــدة اقتصادية سريعة على الأقل. أي دال D كبيرة لـــــ "دويتـــش مـــارك" ولكن... كيف يمكن تنفيذ ذلك ؟ وإذا كان الاتحاد الاقتصادي والنقـــدي قد أدى إلى اتحاد سياسي في ألمانيا منتصف القرن التاسع عشر، ويقصد منه أن يؤدى إلى نفس الشيء في أوروبا الغربية في أواخر القرن العشرين، فلـــم بحق السماء لا ينبغي أن يتم ذلك لألمانيا أواخر القرن العشرين ؟ ولكـــن في هذه الحالة، ماذا عن القوات السوفييتية في ألمانيا الشرقية ؟.

إن محاولة مناقشة هذه المسائل هنا، هي محاولة غير حكيمة، لأنـــه عندما تقرأ هذا الكتاب ستكون الإجابات أوضح. ومع هذا، وأنا أكتـــب هذا الكتاب في يناير ١٩٩٠، تحولت نشوة أكتوبر نوفمبر بالفعل إلى غيظ وقلق في ألمانيا وبين جيرانها وشركائها في الشرق والغرب. لذا يبدو مـــن الأهمية بمكان تلك اللحظة الأصلية للأمل والبهجة التي استطاع فيا أولئـــك الذين أسكتوا لسنوات أن يقولوا ما يفكرون فيه على الأقل، عندما أصبـــح الناس أحراراً حقاً في أن يسافروا، بعد أن ظلوا لسنوات مغلق عليهم. لقد كانت لحظة تحرر وتحرير خلقها شعب ألمانيا الشرقية لشعب ألمانيا الشرقية.

لقد انتظروا نفس المدة التي انتظرتها شعوب أخــــرى في شــرق أوروبــا ووسطها لتشهد تلك اللحظة، فكان لهم نفس الحق فيها مثل أي شـــــعب آخر.

براغ داخل "المصباح السحري"

براغ داخل "المصباح السحري"

بدأت مساهمتي في "الثورة المخملية" بملاحظة عـــابرة. فعندمـــا وصلت إلى براغ في اليوم السابع، في ٢٣ نوفمبر ١٩٨٩، كان قد أصبـح لخطوات التغيير سرعة تخطف الأنفاس بالفعل. قابلت فاسلاف هـــافيل في الحجرة الخلفية للمشرب الذي يفضله وقلت له:

– "لقد أستغرق الأمر في بولندا عشر سنوات، وفي المجر عشــــرة أشهر، وفي ألمانيا الشرقية عشــــرة أســـابيع، ربمـــا اســـتغرق في تشيكوسلوفاكيا إذن عشرة أيام."

أمسك هافيل بيدي وابتسم ابتسامته الجذابة واســـتدعى علـــى الفور، فريق تصوير فيديو من جريدة السافيردات "فيديوجورنال"، كـــان موجودا بالصدفة. وطلب مني بأدب أن أعيد الملاحظة التي تندرت بــــها أمام عدسة الكاميرا، وأنا جالس وأمامي كوب من الجعّة. وبعدها علـــق هافيل على ملاحظتي بقوله:

– "سيكون الأمر هائلاً، لو جرت الأمور على هــــذه الشـــاكلة. فالثورة عملية منهكة".

خرج فريق المصورين بسرعة، ليطبع الشريط حتى يمكن عرضـــه

في الأماكن العامة على شاشات التليفزيون. وذكر فاسلاف هافيل تلك الملاحظة في مناسبات ومقابلات عديدة، وترددت في صحف ومجلات تشيكوسلوفاكية، وتذكرها متحدث باسم المعارضة في برنامج تليفزيوني قبل الإضراب العام مباشرة، في اليوم الحادي عشر. وظهرت على الصفحة الأولى لجريدة "جازيتا فيبوروزا" صحيفة المعارضة اليومية البولندية، ثم ظهرت بعدها في الصحف الغربية. وعندما غادرت براغ في اليوم التاسع عشر، لم تكن الثورة قد انتهت بأي حال، كان الناس مازالوا يقولون: "كما ترى ... ستكون بالنسبة لنا عشرة أيام ... وهذا هو سحر الأرقام".

وأنا أروى هذه القصة ليس لغرور ينتابني كمؤلف، ولكن لأنها تصور سمات عديدة لأكثر ثورات أوروبا الوسطى إبهاجاً للنفس هذا العام: السرعة، والارتجال، والمرح، والدور المركزي لفاسلاف هافيل، الذي كان يقوم في نفس الوقت بدور المدير والمؤلف والمخرج والممثل الأول، بل لقد كان هذا أعظم أدواره وأعماله. ولقد كنت واحداً من كثيرين من الملايين في الحقيقة – الذين كانوا يلقنونه.

في صباح اليوم التالي، تلقيت تذكرة مسرح مجانية، مسرح "الفانوس السحري". الذي تحولت خشبته الموجودة تحت سطح الأرض، وقاعته، وكواليسه، وحجرات الملابس، جميعاً، إلى مقر قيادة "المنبر المدني"، التحالف المعارض الرئيسي في أراضي التشيك. وهكذا كان المسرح هو

مقر قيادة الثورة. ولقد تغير شكل التذكرة. كانت من قبل رقعة صغيرة مكتوب عليها "مسموح له بالدخول والخروج" بالحبر الأحمر، وعليها توقيع إيفان، شقيق فاسلاف هافيل، ومعتمدة بختم المؤلف المسرحي نفسه. وتظهر وجه قط مبتسم وعلى صدره كلمة "ابتسم". ثم أصبحت التذكرة الآن "كارتا" أخضر كتب عليه أسمى "تيموثى جارتون آشي"، ونفس القط المبتسم مرة أخرى. ثم تغيرت إلى رقعة مصورة بـ "الفوتوكوبى" موقعة، ومكتوب عليها "المنبر المدني" وهذه المرة صورة قطين مبتسمين: أحدهما قط أحمر والثاني قط أسود، وإلى جانبهما صورة ضفدعة خضراء على وجهها ابتسامة عريضة وقد كتب تحتها: "حسن جداً" باللغة الفرنسية.

على أية حال كان للتذاكر فعل السحر. فعلى مدى أسبوع كان لى - كمؤرخ - شرف مشاهدة التاريخ وهو يصنع داخل مسرح "الفانوس السحري". وخلال معظم ذلك الوقت كنت الأجنبي الوحيد الذي حضر المناقشات الحامية المضطرمة لما كان الناس يطلقون عليه ببساطة "المنبر". ولكن قبل أن أصف ما رأيته، يجب أن نقوم ببروفة قصيرة للفصل الأول.

بدأها الطلاب. كانت مجموعات صغيرة منهم نشطة منذ عام على الأقل، يصدرون مجلات جامعية، وينظمون منتديات حوار. كانوا يعملون في الهامش الفاصل بين الحياة الرسمية وغير الرسمية. كان لكثير

منهم صلات بالمعارضة، وكان جميعهم يقرأ "السافيردات". يقول البعض أنهم شكّلوا مجموعة تآمريه يطلق عليها: "الشريط ...الوردة البيضاء" التشيكية، لكنهم عملوا أيضا من خلال "منظمة الشباب" الرسميةSSM ، ومن خلالها حصلوا على إذن القيام بمظاهرة في براغ يوم ١٧ نوفمبر لإحياء الذكرى الخمسين لاستشهاد جان أو بلتال، وهو طالب تشيكي أغتاله النازي... وبدأت المظاهرة بالحي الثاني ببراغ، وسارت كما هو مقرر رسمياً، فألقيت خطب وكلمات تحية عند المقبرة.

لكن الأعداد تضخمت، وتحولت الهتافات باضطراد ضد الدكتاتوريين في القلعة. وقرر المتظاهرون أن يسيروا إلى "ميدان وينسيسلاس"، وربما خطط بعضهم لذلك أصلاً. لم يكن السير إلى الميدان في الخطة الرسمية، ذلك أنه مسرح كل اللحظات التاريخية في تشيكوسلوفاكيا، في عام ١٩١٨ وعام ١٩٤٨ وعام ١٩٦٨. وانحدر المتظاهرون أسفل التل على جانب جسر نهر فلتافا، ثم تحولوا يميناً عن "المسرح القومي"، وصعدوا في نارودنى أفينيو"، وصولاً إلى الميدان. و هناك واجههم بوليس مكافحة الشغب، الذي يرتدى أفراده الخوذات والدروع والهراوات البيضاء، وواجهتهم أيضا "الفرقة الخاصة" لمكافحة الإرهاب،يرتدي أفرادها "بيرهات حمراء". قامت هذه القوات بفصل مجموعات كبيرة من المتظاهرين ومحاصرتها في شارع "نارودنى أفينيو" وفي الميدان. واستمر المتظاهرون يهتفون "الحرية" وينشدون أغنية "سنكون

الغالبين"، وحاول أولئك الذين في الصفوف الأمامية تقديم زهور للبوليس، ووضعوا شموعاً موقدة على الأرض، ورفعوا أيديهم في الهواء وهم يـهتفون "نحن عزل". لكن رجال البوليس، وبالذات ذوى "البيريـهات الحمـراء" ضربوا الرجال والنساء والأطفال بهراواتهم.

كانت تلك هي الشرارة التي أشعلت النار في تشيكوسـلوفاكيا. في ليلة الجمعة / السبت انتشرت تقارير عن قتيل وعدد كبير من الجرحـى في المستشفيات، فصمّم بعض الطلبة على القيام بإضراب. وصباح السبت، تمكنوا من إعلام طلبة كليات جامعة تشارلس ومعـاهد التعليـم العليـا الأخرى بنية الإضراب، فانضموا إلى "إضراب الاحتلال"- أي احتـلال الميدان [ويحتاج الأمر إلى بحث وراف لإعادة بناء التفاصيل الدقيقـة لهـذه اللحظة الحرجة]. وبعد ظهر يوم السبت نفسه أنضم إليهم ممثلون كان قـد تسيّسوا بالفعل بتقديمهم عرائض دفاعاً عن فاسلاف هـافيل، واجتذبهـم الطلبة النشطين من أكاديميات المسرح والسينما. تجمع هؤلاء في "المسـرح الواقعي"، حيث وصف الطلبة كيف جرت "المذبحـة" كمـا أصبحـت تسمى. واستجاب المسرحيون بإعلان تأييدي، أدى إلى إضراب المسـارح، فتحولت قاعاتها إلى غرف نقاش. ليس هذا فحسب، وإنما أدى الإعـلان أيضا – في حدود علمي – إلى اقتراح برز لأول مـرة: فكـرة القيـام بإضراب عام يوم الاثنين ٢٧ نوفمبر بين الظهر والساعة الثانية بعد الظهر، أي لمدة ساعتين. واستجاب النظارة بالوقوف والتصفيق.

وصباح الأحد، خرج طلاب أكاديميات السينما والمسرح بإعلان درامي مناسب للموقف، عنوانه: "لا تنتظروا .. تصرفوا "، ويقول "أصبح عام ١٩٨٩ في تشيكوسلوفاكيا هو عام الهراوات. لقد أراقت تلك الهراوات دماء الطلبة يوم الجمعة ١٧ نوفمبر". وناشد البيان تأييد الدول الأوروبية بالذات في عام الذكرى المائتين للثورة الفرنسية، واستمر بعدد المطالب التي تصاعدت من التسجيل القانوني لمجلة "ليدوفي لوفنى" الشهرية السرية لتصبح علنية، إلى إلغاء الدور القيادي للحزب الشيوعي من الدستور. وكرر البيان المطالبة بالإضراب العام، مما كان له أثر كبير.

وخلال أيام كان الطلبة قد قاموا بتخزين جميع نداءاتهم في حواسبهم الإلكترونية الشخصية، والواقع أن كثيرا من المنشورات التي وزعت في الشوارع كانت مطبوعة على هذه الحواسب الإلكترونية.

في الساعة العاشرة من مساء الأحد – اليوم الثالث – أخذ الطلبة والممثلون المبادرة بإعلان إضرابهم والإضراب العام. واجتمعت مجموعات المعارضة التي كانت متواجدة على الساحة من قبل، بقيادة مجموعة "الميثاق ٧٧" في مسرح آخر من مسارح براغ. كان فاسلاف هافيل هو فاسلاف هافيل، الذي كان قد عاد بسرعة من منزله الريفي بشمال بوهيميا عندما سمع أخبار "المذبحة". شارك في الاجتماع مجموعات المعارضة الشديدة التنوع مثل: "اللجنة من أجل الدفاع عن المضطهدين

ظلماً" VONS و"حركة الحريات المدنية والبعث"، و "نادى الشيوعيين المغضوب عليهم"، بالإضافة إلى ممثلين عن الأحزاب "الدمي" المشاركة في السلطة مع الشيوعيين وهما "حزب الشعب" و "الحزب الاشتراكي"، والحزب الأخير كان يمثله جان سكورا سكرتيره العام الذي كان يوماً ما زميل دراسة لفاسلاف هافيل، وصديقاً مقرباً منه، لكنه تجنبه بحرص في سنوات الظلمة الطويلة التي أطلق عليها "تطبيع الأوضاع".

أتفق ذلك الجمع الخليط، الذي اجتمع في وقت متأخر من الليل، على تأسيس "منبر مدني" كمتحدث باسم ذلك الجمهور في التشيكوسلوفاك، الذي يتزايد انتقاده للقيادة التشيكوسلوفاكية؛ والذي أهتز حتى أعماقه في الأيام القليلة الماضية بسبب المذبحة الوحشية لطلبة يتظاهرون سلمياً. وقدم الاجتماع أربعة مطالب:

• الاستقالة الفورية للزعماء الشيوعيين المسئولين عن التمهيد لدخول قوات "حلف وارسو" عام ١٩٦، وما تلا ذلك من دمار للبلاد، بدءًا بالرئيس جوستاف هوساك وزعيم الحزب ميلوش ياكيش؛

• الاستقالة الفورية لكل من فرانتشيك كيتسل وزير الداخلية الفيدرالي، وميروسلاف ستيبمان السكرتير الأول للحزب في براغ على أساس أنهما المسئولان عن القمع الوحشي للمظاهرة السلمية؛

- تشكيل "لجنة خاصة" للتحقيق في كل تلك الأعمال البوليسية؛
- الإفراج عن كل سجناء الرأي، على الفور؛

وأضاف البيان الصادر عن الاجتماع أن "المنبر المدني" يؤيد الدعوة إلى الإضراب العام. ومنذ ذلك الحين فصاعداً، تولى "المنبر" مسئولية قيادة الثورة في الأراضي التشيكية مسئولية كاملة. [تكونت في منطقة سلوفاكيا منظمة مختلفة تحمل اسماً مختلفاً هي: "الجمهور العام ضد العنف"].

وفي عطلة الأسبوع تلك، تظاهر عشرات الألوف، معظمهم من الشباب، في ميدان وينسيسلاس، يلوحون الأعلام وينشدون الشعارات. واستولى الطلبة على تمثال الملك الطيب الراكب فرسه، وغطوا قاعدته بملصقات مرتجلة وبصور فوتوغرافية وبشموع موقدة. لكن التأييد الشعبي الكاسح جاء عصر يوم الاثنين، عندما تحول الميدان الممتلئ إلى ميدان مكدس. وهتفت الجماهير الكثيفة: "الحرية ... استقيلوا" وهتفوا بأغرب جملة: "لقد حانت الساعة !" ولم يدخل الميدان، لا الخوذات البيضاء، ولا البيريهات الحمراء.

وكما حدث في ألمانيا الشرقية حين استيقظت السلطات، على ما يحدث، كان الوقت قد فات فعلاً. لكن لاديسلاف أداميتش رئيس الوزراء آنداك تعمد أن يعلن أن الأحكام العرفية لن تعلن، وكان معنى ذلك ضمنياً

أن تمت مناقشة ذلك الخيار

يوم الثلاثاء – اليوم الخامس. تضخم حجم المظاهرة عند السلعة الرابعة، بعد مواعيد العمل. وقدمت دار النشر التابعة للحزب الاشتراكي بإشراف جان سكودا، شرفتها ذات الموقع الممتاز في منتصف الميدان، ومنها قام بإلقاء خطب للجماهير: راديم بالوش المناضل الكاثوليكي القديم في المعارضة، وفاسلاف مالي، وهو قس ديناميكي ممنوع من ممارسة الشعائر الدينية، ثم فاسلاف هافيل. ورددت الخطب مطالب "المنبر". وصباح اليوم التالي، كانت إحدى عناوين الصفحة الأولى لجريدة الحزب الشيوعي اليومية "رودى برافو" في طبعتها الأولى، تشير عن مظاهرة من مائتي ألف في الميدان، وانقصوا العدد إلى مائة ألف متظاهر في الطبعة الثانية. وقام أحد الأشخاص بنزع العنوانين ووضعهما معاً، وأعد نسخاً (فوتوكوبي) ألصقت في "فترينات" المحلات إلى جانب صور الرئيس – المحرر لتشيكوسلوفاكيا قبل الحرب: توماس جاريج مازاريك، إلى جانب المنشورات المطبوعة بالحواسب الالكترونية، وإعلانات تقول أن المحل الفلاني أو العلاني أنضم إلى الإضراب العام. وكانت تلك إعلانات ممهورة بتوقيعات جميع العاملين في ذلك المحل المذكور، وفي أحيان كثيرة معتمدة بختمه الرسمي.

في يومي الأربعاء والخميس .. اليومين السادس والسابع جرت مظاهرات أكبر، في نفس الوقت الذي انعقدت فيه أول اجتماعات لإجراء

محادثات بين أداميتش رئيس الوزارء، ووفد "المنبر"، لم يكن برئاسة فاسلاف هافيل، بعد مناشدة خاصة من رئيس الوزراء. قال لي هافيل أن رئيس الوزراء قد بعث له رسالة عن طريق أحد مساعديه يقول له فيها أنه لا يريد "أن يلعب بورقته الرابحة"*. على أنه كان هافيل يتصل اتصالا مباشراً بأداميتش من خلال وسطاء كانوا يطلقون على أنفسهم اسم "الجسر". وكان لذلك "الجسر" دعامتان: أولهما مايكل هوراشيك الصحفي بأحد مجلات الشباب، وثانيهما مايكل كوساب، مغنى الروك .

هكذا كانت الثورة تسير، وفي الحقيقة ترقص، طوال الأربع والعشرين ساعة، وكان مقر قيادتها في ذلك المسرح المسمى "الفانوس السحري" الذي لا يبعد أكثر من مائة متر. من نهاية ميدان وينسيسلاس.

عبر الأبواب المعدنية – والزجاجية الثقيلة، وعبوراً بالصف الثلوي من الحراس المتطوعين، تهبط سلالم عريضة إلى بهو تكسو جدرانه المرايا. الناس حولك يندفعون بطريقة تشي بالأهمية، أو يجلسون في مجموعات صغيرة على أرائك يأكلون فطائر جبن أعدت كيفما أتفق، ويتناقشون في مستقبل البلاد. وهبوطاً على سلم آخر، تجد المسرح نفسه، والمناظر التي كانت معدة لمسرحية دوريتمات "مينو تاووروس" تبدو مثل نفق به ثقب في

*تحتاج هذه النقطة إلى تفصيل أكثر، إذ أنها تعني أن النظام الشيوعي القديم قد يكون قد هدّد باستخدام الجيش أو البوليس، وهذا يعطي لهذه الثورات بعداً آخر – المترجم.

مؤخرة المسرح يتسع بالكاد ليخرج منه الوحش الصغير هنا ... بدلاً عن العرض الخاص للفانوس السحري الذي يجمع بين الدراما والموسيقى والبانتوميم، فإنهم يعقدون المؤتمر الصحفي اليومي. ويدلف المتحدثون من الثقب المخصص لوحش دورينمات، ويشاهد العرض الصحفيون بدلاً من السياح.

عند أحد أطراف البهو،تجد حجرة ذات حائط زجاجي كتب عليه بعدة لغات "حجرة التدخين" يقف حارس على بابها، يسمح للبعض بالدخول، ويمنع البعض الآخر، فتخرج تذكرة الدخول السحرية، ويدخل. في الداخل تجد الوجوه الملتحية المعتادة لأصدقاء قدامى من النشطين تحت الأرض، يجلسون على مقاعد هالكة في اجتماع أزمة. وتظهر شاشة التليفزيون المعلق على الحائط مشاهد أوبريتا، بدون صوت. ورائحة الحجرة خليط من دخان السجائر والعرق والمعاطف المبللة، والثورة. وأتذكر نفس الرائحة بالضبط، في بولندا خريف عام ١٩٨٠.

وتعتقد أن هذا هو مقر القيادة الحقيقي، ولكن بعد ساعات قليلة تكتشف باباً أسوداً عند الطرف الأخر للبهو، تدخل ثم هبط سلماً معدنياً إلى ممر ضيق خانق الحرارة، كما لو كنت هبط إلى أعماق عابرة محيطات. وهنا، في حجرتي الملابس رقم ١٠ و ١١، يوجد قلب الثورة نفسه. فها هو فاسلاف هافيل يجلس مع "سكرتيره الخاص" وعدد قليل من أهم

النشطين في "المنبر"، يقومون بصياغة نصوص آخر البيانات أو التصريحات البرنامجية أو المواقف التفاوضية.

وأمام باب حجرة الملابس يقف شخص نحيف ملتح يرتدى بزة مقاتل، وشعره خفيف مربوط من الخلف مثل موضة الهيبي. هذا هو جون بوك، صديق هافيل الذي يتولى الآن قيادة "الحرس الخاص" الذي يتكون معظمه من الطلبة. كان جون بوك، أثناء الحرب العالمية الثانية، طياراً تشيكياً في السلاح الجوى الملكي البريطاني*، ولا تحاول الاقتراب من جون بوك، فهو ورئيس مجموعة الأمن الخاصة بهافيل، واسمه ستانيسلاف ميلوتا وهو مصور سابق متزوج من ممثلة مشهورة، ظاهران تماماً في ذلك "العرض" يحيطان بفاسلاف هافيل في كل تحركاته، وجون بوك دائم الكلام في جهاز اللاسلكي الذي يحمله، بينما ميلوتا يهمس على الدوام: "شوش ... شوش"، في همسات مسرحية أعلى من الصوت الذي سبب المقاطعة الأصلية. وتؤكد كل حركة يقومان بها وضع فاسلاف هافيل الفريد.

ولسوف يتحير أي عالم من علماء السياسة عندما يبحث عن كلمة ليصف بها هيكل اتخاذ القرار في "المنبر"، دعك من التسلسل الهرمي للمسئولية داخله. ومع ذلك فإن الهيكل والتسلسل موجودان بكل تأكيد.

---

*بعد الاحتلال النازي لدول أوروبية هرب طياروها وضباطها وجنودها ليستمروا في محاربة النازي في الجيش البريطاني - المترجم.

"والطفل الذي عمره أربعة أيام"، كما يطلق هافيل على "المنبر" يبدو عند النظرة الأولى، كما لو كان نادياً. فالعضوية يحصل عليها الفرد بالتوصية الشخصية، ويمكنك أن ترسم شجرة تبدأ من الاجتماع الافتتاحي الذي انعقد بـ "مسرح الممثلين": فالشخص س قدم ص الذي قدم ع بدوره. كان أغلبية الموجودين من النشطين في المعارضة من قبل، وأكبر مجموعة منهم من الموقعين على "الميثاق ٧٧". منذ عشرين عاماً كان أولئك يعملون كصحفيين وأكاديميين وسياسيين ومحامين، وهم الآن منظفو نوافذ أو كتبة أو وقادين أو في أحسن الأحوال كتاب ممنوعين من الكتابة. وفي بعض الأحوال كان على بعضهم أن يترك الاجتماع ليتوجه ليوقد الغلايات. وعدد قليل منهم أتى من السجن مباشرة، عندما أفرج عنهم تحت ضغط الاجتماع الشعبي. أما سياسياً فهم يتراوحون بين بيتر أوهل من التروتسكيين الجدد إلىفاتسلاف بندا، المحافظ الكاثوليكي المغرق في محافظته

بالإضافة إلى هؤلاء، هناك ممثلون لمجموعات ذات مغزى: الطلبة بملابسهم الزاهية، والراديكاليون الذين يستمع بأدب من يكبرون سناً. فبعد كل شئ هم الذين بدءوا كل شيء، وفي بعض الأحيان هناك الممثلون، رغم أننا جمعياً ممثلون الآن. ثم هناك العمال الذين يمثلهم أساساً بيتر ميلر وهو تقني رياضي البنية واثق من نفسه يعمل بالمجمع الهندسي الضخم تش كي.دى CKD ببراغ، وتصمت كل أصوات المثقفين حين

يقف ممثل العمال ليتكلم. ويحضر "السلوفاك"* في بعض الأحيان، ويحتفي بهم كضيوف شرف في الاجتماعات. ثم هناك من أطلق عليهم اسم "المشخصّين"، أي العاملين بـ "معهد التنبؤات" Prognosticky ustav بأكاديمية العلوم التشيكوسلوفاكية، وهو أحد المعاهد المستقلة فعلاً من بين كل المؤسسات الأكاديمية بالبلاد.

والمشخّصون في حقيقة الأمر، اقتصاديون، ويكمن سحرهم الخاص من كونهم يعرفون، أو على الأقل يعتقد أنهم يعرفون، ما يجب عمله بالنسبة للاقتصاد، وهو موضوع له أولوية عند رجل الشارع، وخبرة معظم الفلاسفة والشعراء والممثلين والمؤرخين المجتمعين هنا، فيه أقل من تلك التي لدى سائق الترام. وليس لكل هؤلاء "المشخّصين" رأى موحد حول القضايا الاقتصادية. فالدكتور فاسلاف كلاوز، وهو رجل أشيب الشعر يضع نظارات ذات إطار معدني لامع، مترفع بمثل ما هو صادق، يفضل حلول ميلتون فريدمان. أما زميله الدكتور توماس جيزيك الأكثر تواضعاً فهو تلميذ لفردريك فون هايك ومترجم كتبه.

تمثل كل هذه الاتجاهات والمجموعات والتيارات في الاجتماعات

---

* تتكون تشيكوسلوفاكيا من قوميتين: التشيك والسلوفاك وقد ضمت الثورة المخملية "التشيك"، لكن كان هناك تنظيم توأم لـ "المنبر المدني". وتوقع المراقبون ألا يفوز لغلبة النزعة القومية، لكن فوزه أيضاً أكد سمات "الثورة المخملية" واتجاهها نحو القضاء على هذه الفوارق الاثنية والقومية - المترجم

الكاملة لـ "المنبر" الذي انتقل مقره حين تزايدت الأعداد من عشرات إلى مئات، من غرفة التدخين بالمسرح إلى صالة العرض الرئيسية والاجتماع الكامل هو أحدث المسميات الشيوعية التي سادت الحياة السياسية على مدى الأربعين عاما الأخيرة، ويجد "المنبر" نفسه، مثل "تضامن" في بولندا أيضاً مجبراً على استخدامها. ويقوم الاجتماع الكامل للمنبر بتعيين اللجان. وحتى الوقت الذي وصلت فيه إلى براغ كانت هناك أربع من تلك اللجان: اللجنة التنظيمية، واللجنة التقنية، واللجنة الإعلامية، ولجنة المفاهيم. والمراد من اللجنة الأخيرة، كما وضح أحد المتحدثين باسم "المنبر"، التعامل مع ملامح العلوم السياسية ونواحيها المختلفة. وعندما تركت براغ، كان عدد اللجان قد وصل إلى عشرة، فأصبح هناك على سبيل المثال": "لجنة البرامج"، و "لجنة الاستراتيجية".

وبالإضافة إلى التصويت على من يختارون لتلك اللجان، يصوت الاجتماع الكامل أيضا في بعض الأحيان على اختيار "هيئة إدارة الأزمة"، وكذا الأشخاص أو المجموعات التي تتحدث أمام التليفزيون أو تتفاوض مع الحكومة، وما إلى ذلك. وعندما أقول "التصويت" فإن ما يعني بالفعل هو أن رئيس الجلسة يختار بعض الأسماء، ويقوم آخرون باختيار أسماء أخرى، أو يرشح أفراد أنفسهم: والقوائم مفتوحة، ولذا فهي طويلة. يقول هافيل مثلاً: "اقترح ترشيح ايفان كليم في "لجنة المفاهيم" ايفان أنت لا تريد كتابة روايات جديدة. أليس كذلك؟" ومبادئ الاختيار تمثيليه

عموما، فيجب أن يكون هناك طالب، وعــامل، ومشــخص، وهكــذا. وأحياناً ينتج عن ذلك كلام يبدو عجيبــاً علــى أذن الأوروبي الغــربي، فالمفاهيم مختلفة. يقول شخص ما حين يأتي ذكر "لجنة المفاهيم" على سـبيل المثال: "ألا يجب أن تضم اللجنة ليبرالياً؟" فيأتي الجواب: "ولكن اللجنــة فيها كاثوليكيان بالفعل". وهكذا تعني كلمة كاثوليكي هنا كلمة ليبرالي في الغرب، بينما هي تعني في الغرب "محافظ".

ومراقبة كل ذلك، هي مراقبة السياسة في شكلها التلقائي، وأكاد أن أقول في شكلها "النقي". فقد يكون كل الرجال والنســاء حيوانــات سياسية، لكن بعضهم أكثر تسيّساً من الآخرين. وكان مما يثــير أن نــرى أشخاصاً يستجيبون فوراً للرائحة التي كانت تتســرب مــن "الفــانوس السحري" بمرور الأيام، رائحة السلطة. فالذين لم يكونوا يوما ما يعملــون بالسياسة ولا نشطين سياسياً، يقفون فجأة ويتقدمون نحو خشبه المســـرح ويقدمون أنفسهم للمشاركة في عمل مقترح. وآخرون كانوا نشطين منــذ زمن طويل في المعارضة الديموقراطية، يظلون جالســين في أماكنــهم، لا تعينهم السياسات الحقيقية للسلطة.

ومثل "تضامن" أصيب "المنبر" منذ البداية بصراع بين الحتميــة السياسية للعمل المتوحد السريع والبــات، وبــين الحتميــة الأخلاقيــة للديموقراطية الداخلية. هل يسيرون كما نــووا مــن البدايــة بشــكل

ديموقراطي؟ أم أن ظروف الصراع مع سلطة مازالت شمولية، تقتضي أن يقولوا مع برتولد بريخت*:

نحن الذين نحارب من أجل الديموقراطية

لا نستطيع أنفسنا أن نكون ديموقراطيين

إذا أخذنا الأمور بشكل سطحي لقلنا أن "المنبر" بالكاد ديموقراطي. فمن ذا الذي اختار قيادته؟ أنهم هم الذين اختاروا أنفسهم. ومع هذا ففي اليوم التالي لتشكيل "المنبر" كتبوا في رسالة موجهة إلى الرئيسين جورج بوش وميخائيل جورباتشوف. "يشعر "المنبر المدني" بقدرته على أن يتحدث باسم الجمهور التشيكوسلوفاكي". فبأي حق قالوا ذلك؟ بحق التأييد الشعبي، لأن الناس كانوا يسيرون في الشوارع متظاهرين يهتفون بحياة "المنبر"؛ يوماً بعد يوم: "عاش المنبر المدني". وفي براغ – على الأقل – كان الشعب والمظاهرات بوضوح وبدون أي احتمال لمظنة الخطأ، خلف المنبر. وبهذا المعنى الأصيل كان "المنبر" ديموقراطياً بعمق. فالشعب تكلم وأعلن أن "المنبر" هو لسانه المتحدث باسمه.

ولو كان للمرء أن يصف قيادة هافيل، فإن وصف "جذابة" يمكن أن يكون مناسباً. ولقد كان من الغريب الطريقة التي كان بها هذا الرجل محور كل الأمور في النهاية. فقد كان هو الحكم الفيصل الأخير في كل

---

*المسرحي والشاعر الألماني العظيم - المترجم

القرارات والتصريحات الرئيسية للمنبر تقريباً. كان الشخص الوحيد الذي يستطيع بطريقة ما أن يوازن الاتجاهات والمصالح المختلفة غاية الاختلاف في الحركة. وبهذا المعنى لم تتخذ كثير من القرارات بطريقة ديموقراطية: وهذه صور أيضا لما كان يحدث في "تضامن". ومع ذلك فلا نكاد نتصور شخصيته أقل سلطوية وتسلطاً من هافيل [وهنا يبرز الاختلاف الكبير عن شخصيته ليخ فاليسا السلطوية]. وجلسات "الاجتماع الكامل" ديموقراطية إلى حد السذاجة، وكان العم الطيب راديم باولوس رئيساً مثالياً لها. فالمسائل الهامة يتم اتخاذ قرارات بشأنها بالتصويت. فآخر بيانات "المنبر" قام بمراجعة تحريرها ما يربو على مائتي شخص، سطراً سطراً !.

هكذا، فإن كل هذا: الاجتماعات الكاملة، واللجان، والمجموعات الخاصة، وهافيل، وجون بوك، ومناظر مسرحية "المينو تاوروس" لدورينمات، وحجرة التدخين، وحجرتا الملابس، والنقاش السريع في الممرات، والحرارة، والدخان، والضحك، والإجهاد ... كوّنوا جميعاً ذلك الشيء السياسي الفريد: "الفانوس السحري". إن قصة الثورة في الأيام التي شهدتها فيها، كانت نتاج تفاعل "الفانوس السحري" مع ثلاث قوى مركبة أخرى:

(١) الشعب،

(٢) والسلطات الكائنة،

(٣) والعالم

فبالنسبة لأولئك المتواجدين في "الفانوس السحري". كان الشعب يعني قبل كل شئ: براغ. فبمعنى ما، تحولت كل براغ إلى "فانوس سحري". لم يكن الشعب هو كتل الجماهير في ميدان وينسيسلاس فقط، بل كان الملصقات المرتجلة التي غطت جدران كل المدينة، ولجان الإضراب في المصانع، ولجان "المنبر المدني" التي تشكّلت في المستشفيات والمدارس والمكاتب، وكان المسارح المكدسة كل ليلة للمناظرات مع ضيوف متحدثين على خشبه المسرح كل ليلة، وربما كان الضيف متحدثاً باسم "المنبر المدني"، أو كاتب كان منفياً ثم عاد بعد سنوات من الغياب. وكان الشعب هو الجماهير المصطفة أمام شاشات التليفزيون في المحلات أو في نوافذ المكاتب، في كل ساعات الليل والنهار، تشاهد شريط "الفيديو جورنال" لأحداث ١٧ نوفمبر، والذي كان يذاع مراراً وتكراراً. كان الشعب هو الناس العاديين في الشوارع، فحين كان المرء يتمشى ناحية المدينة القديمة كنت تستطيع سماع نتفاً من نقاشات متأججة: "انتخابات حرة" أو "وجه إنساني !" و "اتجاهات ديماجوجية" !وفي الصباح في ميدان وينسسلاس كنت تستطيع رؤية طابور من مئات ينتظرون بصبر شديد في الضباب الجليدي، كانوا يقفون انتظاراً لشراء نسخة من "سفو بودني سلوفو" (العالم الحر) صحيفة الحزب الاشتراكي التي كانت أول جريدة تحمل تقاريراً دقيقة عن المظاهرات وعن تصريحات "المنبر" كانوا يقفون

طابوراً من أجل العالم الحر.

وخارج براغ، كان الوضع يختلف من مكان لآخر. كان هنـــاك خوف ما واستياء أكثر بكثير مثلاً في المنطقة الصناعية حول "أوسترافا". ثم هناك سلوفاكيا بالطبع، وهي أمة مختلفة. كان التليفزيون هـــو الوســيلة الحرجة للوصول إلى هذا الجمهور الأعرض، وبدرجة أقل الراديو. وكـلنت معركة الوصول إلى التليفزيون والتغطية العادلة لما يحدث، هي واحدة مـــن أهم ثلاثة موضوعات سياسية أخرى. بالضبط كما حدث في بولندا. هنـــا كانت المعركة ظاهرة بطريقة كوميدية على الشاشة، حيث كـــان البـــث المباشر لمظاهرة، يوقف، لتذاع قطعة من الموسيقى الخفيفة. ثم يعود الإرسال مرة أخرى، كما لو كان الأمر يتم بيد خفية، لتعود تغطية المظاهرة. كـــان المتظاهرون يهتفون فى ميدان وينسيسلاف: "البث المباشر"، "البث المباشر" وحين تمكن "المنبر" من الوصول إلى الراديو والتليفزيون، وجه قدراً كبـــيراً من طاقته لمناقشة ما يذاع على الجمهور.

كانت القوة المركبة الثانية هي: "السلطات الكائنة"، وهذا اللفظ وهو من الجيل الملك جيمس، كانت تستخدمه باستمرار ريتـــا كليموفـــا، وهي أستاذة اقتصاد سابقة فصلت لأسباب سياسية. وكانت تقوم بترجمـــة كلمات المتحدثين في المؤتمرات الصحفية لـــ "المنبر" إلى اللغة الإنجليزيـــة، بدقة وبراعة وأحد المشاكل التي يتكرر حدوثها لوصف النظم الشـــيوعية

(أم يجب أن أقول النظم الشيوعية السابقة) هي بالضبط أن نجد اسماً جماعياً مناسباً للأفراد والمؤسسات، الذين كانوا يمسكون فعلاً بمقاليد السلطة. فإذا قلنا الحكومة على سبيل المثال لكان هذا خطأ بالغاً، لأن الحزب في مثل تلك النظم كان هو الذي يحكم، أو خليط من الحزب والبوليس والجيش والاتحاد السوفييتي. كانت كل تلك العناصر تلعب دورها، وتوصف بالاسم "الإنجيلي" : "السلطات الكائنة".

تفاوض "المنبر" في البداية مع رئيس الوزراء الفيدرالي الذي كان أيضا بطبيعة الحال عضواً في المكتب السياسي للحزب الشيوعي التشيكوسلوفاكي. لقد فعل ذلك في المقام الأول، لأنه كان صاحب السلطة الوحيد بين المسئولين الذي يرغب في التكلم مع "المنبر". لكنهم - أي ممثلي "المنبر" جعلوا من الضرورة فضيلة، فقالوا: "نحن نتكلم مع حكومة بلدنا، لأننا نريد حكومة قوية جيدة مسئولة أمام برلمان جيد، وليس نظام حكم الحزب الواحد. وبالإضافة إلى رئيس الوزراء الفيدرالي، تفاوضوا أيضا مع رئيس الوزراء التشيكي*. وبعدهما فقط، بدأ تفاوضهم مع زعماء الحزب الشيوعي الحاكم، بصفتهم الحزبية.

وخلف كل شئ كان هناك التواجد الحميد للاتحاد السوفييتي الجورباتشوفي: فكانت السفارة السوفييتية ببراغ تستقبل وفود "المنبر"

---

*تنقسم تشيكوسلوفاكيا إلى منطقة: التشيك والسلوفاك، ولكل منطقة حكومتها - المترجم.

بكياسة ظاهرة. وكان ميخائيل جورباتشوف شخصياً، هو الذي أعطى الأذن بنفسه لأوربانيك زعيم الحزب الشيوعي، وآداميتس رئيس الوزراء، أثناء اجتماع زعماء "حلف وارسو" بعد "قمة مالطا" للتنديد بغزو ١٩٦٨. ولسوف يقوم كتاب آخرون دون شك بتقييم كيف ولأي مدى قام ميخائيل جورباتشوف عامداً بدفع التغييرات في تشيكوسلوفاكيا*، ولأي مدى تأثر ذلك بتوقيته الشخصي لعلاقات الشرق - الغرب، وبالذات في الفترة السابقة على "قمة مالطا". وكما حدث بالضبط عام ١٩٨٠، حيث كان أسوأ مكان يمكن فيه تقييم نية الاتحاد السوفييتي للغزو، هو مقر قيادة "تضامن" بوارسو (وهي نقطة لم يتفهمها أبداً، المتحاورون في التليفزيون والراديو)، نفس هذا حدث عام ١٩٨٩، فأسوأ مكان يمكن فيه تقييم عدم النية السوفييتية للغزو هو مقر قيادة "المنبر" ببراغ، ومع ذلك كان الموقف السوفييتي في محتوى تأريخي أوسع، موقفاً أساسياً.

وعند هذه النقطة، تلقى "السلطات الكائنة"، بظلالها على القوة الثالثة، أو المسرح الثالث المسمى العالم. في عام ١٩٨٨ هتف المحتجون في براغ أثناء "الاحتفال" بالذكرى السنوية لعام ١٩٦٨ في وجه قوات البوليس:

* هناك أحاديث حول دور مؤكد لعبته الـ "كي.جي.ي" - المخابرات السوفييتية في دفع المظاهرات حتى نهايتها المحتومة للإجهاز على النظام. ولا يعني ذلك أنها من صنع السوفييت -المترجم.

براغ أثناء "الاحتفال" بالذكرى السنوية لعام ١٩٦٨ في وجه قوات البوليس: "إن العالم يراكم"، ومع ذلك ففي خريف ذلك العام كان من المشكوك فيه في الحقيقة "أن العالم يراهم" حقاً. كان العالم يعتبر أن الحياة تجرى في أماكن أخرى. لكن لم يكن هناك أدنى شك في عام ١٩٨٩ أن العالم يراهم. كان يراهم من خلال عيون كاميرات التليفزيون، ومن خلال آلاف الصحفيين الذين كانوا يتدفقون نحو "الفانوس السحري" ليشاهدوا الحفلة اليومية. كانوا منظراً يستحق المشاهدة في حد ذاته. أطقم التليفزيون والمصورون يتصرفون كـ "مينوتسورات*"، والصحفيون يتزاحمون ويتصايحون ويسألون أسئلة غريبة في بعض الأحيان.

ومع هذا، كانت بعض الأسئلة جيدة. وخدم الصحفيون مهمتين مفيدتين:

<u>الأولى</u>: أنهم جعلوا أعضاء "المنبر" يركزون تفكيرهم. فعندما يكون هناك "اجتماع كامل" للمنبر الساعة الخامسة مثلاً، فإن معرفة أن المتحدثين باسم "المنبر" سيواجهون أصعب أسئلة الساعة السابعة والنصف مثلاً، كانت كفيلة بأن تؤدى إلى إجراء حوار أعمق. رغم أنه حتى ذلك الوقت، كانت السياسات الأساسية للمنبر - كمستقبل "حلف وارسو" ومستقبل الاشتراكية - تتحدد في إجابات بنت وقتها على أسئلة وجهها

*ارجع إلى وصف المسرح وخشبته - المترجم.

والثانية: أن عيون العالم كانت توفر الحماية للمنبر. فعلى وجه الخصوص، وخلال الفترة المؤدية إلى "قمة مالطا"، لابد أنه لم يكن عند السلطات التشيكوسلوفاكية شك في أنها لم تعد تستطيع القيام بأشياء محددة كانت تقوم بها من قبل، أو أنها تستطيع أن تقوم بها مقابل ثمن باهظ من عدم الرضا الغربي والسوفييتي على السواء.

كانت وسيلة الإعلام الحرجة في كل من المجالين الخارجي والداخلي هي التليفزيون. إن كل الثورات في أوروبا في نهاية القرن العشرين، هي ثورات تليفزيونية.

اليوم الثامن: الجمعة ٢٤ نوفمبر:

في صباح ذلك اليوم، عقد اجتماع كامل بغرفة التدخين، وعي أشخاص في عدد من اللجان، وتحدد برنامج مظاهرة بعد الظهر. شخص ما يقول: الشعارات المقترح رفعها في المظاهرة هي: الموضوعية، والصدق، والإنتاجية، والحرية. وليس من المدهش أن يكون لشعارين من الأربعة صلة بالصدق، لكن شعار "الإنتاجية" يثير الاهتمام. فمن محادثات عديدة، يمكن أن نرى أن ينظر إلى "النموذج البولندي" هنا على أنه نموذج سلبي. فلو كان البؤس الاقتصادي سيكون ثمن التحرر السياسي، فقد لا يريد كثيرون أن يدفعوه. لذلك يضع "المنبر" أولوية أولى للمصداقية الاقتصادية،

فالمظاهرات بعد ساعات العمل. أما الإضراب العام يوم الاثنين بعد ساعة الغذاء، فقد كان ضرورة ولمرة واحدة فقط.

في وقت مبكر من بعد الظهر يصل الكسندر دوبتشيك، ويبدو كما لو كان قد خرج لتوه من إحدى صوره عام ١٩٦٨. كان الوجه يبدو عليه الكبر بطبيعة الحال، لكنه كان يرتدى نفس الجاكيت الرمادي، ونفس الكوفية حول العنق، ونفس الابتسامة المترددة الجذابة، بل ونفس قبعة الموظفين. ويخرج دوبتشيك وهافيل من بطن الفانوس السحري في حماية الحرس الخاص بقيادة جون بوك، ونسرع من خلال ممرات مسقوفة وشوارع جانبية لنصل إلى دار نشر الحزب الاشتراكي، وشرفة مكتب جريدة "سفو بودني سلوفو"، شرفة "العالم الحر". وأثناء مرورنا ينظر إلينا الناس بدهشة وهم لا يصدقون أنفسهم: "دوبتشيك !" إن الأمر يبدو كما لو سار عفريت ونستون تشرشل يتمشى في شوارع لندن.

وحين يدلف إلى الشرفة، في جو المساء القارص البرودة، وتركز عليه أضواء كاميرات التليفزيون، تزأر الجماهير بطريقة لم أسمع لها مثيل من قبل: "دوبتشيك ... دوبتشيك"، ونسمع رجع الصدى من المباني العالية هابطاً إلى الميدان المستطيل الضيق. ويتأسى كثيرون على دوره غير الواضح بعد الغزو السوفييتي، ولأنه لم يستخدم سحر أسمه لمساندة المعارضة الديموقراطية. لقد تغير تغيراً طفيفاً بمرور الوقت. ومازال كلامه يحتوى

على الجمل المتخشبة. (تحدث في جزء من خطابه عن "الميول الجاهية المتطرفة" ..) وهو مازال يؤمن بالاشتراكية، بمعنى شيوعية مقوّمة ذات وجه إنساني. لكن القائد الحقيقي لهذه الحركة في براغ على الأقل هو هافيل وليس دوبتشيك. وحتى هذه النقطة، ليس هذا مهماً. إن ما يهم هو أن البطل الأسطورة يقف هنا في الشرفة يلقي خطاباً أمام جمع حاشد في ميدان وينسيسلاف، في نفس الوقت الذي انتقل فيه الاجتماع الطارئ للجنة المركزية للحزب الشيوعي التشيكوسلوفاكي إلى ضاحية بعيدة. وتزأر الجماهير مرة أخرى: " دوبتشيك إلى القلعة"*. ولابد أن الرجل العجوز اعتقد أنه سيصحو ويجد أنه كان يحلم. أما بالنسبة للرجل الذي أطاح به وحل محله ويجلس الآن في القلعة، جوستاف هوساك، فقد كان الأمر كابوساً، تحقق.

وبعد دوبتشيك، تحدث هافيل. وتنشد الجماهير: "دوبتشيك، هافيل"، اسم ١٩٦٨ واسم ١٩٨٩. ثم يقرأ فاسلاف مالي، القس المبعد عن كنيسة والمحروم من القيام بالشعائر الدينية، رسالة من الرجل الذي يدعوه "الرمز الثالث العظيم" لهذه الحركة : فرانتسيك كاردنيال توماشيك البالغ من العمر تسعين عاماً. وتقول الرسالة:

---

*القلعة هي مقر رئيس الجمهورية ببراغ. وهذا الهتاف يعني أن الجماهير تريد دوبتشيك أن يصبح رئيساً للجمهورية – المترجم

"تقف الكنيسة الكاثوليكية كلية إلى جانب الشعب في كفاحه الحالي. وأني أشكر كل الذين يكافحون من أجلنا جميعاً، وأثق ثقة تامة في "المنبر المدني" الذي أصبح المتحدث باسم الأمة !!".

وهتف الجماهير: "يحيا توماشيك". ولكنني ألاحظ أنه حين أخذ القس فاسلاف مالي ينشد نشيد وينسيسلاس الديني التشيكي القديم، فإن معظم أفراد الجمهور لا تنشد معه، إما لأنها لا تعرف الكلمات، وإما لأنها لا تريد إنشاده، وهذا اختلاف واضح عما يحدث في بولندا.

بعدها تحدث لاعب كرة قدم، ومخرج مسرحي، ثم مايكل كوتساب مغنى الروك وأحد أعضاء "الجسر"، ثم طالب ، وعامل . لكن المظاهرة انتهت بعدها بأغرب حلقة تلقائية: لقد أخرج الناس جميعاً مفاتيحهم من جيوبهم و "شخللوا" بها. صدر عن ٣٠٠ ألف سلسلة مفاتيح صوت مثل الأصوات الصادرة عن أجراس صينية مجمعة.

الساعة الآن السابعة والنصف: موعد المؤتمر الصحفي. هافيل ودوبتشيك معاً على المسرح. كانا قد بدآ بالكاد في الإجابة على أسئلة تدور حول أفكارهما ورأيهما في الاشتراكية، واندفع شخص كان يشاهد الأخبار في التليفزيون، وصاح قائلاً أن المكتب السياسي للحزب الشيوعي وسكرتارية اللجنة المركزية قد قدمّا استقالتهما. ينفجر المسرح بالتصفيق، يقفز هافيل واقفاً ويرفع أصابعه بعلامة النصر، ويعانق دوبتشيك. تصل

زجاجة شمبانيا، ويرفع هافيل كأسه ويشرب نخب : "تشيكوسلوفاكيا حرة"!.

ثم نجلس ثانية لنتحاور حول "ماهية الاشتراكية" يقول هافيل أن الكلمة فقدت كل معنى لها في "المحتوى اللغوي التشيكي" عبر الخمسة عشر عاماً الماضية. لكنه بالتأكيد مع العدل الاجتماعي، واقتصاد تعددي به أشكال مختلفة من الملكية، وهو يعتقد أن نماذج سياسية – اجتماعية عقلانية يمكن أن توجد في بلدان يحكمها نظام اشتراكي – ديموقراطي وليس نظاماً شيوعياً. وتأتي أسرع وأقصر الإجابات من فاسلاف مالي، عندما يقول أنه في صف العدل الاجتماعي أيضا، ولكنه يعتقد أن الأسلوب الوحيد لتحقيق هذا هو من خلال ديموقراطية برلمانية.

الساعة العاشرة: "الاجتماع الكامل" بحجرة التدخين، حيث تتم مناقشة ترتيبات نشاطات عطلة نهاية الأسبوع. هناك حاجة ماسة للمال، فيتقرر تشكيل "لجنة مالية" لتوفير قدر من الأموال. ويدور حوار يجذب الانتباه حول الأسلوب الذي ينبغي به أن تكون لالكسندر دوبتشيك صلة بـ "المنبر". بالطبع أن لاسمه سحراً، محلياً وعالمياً، ولكنه كما نعلم مازال ... حسناً ... مازال "شيوعياً". وترى الزهو على كل وجه يحارب معركة ضد الإجهاد، فالجميع متعبون .. متعبون للغاية. وعند نقطة ما، وأثناء قراءة الكاتبة إيفا كانتوركوفا لمسودة إعلان عن الإضراب العام، تقول

"المنبر الديموقراطي" بدلاً من "المنبر المدني"، فتعتذر قائلة أنها كانت تفكر في المجر - "المنبر المدني"، "المنبر الديموقراطي"، "المنبر الجديد": تشيكوسلوفاكيا، والمجر ، وألمانيا الشرقية. يمكن للمرء أن يفقد طريقه بسهولة، فقد حدث كل هذا في عام واحد، أنه نوعية خاصة من السنين ويقترح شخص أن يوصف الإضراب العام "كاستفتاء غير رسمي على الدور القيادي للحزب الشيوعي". ويقول آخر "رمزي وليس "غير رسمي. ويتناظر الكتاب حول نقطة بلاغية، تتم بعدها الموافقة بسبب الإنهاك المتبادل. وينتهي الاجتماع.

بعد منتصف الليل: عودة إلى المشرب الذي يجلس فيه هافيل، به رسم على الحائط لسفينة تغالب الأمواج في بحرا عاصف : بيرة وبيتشيروفكا*. ما الذي يدور حوله الحديث في مساء يوم الانتصار الهائل حين تكون، وفي أسبوع واحد بالكاد قد طردت زمرة البلطجية المزمجرين الذين أفسدوا البلاد لعشرين عاما؟ في اللحظة الأولى وعلى خشبه مسرح "الفانوس السحري" قد تصيح "تشكوسلوفاكيا حرة"، لكنك لا تستطيع الاستمرار هكذا في الصياح والحديث مثل شخصيات مسرحية من القرن التاسع عشر ... فجأة تجد نفسك تخوض حديثا عن القطط. نعم .. القطط! قطتان، واحدة اسمها "يين" والثانية "يانج"، لم يرهما صاحبهما

---

*تشيكوسلوفاكيا مشهورة بالبيرة البيلزنر وبعض المشروبات الوطنية أشهرها البتشيروفكا والسليفوفيتسا – المترجم.

لأكثر من أسبوع الآن. أهما ضحيتا "الثورة"!.

ماذا سيحدث بعد الثورة إذن؟ ألقى بهذا السؤال على جيري دينتسبير المبتسم، النجم الصحفي الذي نقلوه للعمل "كوقاد للغلايات" بعد توقيعه على "الميثاق ٧٧". فيرد بسرعة: "إما الثورة المضادة .... أو مجتمع استهلاكي على النمط الغربي". [بعد أسبوعين بالضبط يعين وزيراً لخارجية تشيكوسلوفاكيا: من فضلك الغ ملاحظتي هذه من التسجيل. كلا بالطبع يا سيدى الوزير، أنت لم تقل هذا أبداً .. لقد قالها شخص آخر .. أو أنني تخيلت هذا القول].

اليوم التاسع : السبت ٢٥ نوفمبر

تصريحات من "المنبر"، صدر أحدها بعد "الاجتماع الكامل" الذي انعقد الليلة الماضية في الساعة الحادية عشر مساءً [الأحداث تجري بسرعة شديدة لدرجة أن البيانات والتصريحات لا تؤرخ فقط ، بل تحدد ساعات صدورها أيضاً]. يصف البيان الإضراب العام، بأنه "استفتاء رمزي" حول الدور القيادي للحزب. ويعبر بيان ثان صدر الساعة الرابعة والنصف صباحاً عن الامتعاض لبعض المنتخبين للمكتب السياسي للحزب الشيوعي الحاكم (كان يسمى "مجلس الرئاسة" سابقاً) وكذا لسكرتارية اللجنة المركزية. ويوصف الإضراب العام في هذا البيان أيضاً، بأنه "استفتاء غير رسمي من الأمة بكاملها على إذا ما كان سيسمح "لهؤلاء"

بالاستمرار في إذلالنا، وإذا ما كانوا سيستمرون في تحطيم هذا البلد على يد حزب واحد يختصب لنفسه باستمرار الدور القيادي".

يراني ساقي الفندق وأنا أقرأ صحيفة "سفو بودى سلوفو"، فيقول "النصر" ويشير إلى شريط ذي ألوان ثلاثة: الأزرق والأبيض الأحمر* يضعه مثل كثيرين في ياقة جاكتته. ثم يميل علي ويهمس في أذني: "الشيوعية انتهت"، ثم يقف ويدوس بنعليه على السجادة كما لو كان يسحق خنفسة. ويأخذ جريدتي ويختفي في المطبخ. لم يسألني ماذا سآخذ في الإفطار.

صباح اليوم، وبالمصادفة السعيدة، يقام قداس احتفالي بالكاتدرائية على تل القلعة، للاحتفال بتقديس "آجنيس أوف بوهيميا". وكان التقديس الفعلي لها قد تم في روما يوم ١٢ نوفمبر، قبل أن تبدأ الثورة بخمس أيام فقط. [قال لي صديق كاثوليكي أن هناك أسطورة قديمة تقول أنه حين يتم تقديس آجنيس أوف بوهيميا ستحدث عجائب]. ويتجمع جمع كبير في البرودة الثلجية، في الكاتدرائية وأمام قصر كبير الأساقفة، ويهتفون باسمه. وتنشد امرأة عجوز أناشيد وتراتيل دينية ووطنية. وتتوقف بين "كوبليه" وآخر، لترشف رشفة فودكا.

الكنيسة ليس لها تلك القوة الموجودة في بولندا، لأن

---

*ألوان علم تشيكوسلوفاكيا – المترجم.

تشيكوسلوفاكيا كانت منقسمة تاريخيا بين الكاثوليك ذوى الصلة بالهابسبرج المعادية لحركة الإصلاح الديني، والبروتستانت [من جان هوس إلى مازاريك]. وقمعت الكنيستان بلا رحمة في المرحلة الستالينية، ومرة أخرى بعد عام ١٩٦٨. إلا أن المثقفين الكاثوليك والقسس الممنوعين من ممارسة الشعائر مثل فاسلاف مالي ، يلعبون دورا أساسيا في زعامة المعارضة. وقد أصبح الكاردنيال توماشيك كبير الأساقفة أكثر جرأة كلما كبر سنه. وقد وقع على عريضة الحريات الدينية، في العام الماضي، أكثر من نصف مليون شخص، وكانت عاملا أساسيا في تحطيم الجليد السياسي. وعلى أية حال ... من ذا الذي يمكنه مقاومة التوافق العظيم بين ذلك الاحتفال الديني وبين الثورة؟ لذا وصلت حشود كبيرة أيضا للاحتفال، من الريف، وحتى من سلوفاكيا. هكذا كان الاحتفال بالقديسة أجنيس أوف بوهيميا – حامية بوهيميا، ابنه الملك التي ذهبت لتعيش بين الفقراء، كان في حد ذاته احتفالا بالتجدد الوطني. ويذاع الاحتفال مباشرة في التليفزيون، وعلى حد علمي، فهذه أول مرة يتم فيها إرسال مباشر أو غير مباشر لمثل هذا الحدث الديني.

الساعة الثانية بعد الظهر: وفي ثلج جليدي قارص البرودة، تحدث أكبر مظاهرة يفوق عدد من شارك فيها نصف مليون شخص؛ بالقرب من إستاد ليتنا لكرة القدم خلف المكان الذي كان فيه تمثال ستالين الضخم يوما ما. ويقفز المتظاهرون وهم في إمكانهم ليبعثوا في أجسادهم الدفء.

والحقيقة الجوهرية هي أهم هنا بدعوة من "المنبر". وبأحد المعاني، هذا هو كل ما يهم. لكن هناك برنامج بطبيعة الحال.

ويعبر هافيل عن عدم رضا "المنبر" عن بعض القادة الجدد، وعلى وجه الخصوص ميروسلاف سيتبان سكرتير الحزب في براغ، الذي لا يتمتع بأي شعبية على الإطلاق. وتصيح الجماهير: "العار ، العار". ثم يقول هافيل: أن الشخص الوحيد في السلطة الذي استجاب لرغبات الشعب هو لاديسلاف آداميتس رئيس الوزراء.

فهتفت الجماهير: "آداميتس ... آداميتس". ويرتجف المرء أحيانا من السهولة التي يتم بها تحريك الجماهير وهز مشاعرها. وهذا التكتيك الذي اتبعه هافيل مقصود تماما، وإن كان محفوفا بالمخاطر، وقد تم تخطيطه في حجرتي الملابس بالمسرح: "إن يقوى وضع آداميتس رئيس الوزراء كشريك تفاوضي، بأن يظهر للسلطات أنه يمكن أن يتمتع بتأييد شعبي. وحقيقة الأمر أن هذا هو بالضبط ما طلب آداميتس أن يفعله له فلاسلاف هافيل، منذ عدة أيام. ويقوم الكسندر دوبتشيك، لدهشة البعض لأنه لم يرجع بعد إلى براتسلافا، بتكرار تأييد آداميتس. فيقول بطريقة لطيفة، أنه مسرور من تقليص آجينس أوف بوهيميا – أينشكا – وأنه رغم أنه سيتكلم باللغة السلوفاكية، فليس المهم بالنسبة للإنسان كيف يتكلم، ولكن ما يقول.

ويكرر بيتر ميللر ، العامل ، الدعوة إلى الإضراب مؤكدا مـــرة أخرى أن الإضراب يجب ألا يضر بالاقتصاد القومي. فيعلو صوت "أغنيـة الرئيس مازاريك المفضلة". ويتكلم طلبة وممثلون. يقول أحـــد الممثلـين بتواضع: "إنني أتحدث باسم يسوع المسيح، وأدعوكـــم للقضـاء علـى الشيطان". تصفيق كالزئير، ثم وبالطريقة غير العادية التي ترد بها كتـل جماهيرية مثل هذه على متحدث، تعطى الإجابة الفوريـة: "الشـيطان في القلعة" ...."الشيطان في القلعة". [إذا وقفت وسط الجماهير، يمكنـك أن ترى وتسمع كيف أن رجلا واحدا يستطيع أن يبدأ نشيدا، وعندما يـردده من حوله، يصبح صوت نصف مليون].

السابعة والنصف مساء: المؤتمر الصحفي: تتردد مواقف "المنـبر" عن قيادات الحزب الموصومة، وعن الإضراب العام. وما إلى ذلك. في الغد يتقابل وفد المنبر مع آداميتس. ويحتوى جدول أعمال الاجتمـاع علـى تقنين وجود مجموعات مستقلة، والإفراج عن المسـجونين السياسـيين، والترتيب لإجراء محادثات أبعد ... ثم، إنهاء الدور القيـادي للحـزب. ويستمر المراسلون الأجانب في طرح أسئلة عن أشياء لا يمكن أن يعرفـوا إجاباتها مثل علاقات القوى داخل الحـزب، أو العلاقـة بـين القيـادة السوفييتية والقيادة التشيكوسلوفاكية. ويقدم جيرى دونيستير إجابة جيدة على السؤال الأخير فيقول: "بالطبع، نحن نشعر أنه يجب أن يكون لـدى القيادة السوفييتية بعض الإحساس بالمسئولية عن غزو ١٩٦٨. ولكننـا،

بكل تأكيد. لا نطلب أي "مساعدة" دولية أخرى.

والواضح الآن أن التليفزيون انفتح ليغطى أحداث الثورة، فــإلى جانب البث المباشر لوقائع القداس، فهو يقدم مقابلة مع هافيل. ويقــول: "فليسقط الدور القيادي ولتحيا الانتخابات الحرة". وتدرك الجماهــير أن هذه هي النقطة الجوهرية، فتهتف: "انتخابات حرة" ... كما في بولنــدا ، المجر ، وألمانيا الشرقية ...

اليوم العاشر (الأحد ٢٦ نوفمبر) الحادية عشرة صباحا.

وفد يقوده آداميتس رئيس الوزراء، يوصف رسميا بأنــه يمثــل الحكومة والجبهة الوطنية (التي تضم الشيوعيين والأحزاب الدمى ســابقا)، يجتمع مع وفد من "المنبر المدني" بقيادة هافيل. يقول رئيس الوزراء مــادا يده عبر المائدة:

– "نحن لا نعرف بعضنا".

فيرد هافيل :

– " أنا هافيل"

إنها جلسة تعارف. لكن يتم فيها الاتفاق على الاجتمــاع مــرة أخرى يوم الثلاثاء، مع وعد من رئيس الوزراء بإطلاق سراح المســجونين السياسيين [ويظهر كثير منهم بالفعل في مسرح "الفانوس الســحري" في

نفس اليوم]. ويعد أيضا بأن يأتي ليلقى خطابا في المظاهرة التأييديـــه بعـــد ظهر نفس اليوم.

الساعة الثانية بعد الظهر: إستاد ليتنا لكرة القدم مرة أخــــرى. يصل آداميتس قبل أن يصل قادة "المنبر"، ويقف وهو يدق علــــى الأرض بقدميه من البرد القارص. ويسأله أحدهم: "كيف تشعر؟" فـــيرد عليــه: "حسنا للغاية". فتزأر الجماهير: "دوبتشـــيك .. دوبتشـــيك". وألاحـــظ مساعده يحاول أن يخفي ابتسامة عريضة. يلقى هافيل خطابا قصيرا يصـــف فيه "المنبر" بأنه "جسر" بين الشمولية والديموقراطية، ويقول أن "المنبر ينبغي أن يبقى حتى تجرى انتخابات حرة". ثم يعطى آداميتس الفرصة ليتحــدث. ولكنه يضيع الفرصة بالحديث عن الحاجة إلى الانضباط، وضرورة عــــدم القيام بإضرابات أخرى، وعن حاجة البلاد إلى تغيير اقتصادي أكثر مــــن احتياجها لتغيير سياسي. ويشعر المرء أنه يوجه حديثه للاجتماع الطــــارئ للجنة المركزية الذي كان سينعقد في مساء نفس اليوم، بمثل مـــا يوجهـــه للجماهير أمامه. وتشعر الجماهـــير بذلـــك أيضـــا، فتصيـــح صيحـــات الاستهجان.

وتظهر الجماهير مرة أخرى تلك القدرة غير العادية للتحاور مـــع المتحدثين أمامهم، في هتافات منغمة. فهم يهتفون: "وسعوا الطريق لسيارة الإسعاف" أو "ارفعوا أصواتكم" وعندما تقرأ آمامهم قائمة طويلة بأسمــــاء

المسجونين السياسيين يهتفون: "ستيبان ... ستيبان إلى السجن". فيقـــول فلاسلاف مالي: "... وأعطوه فاسا ليعمل به" فيأتي نصف مليون صـــوت، كصوت واحد، في إجابة فورية : "سيسرقها". [في اليوم التالي تـــأتي لنـــا الأخبار بأن ستيبان قدم استقالته في الاجتماع الطارئ للجنة المركزيـــة ، بالإضافة إلى أعضاء موصومين آخرين في قيادة الحزب].

الساعة السادسة بعد الظهر: اجتماع كامل لهم يطرح فيه هـافيل "السؤال الأساسي" عن مستقبل "المنبر" ويقول أنه شـــخصيا لا يريـــد أن يصبح رئيسا أو سياسيا محترفا، فهو يريد أن يظل كاتبا. ويقول فاســـلاف مالي نفس الشيء تقريبا عدا أنه يريد أن يصبح – ما هو عليـــه الآن – أي قسا. ومع ذلك فإنه من الواضح للجميع أن هافيل ينبغي أن يستمر، علـــى الأقل حتى الانتخابات. ويمزح دينسبتير قائلا: "وفي الانتخابات لن أعطيك أي فرصة"!

ويأتي شخص بتقارير عن مكالمات تليفونية تشكو من الأســـاليب غير الديموقراطية للمنبر. نفس الصراع القديم بين السياسة والأخلاقيـــات، بين متطلبات الوحدة والديموقراطية. ويصمم الطلبـــة علـــى الحاجـــة إلى الوحدة والاستمرارية وقيادة هافيل. لكن أصواتا أخرى ترتفـــع مفضلـــة تكوين أحزاب سياسية. فهناك "حزب اشتراكي – ديموقراطي" سيعلن عن نفسه خلال الأيام القليلة القادمة. ويتفق الجميع على ألا يكـــون "المنـــبر"

منظمة مركزية شبيهة بحزب. فما هو إذن؟ وكيف يوصف جهاز مدني من أجل التجدد الوطني؟.

ويتأرجح الحوار، كما هو محتم، بين مواضيع عظيمة، وأخرى صغيرة. من : ماذا سيقال لأداميتس يوم الثلاثاء، إلى : ماذا سيقال لمراسلي الصحف بعد ساعة. ومن: الاشتراكية مقابل الليبرالية، إلى : ما إذا كان يجب الذهاب إلى الاجتماع مع رئيس الوزراء بالأوتوبيس أم يستقل وفد "المنبر" سيارة خاصة. ووسط ذلك كله يبدأ الاقتصادي اللامع فلاسلاف كلاوس فجأة، في قراءة وثيقة تصيب بالدهشة. أنها معنونة: ماذا نريد؟ ، وتحتها عنوان أصغر يقول: "المبادئ البرنامجية للمنبر المدني".

وتقترح الوثيقة إقامة تشيكوسلوفاكيا جديدة تخضع لحكم القانون الذي يضمنه قضاء حر، وانتخابات حرة عند كل المستويات، واقتصاد سوق، وعدل اجتماعي، واحترام البيئة، وحياة أكاديمية وثقافية مستقلة. دولة طبيعية بوسط أوروبا: صفحات ثلاث لا أكثر مكتوبة على الآلة الكاتبة، أعدها واحدة من اللجان في عطلة نهاية الأسبوع، شاهدتهم في البداية، وهم جلوس على مسرح "الفانوس السحري"، ثم وهم يعملون بكد في إحدى حجرات الملابس. جاء صديقي بيتر بيتهارت، وهو محام ، ومؤرخ ، ومؤلف واحد من أحسن الكتب عن ١٩٦٨، اضطر أن يشتغل بعمل يدوي بعد أن وقع "ميثاق٧٧"، جاء إلى "الفانوس السحري" ليقدم

اقتراحا متواضعا وخلال دقائق ضم إلى اللجنة، ليكتب في ساعات قليلة، تصورا تخطيطيا لتشيكوسلوفاكيا جديدة.

عندما انتهي كلاوس من قراءة الوثيقة، دار حوار حولها. قال فاسلاف بندا – وهو كاثوليكي محافظ، وأحد العقول السياسية الأصلية وراء "الميثاق٧٧"، أنه رغم أنه ساعد في صياغة النص إلا أنه لا يوافق على أجزاء من الوثيقة. مثلا الفقرة التي تقول أن "تشيكوسلوفاكيا ستحترم التزاماتها الدولية القانونية" (وضمن ذلك حلف وارسو). وفقرة أخرى تقول : "أن الدولة ينبغي أن تضمن حدا اجتماعيا أدنى للجميع". وهذه لحظة حرجة، لأنه إذا غرق "الاجتماع الكامل" في حوار سياسي جاد، ستطفو الخلافات قد غطاها البرنامج العريض الذي يقدم الحد الأدنى لمطالب كل الاتجاهات، لـ "الميثاق٧٧"، ثم لـ "المنبر" الآن. رغم عدم تلقيه تعليما عاليا، فهو يستطيع أن يفهم الوثيقة بأكملها، ويجدها جيدة ويعتقد "أننا ينبغي أن نتبناها" كما هي. كان يريد أن يقول ما معناه: "أيها المثقفون .. أوقفوا هذه السفسطة!". وتسمع تنهدات الارتياح من الجميع. ويجرى التصويت السريع على الوثيقة، فيتم تبنيها، مع امتناع ثلاثة أصوات فقط. شكرا لله على هذا "العامل".

يحتوى البرنامج بطبيعة الحال على فقرات مراوغة، بالنسبة لمسألة حلف وارسو على سبيل المثال، ودور الدولة، فبالنسبة للمسألة الأخيرة

تتحدث الوثيقة عن "التنافس الحقيقي" الذي يجب أن يتم على أساس الوجود المتوازي لأنماط مختلفة من الملكية وتمتعها بحقوق متساوية، والانفتاح التدريجي لاقتصادنا على العالم. وهذه في الحقيقة توليفة توفيقية تضع في حسبانها احساسات التحريفيين والاشتراكيين الديموقراطيين وحتى التروتسكيين، وهم جميعاً جزء من التحالف العريض بألوان قوس قزح في "المنبر"، ومازالوا يؤمنون بأشكال مختلفة من الملكية الاشتراكية. والحقيقة أن كتابة تلك الفقرة بهذه الطريقة تقول: " لندع أفضل شكل هو الذي يفوز". ولكن في الاجتماعات الخاصة، لم يكن عند خبراء الاقتصاد أي شك في الشكل الذي سيفوز.

ومع هذا. فما هو مثير للانتباه حقيقة ليس الخلافات حول البرنامج، ولكن درجة الإجماع الفوري. ففي عام ١٩٦٨، وحتى في عام ١٩٧٧، لم يكن من الممكن تقريبا التفكير في أن توجد مثل هذه الأرضية العريضة للاتفاق. وهذه ظاهرة تشيكية، بل والحقيقة أنها ليست مجرد ظاهرة تشيكية، لأنها تتكرر بطرق مختلفة في أوروبا الشرقية كلها. خذ عينة تمثل الواعين سياسيا لهذا الحد أو ذاك. فما الذي ستحصل عليه؟ نفس النموذج الأساسي الغربي والأوروبي: الديموقراطية البرلمانية، وحكم القانون، واقتصاد السوق. ولو أجريت نفس تلك التجربة في وارسو أو بودابست. فإنك ستصل إلى نفس النتيجة الأساسية: فهذا ليس طريق

ثالث. إنه ليس اشتراكية ذات وجه إنساني. إنها فكرة الحياة الطبيعية التي يبدو أنها تكتسح العالم.

ولكن كفانا تفلسفا، لأنه في الدقائق العشر التالية ينبغي على الاجتماع أن يقرر ما سيقال لرئيس الوزراء وللعالم. وفي المؤتمر الصحفي يسألون بالطبع عن فقرات الوثيقة، المراوغة، فيرد دينسبيتر: " ينبغي أن نبدأ من الوضع القائم، لكن هدفنا في المدى البعيد هو أوروبا بدون أحلاف ولا تكتلات. وهذا كلام مثل كلام وزراء الخارجية. أما بالنسبة للاتحاد السوفييتي، فيذيع التليفزيون (السوفييتي) في سهرة المساء برنامجا عن "ربيع براغ" يتضمن مقابلة مع الكسندر دوبتشيك. وقدم لهم "شريط" المقابلة، السافيريات "فيديو جورنال".

اليوم الحادي عشر: الاثنين ٨ نوفمبر

الإضراب العام ينجح حتى قبل أن يبدأ؛

فالتليفزيون يعلن نجاحه، ويعلن المذيع قبل الظهر أنه يستعد للانضمام إلى الإضراب. وما أن تدق الساعة الثانية عشرة حتى تظهر الميادين على شاشة التليفزيون وهي مكدسة بالناس: في براغ، في براتسلافا، في برنو، في أوسترافا، وفي كل مكان، ويصف المذيعون "الجو الساحر". ويظهر كلام على الشاشة الصغيرة يقول أن ما يذيعه المذيعون هو مساهمة منهم في

الإضراب. [ومع هذا، فخلال العشرين سنة الماضية، كانوا يذيعون زبالة الدعاية].

ويأخذني بيتر ميللر بسيارته إلى المصنع الذي يعمل به، في مجموع مصانع CMD الكبرى للإلكترونيات. ويقود ميللر بسرعة مخيفة سيارته "اللادا" (سبور) وهو يستمتع بإطلاق بوقها حتى يسمح لنا بالمرور، وهو يصيح "المنبر المدني". وبيتر ميللر في طريقه لأن يوصف بأنه فاليسا التشيكي رغم أنه يقول أنه شخصية صغيرة في المعارضة. وفي الطريق نمر بمشهد لا يمكن تصوره: طابور من التاكسيات يمتد لأكثر من كيلومتر على الأقل، تزحف سيارة بعد الأخرى صاعدة الجبل، وتجلس الزوجات والصديقات في مقاعد الركاب. إنه إضراب سائقي التاكسي. وأمام باب المصنع ينصت العمال بصبر إلى محاضرة طويلة في الاقتصاد يلقيها عليهم الدكتور فالتر كوماريك. ويهتف العمال: "كوماريك .. كوماريك". وينتهي الاجتماع بترديد الأناشيد الوطنية في الساعة الواحدة والنصف، وحتى يعود الجميع إلى أعمالهم بعد انتهاء الوقت المحدد للإضراب في الثانية بعد الظهر. ويقول ميللر انهم سيعوضون العمل المفقود، بالعمل بعد أوقات العمل الرسمية، بدون مقابل. وفي طريق العودة لا أجد أي تاكسي بطبيعة الحال. الساعة الرابعة بعد الظهر: مظاهرة احتفالية بميدان وينسيسلاف، المتظاهرون يريدون تقديم المنصة، أو بالأحرى الشرفة، لأحد الشيوعيين. يبدأ خطابه قائلا: "

أصدقائي. رفاقي". وهـذه غلطـة مخيفـة. يطلـق الجمـع الحاشـد صيحـات الاستهجان، ويرتفـع النشـيد قـائلا : "لسـنا رفاقـا". فالانتخابـات الحـرة، ونهاية الدور القيادي للحزب والدولة هما ما يريد الناس أن يسمعوه.ويقـرأ فاسلاف كلاوس، الذي يبرز الآن كأحد نجوم "المنبر"، بيانا يعلن أن "المنبر المدني" يعتبر أن "هدفه الأساسـي هـو الانفتـاح الحاسـم لمجتمعنـا لتطويـر التعددية السياسية، وإنجاز انتخابات حرة". ويقول أن المنبر "مفتـوح أمـام كل من يرفض النظام الحالي، ويقبل نقاط البرنامج".. ويقول انـه "لـن يكـون هناك هيكـل بنيـوي، ولكـن سيكون هنـاك مركـز تنسـيق" .. و "أن المركـز التنسيقي يوصي بإنهاء الإضراب في الوقت الحالي، وستقدم المطـالب لرئيـس الـوزراء في اليـوم التـالي، وإن لم تسـتجب لهـا الحكومـة بطريقـة مناسـبة فسنطالب باستقالتها". فتهتـف الجماهير : "الاستقالة، الاستقالة"، وتطالب بتعيين رئيس وزراء جديد لضمان حريـة الانتخابـات. وتـهتف الجماهـير "انتخابات حرة، انتخابات حرة".

ويتكلم الدكتور كوماريك الممتلئ الجسم، ببطء وأناة، قائلا ما يبدو أنه "خطاب قبول منصب رئيس الوزراء"! : " يجب أن تكون هناك أفعال لا أقوال"، فتهتف الجماهير مؤيدة. فيستمر كوماريك: " أننا نحتـاج إلى حـل وسط بين " الأمر الواقع" الجديد و " الوضع القانوني " السـابق"، ويسـتخدم كلمات لاتينية للتعبير عن هذيـن الوضعـين، فيضحـك الشـباب مـن حـولي،

ويهتفون باسمه. ويستمر كوماريك قائلا: "يجب تكوين حكومة ائتلاف عريضة، حكومة خبراء، رجال نوي كفاءة وكمال أخلاقي" (مثل والتر كوماريك كما يفهم من ذلك). ثم تقرأ طالبة خطابا من الطلبة موجها إلى رئيس الجمهورية، وهي نقرأ ببطء ووضوح كما لو كانت في درس إملاء: "نطالب الرئيس باستقالة أداميتس على أن يحل كوماريك محله، لأن لديه برنامجا جاهزا، ولأن "المنبر" يقف وراءه. فتهتف الجماهير: "ونحن أيضا نقف خلفه، ونحن أيضا نؤيده"!.

كان من الواضح إذن بالنسبة لكل من في الميدان، أن "المنبر" الذي يتحدث باسم الشعب، قد اقترح في التو واللحظة استقالة أداميتس، مرشحا اسما جديدا لرئاسة الحكومة. على إنك حين تذهب إلى مسرح "الفانوس السحري" تكتشف أن "المنبر" لم يقصد أن يفعل ذلك على الإطلاق. ففي الاجتماع الكامل الذي انعقد الساعة السادسة، هناك ارتباك وغيظ. يقول فاسلاف هافل "إن موقفنا أن نعطي أداميتس فرصة الاستجابة لمطالبنا قبل أن نطالب باستقالته، وقد جاء ذلك في التصريح الذي أدلى به كلاوس. لكن الطلبة اندفعوا قبل الوقت المناسب". يقول شخص آخر: "هذا تضليل". ويقول ثالث "إنها إثارة". وعلى الأرجح أنها مجرد لخبطة. وعلى أية حال، ماذا سيقولون الأن في المفاوضات مع أداميتس غدا؟ ومن هم أعضاء الوفد؟: طالب بطبيعة الحال، وعامل (ومن غير ميللر؟)، والمحامي جان

كارنو جوريسكي. ومناضل كاثوليكي سلوفاكي من رواد المعارضة أطلق سراحه من السجن في التو، وفاسلاف مالي. ويتساءل شخص: "هل نضم كوماريك إلى الوفد ؟" فيتساءل آخر. "في أي جانب" ؟!" ذلك لأن كوماريك ما يزال عضواً بالحزب الشيوعي. وعند هذه النقطة ينسحب فاسلاف هافل من خشبه المسرح، إذ عليه أن يذهب ليتسلم "جائزة السلام" من "اتحاد الناشرين الألمان". [انسحب منذ أربعة أيام أيضاً ليتسلم "جائزة أولاف بالم"].

الساعة السابعة والنصف مساءً: المؤتمر الصحفي: تعطى الإجابات على الأسئلة التي كانوا هم أنفسهم لم يصلوا إلى قرار حولها منذ دقائق قليلة في نفس الحجرة، بتأكيد عظيم. الوضع طيب أثناء الليل. يقول بيتر ميللر أن "لجنة الإضراب" مازالت قائمة وسيستمر وجودها، ولن يقوم العاملين بتعويض الوقت الذي فقد بالإضراب فحسب، بل سيعملون أيضا يومي سبت بلا مقابل في الأسبوع الذي تجري فيه أول انتخابات حرة تشيكوسلوفاكيا. وعندما يوجه سؤال عما إذا كان سيشكل حزب للخضر، تأتي إجابة دينسبتير: "تحتاج البلاد لأن تكون كل أحزابها خضراء". مرحى يا جيري! ها أنت تتكلم مثل وزير خارجية مرة أخرى. لكنه يسرع بالخروج إذ عليه أن يوقد غلاياته.

اليوم الثاني عشر : الثلاثاء ٢٨ نوفمبر : في الساعة الواحدة والنصف، يعطي ماريان كالفا - الوزير في الحكومة التشيكية - أول تقرير عن المحادثات الجارية بين وفد الحكومة والجبهة الوطنية بقيادة آدامتيس، ووفد "المنبر" بقيادة هافل. قال "أن الاجتماع بدأ في جو من الإثارة، لكنه وصل إلى الاستقرار وانتهى بروح إيجابية". وافق رئيس الوزراء على تشكيل حكومة جديدة، قبل يوم الأحد الثالث من ديسمبر، حكومة تقوم على "تحالف عريض"، حكومة خبراء. وستقترح الحكومة على "البرلمان الفيدرالي" أن تلغى من الدستور البنود الخاصة بالدور القيادي للحزب، والدور الثانوي للجبهة الوطنية، وكذا إلغاء البند القائل بأن الماركسية - اللينينية هي أساس التعليم. ووعد رئيس الوزراء أيضاً بأن يقوم "المجلس البلدي" بتوفير كل التسهيلات للمنبر. وطبقا لمصادر "المنبر"، فقد آداميتس هدوءه عندما قدم "المنبر" مطالبه- وهي تلخيص للمطالب التي رفعها الطلبة وفئات الشعب الأخرى، في الأسبوع السابق. وقال آداميتس إنها "إنذار" وليست مطالباً. ورفعت الجلسة لفترة استراحة قصيرة، وبعدها نزع بيتر ميللر - مرة أخرى - فتيل الموقف بحديث صريح.

الساعة الرابعة بعد الظهر : الاجتماع الكامل. حوالي مائتي شخص في قاعة المحاضرات. هافل وأعضاء "الوفد" الآخرين على المسرح. الموضوع الرئيسي: تقرير "المنبر" عما دار في المفاوضات، بالإضافة إلى المطالب الثلاث

التي قبلتها الحكومة: بالإفراج عن جميع المسجونين السياسيين قبل العاشر من ديسمبر [وهو يوم الأمم المتحدة لحقوق الإنسان]. وكان هناك تعبير عن الرضا لقرار تأسيس "لجنة برلمانية" لتقصي الحقائق حول استخدام البوليس وقوات الأمن للعنف يوم مظاهرة ١٧ نوفمبر. ويقرأ راديم باولوس مسودة تقرير "الاجتماع الكامل"، وتحتوى على خمس نقاط إضافية، أكثرها إثارة هي أن "المنبر" يكتب رسالة للرئيس هوساك تطالبه بالاستقالة يوم ١٠ ديسمبر. وهناك فرصة – أمام رئيس الوزراء – حتى آخر العام ليوضح الطريقة التي ستوفر بها حكومته الجديدة الظروف القانونية لإجراء انتخابات حرة، وإطلاق حرية الاجتماعات والاتصالات والصحافة والخطابة، وإنهاء سيطرة الدولة على الكنيسة الخ. بالإضافة إلى ذلك: حل "الميليشيا الشعبية" وهي جيش الحزب الخاص، وإلغاء عمل جميع المنظمات السياسية داخل أماكن العمل (كما حدث في المجر). وإن لم تنفذ هذه المطالب فسيطالب "المنبر" بإقالته.

بعد قراءة المسودة يقول هافل: "أترككم الآن لتتحاوروا عما جاء بها". ويدلف إلى كواليس المسرح من خلال ثقب "المينوتاور"، وخلال النقاش المشوش إلى حد ما، يشير بيتر بيتهارت بحدة إلى أن الوفد لم يذكر أي شيء عن تشكيل الحكومة الجديدة نفسها. فماذا عن أدوات السلطة الحرجة؟ ماذا عن وزارتي الداخلية والدفاع على سبيل المثال؟ وتأتي الإجابة

س على خشبه المسرح يشوبها بعض الخجل " نعم. لكن لا نستطيع الحديث هنا عن شيء لم نناقشه هناك، لقد جعلنا الاستعجال والتشويش ننسى إثارة هذه النقطة". ومرة أخرى ينهي بيتر ميللر الحوار الفكري فيقول. " دعونا نقبل مسودة الاتفاق الآن، فإننا نستطيع تعديلها فيما بعد".

المؤتمر الصحفي: قراءة الصور النهائية للبيان الصادر عن "المنبر" الذي نقحه مائتي شخص. ويقرأ بالمثل نص خطاب إلى السلطات السوفييتية لإعادة تقييم أحداث ١٩٦٨. قيل أن السفارة السوفييتية تلقت ذلك الخطاب بسرور، وأنها وعدت بإرساله إلى موسكو بالتلكس على الفور. وعندما سئل هافل عن مفاوضاته مع الحكومة قال إنها "معقدة وسريعة ودرامية" :" ومن فضلكم لا تتوقعوا أن أذكر كل التفصيلات هنا". ويبدو أنه يتوسل للصحافة أن تتركه وشأنه. مع وعد بأنه سيجيب "بكل سرور على جميع الأسئلة في مؤتمر صحفي يستغرق يوما كاملا.. بعد الثورة".

اليوم الثالث عشر: الأربعاء ٢٩ نوفمبر: يذيع التليفزيون خطابا يلقيه كارل أوربانك سكرتير عام الحزب الشيوعي، الجديد. يحاول أن يرفع الروح المعنوية لأعضاء الحزب وأنصاره، في اجتماع طارئ بقصر الثقافة. يتحدث بلهجة قتالية ويقول أنه لن يبيع وطنه "لرؤوس الأموال الأجنبية كما فعل البولنديون". ويقول أن " الحزب لا يمكن أن يوافق على مطلب حل ميليشيا الحزب [سيتم ذلك بعد ثلاثة أيام - يوم السبت التالي

] فيهتف المستمعون إليه " أوربانك. أوربانك. يعيش ال KSC "
(الحزب الشيوعي التشيكوسلوفاكي).

ثم اجتماع البرلمان الفيدرالي. نساء بوجوه شاحبة وتسريحات شعر رخيصة وأصوات مدرسات يلقين بدروسهن في مدرسة. ورجال في بزات رخيصة وشعور مصفوفة من جبهات تنضح بالعرق: الشكل الخارجي للسلطة في الأربعين عاما الماضية. لكنهم يصوتون في النهاية، جميعا، بالموافقة على اقتراحي رئيس الوزراء، كما اتفق بالأمس في الاجتماع التفاوضي مع وفد "المنبر": إلغاء بند الدستور الذي يقول عن الدور القيادي للحزب الشيوعي، والبند القائل بأن الماركسية - اللينينية هي أساس التعليم. فلسنوات، ولطول العمر في بعض الأحيان، كانوا يلقون المواعظ بالماركسية اللينينية، وبالدور القيادي للحزب. ومع ذلك لم يرفع نائب واحد صوته ضد تغيير البندين في الدستور. فكما قال جورج أورويل: "المومس مرة، دائما مومس!".

الساعة الرابعة بعد الظهر: الاجتماع الكامل بقاعة المحاضرات. أسرع هافل يصاحبه وفد، إلى براتسلافا* للتحدث في "المسرح القومي السلوفاكي". قال انه لأمر حيوي ألا يسمح للسلطات بالتفرقة بين التشيك والسلوفاك، كما فعلت كثيرا في الماضي. وقد شدد البيان الصادر بالأمس حول

* عاصمة إقليم سلوفاكيا.

اجتماع المفاوضات مع الحكومة على حقيقة أن وفد مفاوضات "المنبر" مع الحكومة كان مكونا من أعضاء من "المنبر" وشقيقة في سلوفاكيا: منظمة "الجمهور ضد العنف". وأن أول فقرة في بيان اليوم ستسجل أن الهدف المشترك للمنبر والمنظمة هو تغيير جمهورية تشيكوسلوفاكيا إلى "اتحاد فيدرالي ديموقراطي يعيش فيه التشيك والسلوفاك والقوميات الأخرى، في صداقة وفهم متبادلين". ومع ذلك هناك صخور في الطريق، لأن المسألة ليست مجرد الديموقراطية في حد ذاتها، إنما أيضا درجة "الحكم الذاتي" التي يجب أن تتمتع بها كل قومية من القوميتين داخل الدولة الفيدرالية.

عودة إلى العمل: النقطة الثالثة تقول: قال رئيس الوزراء في مباحثاته أمس مع وفد "المنبر" أنه يود أن يناقش معنا أسماء أعضاء مجلس الوزراء الجديد. و" المنبر المدني" لا يتطلع إلى أي منصب وزاري، وإنه كان يود أن يقترح على رئيس الوزراء أن يكون وزير الدفاع مدنيا لم يتلوث اسمه، في نفس الوقت الذي يكون فيه عضوا بالحزب الشيوعي التشيكوسلوفاكي. وينبغي أن يكون وزير الداخلية شخصا لم يلوث نفسه، وأن يكون مدنيا، وألا يكون عضوا بالحزب الشيوعي. قدم هذا الاقتراح لرئيس الوزراء في صباح ذلك اليوم. والحقيقة أن هافل أحضر مسودة الاقتراح من حجرة الملابس التي كانت مكتبه، إلى حجرة الملابس الثانية، الخاصة بهيئة إدارة الأزمة، وتمت الموافقة عليه في دقائق.

وطرح التساؤل عمن يريد أن يتكلم في المؤتمر الصحفي. فلم يتقدم أحد. ينبغي أن يتعلم الناس مواجهة الصحافة.

ويسأل شخص: هل نطلق على ما يجرى اسم "الثورة"؟ في محتوى لغتنا، فإن كلمة "ثورة" تتضمن - بشكل واضح - استخدام العنف. وتبدو كلمة "ثورة سلمية" كما لو كانت تشكل تناقضا في التعريفات. وقد يعتقد أن هذه نقطة أكاديمية، لكن قدرا كبيرا مما يحدث فعلا، هو بالضبط بحث حول الكلمات: بحث عن كلمات جديدة بسيطة بدلا من الجمل الكاذبة القديمة التي عاش الناس في ظلها كل هذه المدة الطويلة. وتحاول "لجنة الصياغة" أن تكون بيانات "المنبر" مكتوبة بلغة عصرية، منذ البداية. وللأسف لا تنجح دائما، فالبيانات عند تكرار الرموز المختصرة *، تتحول بسرعة لأن تكون مثل البيانات الرسمية القديمة.

السابعة والنصف بعد الظهر: المؤتمر الصحفي: فاسلاف كلاوس مبتسما، يعطي تقريرا عن مقابلة صحفية مع ميلوش ياكيش زعيم الحزب الشيوعي التشيكوسلوفاكي الذي أقيل من منصبه. ذكر كلاوس أن الزعيم المقال قال "أن المنبر المدني منظم تنظيما جيدا". ويعلق كلاوس بقوله: "إننا حتى بالنسبة لهذه النقطة لا نستطيع أن نقول أننا نتفق معه". سؤال عن

---

* يرمز عادة إلى أسماء المنظمات والأحزاب بالأحرف الأولى "فالمنبر المدني" م م مثلا Civic Forum - CV المترجم

الأكاديميين الذين فصلوا من وظائفهم بعد ١٩٦٩. يجيب أحد زعماء الطلبة بقوله: " إننا كتبنا بالفعل قائمة بأسماء أولئك الذين يجب إعادتهم إلى مناصبهم". يوجه سؤال عن الكيفية التي سيتم بها إيجاد أماكن لهم. فيأتي الرد: " أؤكد لك أن لدينا عددا كافيا من الأساتذة غير الأكفاء".

اليوم الرابع عشر (الخميس ٣٠ نوفمبر):

الساعة الرابعة بعد الظهر: الاجتماع الكامل: التنظيم الداخلي "لمركز التنسيق"، أحد هيئات "المنبر". إيفان هافل المتخصص في السيبرناطيقا يقدم خطة غاية في المنطقية والتأثير، شرح تفصيلاتها على سبورة وضعت على خشبه المسرح. فجأة يبدو المسرح كما لو كان قاعة محاضرات: لقد أصبحت الثورة "ندوة".

أحد الموضوعات التي تناقش في الندوة، هي كيفية تغيير بنية البرلمان الفيدرالي. ومرة أخرى يظهر الصراع بين الحتمية الأخلاقية للديموقراطية، والحتمية السياسية للعمل السريع المؤثر. هناك تدبير قانوني يمكن على أساسه "إلغاء" العضوية البرلمانية بناء على تصويت البرلمان نفسه، على أن يتم استبدال الأعضاء المبعدين بهذه الطريقة، بأعضاء جدد، معينين وليسوا منتخبين. وقد استخدم هذا الأسلوب نفسه في تطهير البرلمان من الغزو السوفييتي عام ١٩٦٨ ويقترح البروفيسور جيسينسكي، وهو محام دستوري كان هو نفسه أحد المبعدين من البرلمان بهذه الطريقة،

أن "يطحن" الشيوعيون بنفس سلاحهم. ويقول آخرون، "ولكن هذا أسلوب غير ديموقراطي"، فعلى الأقل ينبغي إجراء انتخابات حرة في الدوائر التي ستخلو، كما حدث في المجر. لكن سيستغرق هذا وقتا طويلا. وليس هناك وقت. و "إن ما نحن في حاجة إليه الآن هو برلمان أكثر تمثيلا للناس". " أفلا يمكن أن نأخذ طريقا غير ديموقراطي أقصر للوصول إلى الديموقراطية؟ ".

في هذه الأثناء يتم أول اجتماع ثنائي مباشر بين وفد من "المنبر"، وزعماء الحزب. يقود فاسيل ماوهوريتا وفد الحزب، وهو زعيم منظمة الشباب الرسمية الذي أعطى التصريح بمظاهرة الطلبة التي بدأ بها كل شئ، ووافق على إصدار بيان يندد بالعنف الذي حدث ضد المتظاهرين. ربما كان هو الشريك الذي يجري البحث عنه في الحزب ؟!

بعد نشرة أخبار التليفزيون، تذاع مقابلة طويلة مع زدانياك ملفار، وهو عضو قيادي في جماعة الكسندر دوبتشك عام ١٩٦٨. دعي للحضور إلى براغ من منفاه في فيينا، ووجه إليه الدعوة كارل أوربنك زعيم الحزب الشيوعي التشيكوسلوفاكي الجديد، وذهب إليه ليجتمع به فور عبوره الحدود في حلكة الليل. ففي هذا الوضع اليائس، أخذ زعماء الحزب

يبحثون عن الشيوعيين القدامى الذين طردوهم* وشهروا بهم بعد الغزو السوفييتي، وهم يأملون في أن يكسبوهم. قدم ملينار في الحديث التليفزيوني بصفته عالما في "السياسة" من ايزنبروك، ويتحدث بطريقة بليغة مؤكدا على أهمية جورباتشوف وأهمية المحتوى الدولي بأكمله وتأثيرهما على الأوضاع في تشيكوسلوفاكيا في كل نقاط التحول في تاريخ تشيكوسلوفاكيا في أعوام ١٩١٨ و ١٩٣٨ و ١٩٤٨ و ١٩٦٨. إن ما لا يتحدث عنه هو الخطوات المحددة المطلوبة لتفكيك النظام الشيوعي. عند انتهاء المقابلة تشعر انه مازال يتمسك، مثله مثل دوبتشيك - بمفاهيم عام ١٩٦٨، أي "شيوعية مصلحة" تسمى "اشتراكية ذات وجه أنساني" باختصار انه يتمسك بفكرة عفا عليها الزمن.

في المساء، أتمشى مع بينر أوسلزلي مدير المسرح في شوارع المدينة القديمة ذات الجمال الفائق، وتوجهنا إلى مسرح صغير في "البالو ستراد" حيث مثلت المسرحيات الأولى لفلاسلاف هافل، في الستينات. ويعرض هذا المسرح، مثله مثل كل المسارح الأخرى، عروضا مرتجلة. وبعد حديث قصير مع خبير اقتصادي، وحوار مع مصمم رقصات ومغنى عن كيفية تمويل المسارح في الغرب، يبدأ عرض غنائي لمجموعة تشيكية تقدم أغاني على

---

* بعد الغزو السوفييتي في ٢١ أغسطس ١٩٦٨. تمت تدريجيا الإطاحة بالكسندر دوبتشيك سكرتير عام الحزب وقيادته، في نفس الوقت الذي تم فيه "تطهير" الحزب من نصف مليون عضو نكل بمعظمهم. فلم يبق فيه إلا كل مطبل مزمر   المترجم

شاكلة الأغاني الريفية وأغاني الغرب الأمريكي، بلغة يمكن أن نطلق عليها "تشيكنجليزية".

اليوم الخامس عشر: الجمعة أول ديسمبر

يجلس بافل براتينكا في كوخ الوقادين عند موقع بناء خط المترو، إلى جانب كومة هائلة من الفحم خارج الباب، وسرير (من تلك المتحركة التي تطبق وتفتح وتفرد)، وبعض قطع الأثاث الروبابيكيا (القديمة)، يقول: "أفضل نظاما تشريعيا من مجلسين". كان يدرس هذه القضايا لسنوات: السياسة والقانون والاقتصاد. ويكتب مقالات للصحافة السرية، ولمطبوعات ونشرات في الغرب. وعندما يجلس المرء معه، يشعر أنه يجلس مع مفكر في كل الأمور، لا يأخذ الأمور على علاتها. لذلك لا يجاريه أحد في ثقته بالمواقف التي يتخذها، وهي مواقف يمكن وصفها في المحتوى الأمريكي بأنها من "المحافظة الجديدة". عرفته لسنوات عديدة، وأقدر تقديرا كبيرا غضبه الفكري المتأجج، لكن "محافظته" مختلفة. نجلس في الكوخ الكئيب، وبافل يرتدي سروال الوقاد الواسع الخشن، ويمر بفكري خاطر، أنه خلال شهور سيجلس في مجلس النواب في برلمان جديد.

الساعة الخامسة بعد الظهر: الاجتماع الكامل. تم اختيار عدة أسماء ليكونوا أعضاء في "لجنة إدارة الأزمة" خلال نهاية الأزمة. هل هناك متطوعون آخرون؟ إن هذا نهاية أسبوع حرج، فيوم الأحد هو الموعد النهائي

الذي حدده "المنبر" لتشكيل الحكومة الجديدة. آنذاك سيكون عليهم تحديد رد فعل قائمة أسماء الوزراء التي سيقدمها آداميتس. ويستطيع آي شخص من الناحية الفعلية، إذا أراد، أن يتقدم ليساهم في اتخاذ هذا القرار الحرج. لكن الجميع منهكين بعد أسبوعين من الثورة، وزوجاتهم وأولادهم يشتكون. وهذه عطلة نهاية الأسبوع. لهذا تطول قائمة المتطوعين ببطء شديد.

ويستيقظ الاجتماع حين يصل مزارع ضخم الجسم نجح في تفريق مؤتمر رسمي للتعاونيات الزراعية، يقرأ بيانا مثيرا يبدأ بـ "نحن المواطنون" ويغطي كل شئ من الحرية إلى الأسمدة. ثم يطلب من المتحدثين من "المنبر" أن يذهبوا إلى الريف، ويقول: " أن الناس في الريف تعتقد أن "الميثاق ٧٧" هم مجموعة من المسجونين السابقين" !.

بعد الساعة السابعة مساء بقليل. يعود فاسلاف هافل وبيتر بيتهارت منهكين بدورهما، بعد خمس ساعات من المفاوضات مع رئيس الوزراء التشيكي (وليس الفيدرالي) كان الموضوع الرئيسي هو تشكيل حكومة جديدة، وكذا التغييرات التي يجب إجرائها في الشئون الخاصة بهذه الحكومة الإقليمية، كالتعليم على سبيل المثال. تم الاتفاق على إصدار بيان مشترك بعد جدل استمر ساعة حول كلمة واحدة، هي كلمة "الاستقالة". يقول هافل: ينبغي أن تفهموا مشاعر أولئك الناس الذين يوقعون على بيان

مشترك معنا، كانوا لمدة عشرين عاما ينظرون إلينا ويعاملوننا على إننا مجرمين خطرين.

الساعات الأولى من الصباح: ملك بوهيميا يعود إلى حانته المفضلة في بدروم أحد مباني براغ. فتاة تهتف من مائدة مجاورة: "مرحبا هافل"، وترسل صديقتها ليحصل على توقيع هافل على علبة سجائر لتحتفظ به كتذكار. وهافل بوهيمي بكل معنى الكلمة: فهو مثقف تشيكي من بوهيميه يمتلك حسا عميقا بوطنه، ولكنه أيضا فنان، وأسعد لحظاته حين يكون في حانة، يجلس وأمامه كوب من البيرة، بصحبة أصدقاء مسليين وحسناوات. وهو قصير القامة، شعره فاتح، وشارب، وجسمه مليء على قدمين صغيرتين، وهو يبدو أصغر من سنه الحقيقي الذي يبلغ الثالثة والخمسين من عمره. وحتى في أوقاته الأهدأ يكون بمثابة حزمة من الطاقة العصبية تتحرك يداه كمروحتين طائرتين، وطريقة مشيه مميزة تكاد تقترب من طريقة مشي شارلي شابلن: خطوات قصيرة وانحناءة إلى الأمام. وهو يرتدي "الجينز" وقميصا مفتوحا، وجاكيت في بعض الأحيان. وفى أحوال نادرة مشددة فقط يرتدي حلة عادية وربطة عنق: عندما يتلقى علي سبيل المثال، إحدى تلك الجوائز الدولية. أما جلسات التفاوض مع الحكومة فليست واحدة من تلك الأحوال التي تستدعى ارتداء البذلة ورباط العنق! ووجه المغضن، ومع هذا فهو وجه صبى دائم الابتسام. ويخرج منه صوت عميق يلقي بملاحظة

مرحـة.ورغم المظاهر، فهو يمتلك قدرة كبيرة على التحمـل فليـس هنـاك إلا القليل الذين يمكنهم أن يفعلوا نصف ما فعله خلال الأسبوعين الماضيين. ثـم يستمرون بنشاطهم العادي. فها هو، في السـاعة الأولى مـن الصبـاح يضحـك كما لو كان يصنع ثورة كل أسبوع.

اليوم السادس عشر – السبت الثانـي من ديسمبر:

حجرة خلفيه رثة بـها سـرير مكسـور في أحـد الجوانـب. وفوقـه نتيجـة معلقة علـى الحـائط عليـها صـورة فتـاة. فـي أحـد جوانـب الحجـرة الأخرى اجتمع محررو جريـدة "سـافيردات" الـتي سـتصبح علنيـة شـرعية حالا. وفي جانب ثالث: هافل وفرانتسيك يانوش رئيـس "مؤسسـة الميثـاق ٧٧" ومقرها أستكهولم. ومن فيينا الأمير كـارل فـون شوارتسـنبرج رئيـس "اتحاد هلسنكي الدولي" يرتدي جاكيت من التويد، ويدخن "البايب" علـى نمط شرلوك هولمز. تجمع توقيعات لتتحول الصحيفـة إلى الشـرعية. يكتـب الأمير ملاحظات عما سيحتاجونه. عند أحد النقاط يجري حديث عن تصريح مالي مطلوب. يخرج هافل قائمة بأسماء من حقيبته، مـن بينـها اسم وزيـر الماليـة، فيتسـاءل ضاحكـا: هـل يعرفـه أحـد؟ صمـت. فيعلـق الأمـير شوارتسنبرج بقوله: " أي بلد هذا الذي لا يعرف فيه أحد وزير المالية؟!".

وبطريقة فجائية يضع الناس شارات مكتوب عليها: "هافل رئيسا للجمهورية". يقال أن هذه الشارات مصنوعة في المجر. يقول هافل بخجل: "هل يمكن أن آخذ شارة؟". فتقدم له واحدة يضعها بسرعة في جيبه.

في المساء: احتفال على خشبه مسرح الفانوس السحري لشكر "هيئة المسرح" على المساعدات التي قدمتها. وابتداء من يوم الاثنين ستستأنف الحفلات المسرحية العادية. بعض خطب قصيرة، ثم تنطفئ الأنوار، ويشترك الجميع في غناء نشيد حماسي، رافعين أياديهم بعلامة النصر. أشاهد شخصا منفردا بنفسه في البهو. إنه فاسلاف هافل، يجلس على أريكة ويقول بثقة: "أنا منشغل بمفاوضات مهمة للغاية حول .. ." وفي هذه اللحظة تأتي فتاة جميلة للغاية تحمل زجاجة شمبانيا أخرى، وبعدها يصل شخص يحمل رسالة عاجلة. ثم فتاة جميلة أخرى.. . ثم الأمير شواتسنبرج. ولم اعرف أبدا حول ماذا كانت تدور المفاوضات.

اليوم السابع عشر: الأحد الثالث من ديسمبر:

مسرح آخر، واجتماع افتتاحي آخر. هذه المرة لـ "اتحاد الكتاب الجديد". في "المسرح الواقعي". يلقي هافل كلمة قصيرة، وينسحب. ولكنهم يجرونه مرة أخرى لخشبه المسرح قائلين انه لابد وأن يكون رئيسا للاتحاد الجديد. انتخب بالإجماع بالمناداة باسمه. وهو يسرع إلى الميكروفون ويقول:

" شكرا، شكرا". ويبدي أسفه لاضطراره إلى الإسراع بالذهاب .. ... إذ سيتم الإعلان عن تشكيل حكومة أداميتس الجديدة.

والتشكيل سيئ للغاية أيضا. فبعد موافقة أداميتس على تشكيل "وزارة تحالف عريض من خبراء"، وبعد إلغاء البند القائل بالدور القيادي للحزب من الدستور، شكل حكومته وبها ستة عشر وزيرا من عشرين، من أعضاء الحزب الشيوعي. وهو ليسوا خبراء، وبعض الشخصيات سيئة السمعة، مثل جارومير جوهانس وزير الخارجية. الأمر غير مقبول على الإطلاق.

اجتماع "لجنة إدارة الأزمة" بحجرة التدخين. ما الذي يجب عمله؟ البعض يقول أن "المنبر" ينبغي أن يصمم على ما يريده الشعب، بوضوح: حكومة خبراء حقيقية برئاسة كوماريك. يقول آخرون أن ذلك مستحيل، وأن كوماريك ليس الرجل المناسب. ويشير البروفيسور جيبسنيسكي المحامي الدستوري، إلى أن المنبر في وضع خطر لأن يحصر نفسه في مأزق دستوري، لأنه إذا لم نقبل الحكومة، ثم طالبنا باستقالة الرئيس بحلول يوم الأحد القادم، فقد ينتهي الأمر بعدم وجود أي سلطة دستورية في البلاد سوى البرلمان القديم الفاسد. وينتهي حوار مشوش باتفاق عام على أن يطالب "المنبر" بإعادة تشكيل الحكومة، وأن تتم مساندة هذا المطلب بمظاهرة بميدان وينتسيسلاس بعد ظهر الغد، والتهديد بإضراب عام

يوم الاثنين. ويختار بيتر بيتهارت - وهو إحدى الشخصيات الرئيسية الآن - لإعلان رد فعل "المنبر" على التليفزيون في المساء، ويشترك معه طالب وممثل، وبيتر ميللر ليضيف عضلات العامل. يسرع الأربعة إلى غرفة الملابس لوضع مسودة ما سيقولونه، بالاشتراك مع المخطط الأول هافل. الآن، ليس هناك شمبانيا وردية ولا ضحك. فالأمر غاية في الجدية.

ولكن في وقت تال في المساء، جاءت لحظة إن لم تكن للضحك، فهي على الأقل لتذرف دمعة هادئة. هناك كونسيرت "حفل موسيقي" : "لكل الذين يفكرون جيداً"، كونسيرت أقيم للاحتفال بالثورة. وعندما تظهر مارتا كوبيتشوفا على المسرح، بتصفيق متواصل لا يقدم إلا للأداء البارز العظيم. لكن النظارة لم يصفقوا لغنائها، بل .. . لصمتها. عشرون عاما من الصمت. لأن مارتا كوبيتشوفا، وهي واحدة من أكثر مغنيات الستينات شعبية، وبطلة شعبية من أبطال ١٩٦٨، لم يسمح لها بالأداء المسرحي في بلدها منذ عام ١٩٧٠. وعندما ينتهي التصفيق أخيراً، تقدم لها فتاة صغيرة باقة من الزهور، زهرة عن كل عام لم تقدم فيه فنها. ومارتا كوبيتشوفا سيدة ذات جسم نحيل، في بداية منتصف عمرها، طفت عليها مشاعرها لدرجة أنها لم تستطع أن تتكلم، دعك من أن تغني. وتهمس متأثرة في الميكروفون: "شكراً .. شكراً". ثم تغني "الزمن يتغير ... الزمن آخذ في التغيير". إنها لحظة

بهجة حقاً، لكنها أيضا لحظة حزن. لأن الأغاني التي تغنيها هي بالنسبة لمعظم النظارة، تاريخ قديم: أغاني الستينات.

اليوم الثامن عشر : الأحد ٤ ديسمبر

الساعة الثالثة وخمس وأربعين دقيقة بعد الظهر: ميدان وينسيسلاس. رغم البرد الجليدي ستكون المظاهرة ضخمة وناجحة. يتدفق الناس على الميدان ببطء وثقة، كما لو كانوا يفعلون ذلك لسنوات. وبعد الساعة الرابعة بدقائق يبدأون بتسخين أنفسهم بالهتافات المعتادة: "حانت الساعة"، "الاستقالة". وتهتز حلقات المفاتيح وهم يهتفون على أصواتها: "يعيش الطلبة" و "يعيش الممثلون". هل هناك أي مدينة أخرى في العالم يمكنك أن تسمع فيها مثل هذه الهتافات؟. ثم يأتي المتحدثون الرسميون، أعني المتحدثين الرسميين – غير الرسميين، يقرأون ببطء بيانات معقدة مليئة بالاختصارات: م.م " الخ. ومع ذلك يهتف المتجمعون "عاش المنبر" .. . تأييد للإضراب العام يوم ١١ ديسمبر. ويقرأ راديم باولوس الاقتراح بإلغاء عضوية الأعضاء السيئي السمعة والموصومين في البرلمان الفيدرالي، وبالذات "ياكيش". فترتفع من الجميع أصوات الصفافير وصيحات الاستهجان والاستنكار. وهذا ما يحدث عند قراءة قائمة البلطجية: فوتجيك، إندرا، بيلاك. وتهتف الجماهير: "فليطردوا". ويأتي صوت من أحد الأركان "افعلوا مثلما فعل الألمان". [جاءت أخبار صباح ذلك اليوم بأن ايريك

هونيكر وصحبه قد طردوا من الحزب، ووضعوا تحت الإقامة الجبرية في منازلهم]. ولكن "مثل الألمان" ليس الكيفية التي يريد بها "المنبر" سير الأمور. انهم يريدون أن يفعلوها "مثل التشيك"، أي بلطف وتسامح، وبدون كراهية ولا انتقام.

وأخيرا يأتي صوت فاسلاف هافل، الواضح وضوح الجرس، يقرأ بيان "المنبر": المطالبة بانتخابات حرة في نهاية يونيو ١٩٩٠ كآخر موعد، مع إشارة جديدة إلى أن المنبر سيقترح أو يؤيد مرشحين، وتشكيل حكومة ائتلاف حقيقية حتى يوم الأحد، وإلا سيقدم المنبر مرشحه هو. ويعلن "المنبر المدني" ٢٧ وشقيقه في سلوفاكيا "الجمهور ضد العنف" PAV أنهما ضامنان للتحول إلى دولة ديموقراطية مؤسسة على حكم القانون. تهتف الجماهير: "يعيش المنبر". ثم يتقد نجم "البوب "كارل جوت والمغني المنفي كاريل كريل ليقودا الجماهير وهي تغني النشيد الوطني: الكوبليه الأول بالتشيكية والكوبليه الثاني بالسلوفاكية.

أصعد الطريق عائداً إلى فندقي، حيث أشاهد في التليفزيون أخبار قمة مالطا الناجحة، واجتماع ميخائيل جورباتشوف بزعماء حلف وارسو في موسكو، ثم اجتماعه على انفراد بأوربانك وآداميتس. ثم تقرير عن إلقاء القبض على الزعماء الشيوعيين في ألمانيا الشرقية. ثم خبر ساخن: دول حلف وارسو الخمس التي قامت قواتها بغزو تشيكوسلوفاكيا عام ١٩٦٨،

تعلن رسميا رفضها وتنديدها للغزو وتصفه تدخلاً في الشئون الداخلية لتشيكوسلوفاكيا.

هكذا يستطيع أي تلميذ أن يرى الاتجاه الذي تهب فيه الريح في الخارج. وليس هناك شك في أن هذا سيكون أسبوعا مليئا بالمفاوضات المتوترة العويصة. لكن من الصعب رؤية ماهية البديل الذي تقدمه السلطات عدا تقديم تنازلات أبعد. إنها محصورة - أي السلطات - بين مطرقة الثورة الشعبية، وسندان محتوى خارجي تحوّل تماما، ترمز إليه قمة مالطا، والتصريح الصادر عن اجتماع حلف وارسو. وهكذا من يالتا إلى مالطا بالنسبة للعالم، ومن هوساك إلى هافل بالنسبة لتشيكوسلوفاكيا.

تمشية في الليل المتأخر في شوارع المدينة القديمة التي يلفها الضباب. بعد عشرين عاماً طويلة، يستيقظ الجمال النائم لوسط أوروبا. الملصقات المرتجلة في نوافذ الحوانيت تستحق مقالاً في حد ذاتها. إنها تقول "الوحدة قوة"، و "أيها الشعب، افتح عينيك". و "قلب أوروبا يصرخ من أجل الحرية".

عند هذه النقطة كان على "المنبر" أن يترك "الفانوس السحري"، وكان عليّ للأسف أن أترك براغ. سيكون الأسبوع الثالث على الأرجح بنفس أهمية الأسبوعين الماضيين ولكن سيكون على شخص آخر أن يكتب يوميات دراماياته الداخلية. في يوم الثلاثاء، كانت هناك محادثات أخرى غير

قاطعة مع آداميتس. ويوم الأربعاء هدّد بالاستقالة. ويوم الخميس استقال بالفعل. طلب الرئيس جوستاف هوساك من نائب آداميتس السابق، ماريان كالفا – وهو سلوفاكي – تشكيل حكومة جديدة. قال "المنبر" أنه قد يتمكن من الوصول إلى اتفاق مع كالفا، وقدم بعض الاقتراحات لمجلس الوزراء الجديد. (منذ أسبوع كانوا قد قالوا أنهم لا يتطلعون لأي منصب وزاري، ولكن أسبوعاً في سياسات ثورية هو وقت طويل للغاية).

تبع ذلك محادثات "مائدة مستديرة" بين ممثلي جميع الأحزاب الرسمية أهمها بطبيعة الحال الحزب الشيوعي، ووفده برئاسة فاسيل موهوريتا، و"المنبر المدني" ووفده برئاسة فاسلاف هافل، و"الجمهور ضد العنف" ووفده برئاسة جان كارنو جوريسكي. وكما حدث في بولندا، كان جانبان في "المائدة المستديرة" في حقيقة الأمر. وإذا كانت محادثات "المائدة المستديرة" في بولندا قد استغرقت شهرين، ففي تشيكوسلوفاكيا لم تستغرق سوى يومين وفي الموعد النهائي الذي حدده "المنبر" بالضبط، يوم الأحد ١٠ ديسمبر، اليوم العالمي لحقوق الإنسان، عين جوستاف هوساك الوزارة الجديدة، ثم استقال كرئيس للجمهورية.

قرأ فاسلاف هافل أسماء الوزراء في الوزارة الجديدة أمام الجماهير

المهللة بميدان ونسيسلاف. كانت كلها تقريبا أسماء قدمها "المنبر". تحول جان كارنوجوريسكي في ظرف أسبوعين من سجين سياسي (من "سجناء الضمير") ينتظر الحكم عليه حكما مشددا إلى نائب أول لرئيس وزراء تشيكوسلوفاكيا (وهما نائبان لرئيس الوزراء) المسئول جزئيا عن جهاز الأمن الذي طارده وأضطهده هذه المدة الطويلة... ولم يستطع الجانبان الاتفاق على اسم وزير للداخلية، وكحل وسط فإنه سيشارك ماريان كالفا رئيس الوزراء، والنائب الأول الأخر لرئيس الوزراء، وهو صديقنا القديم رئيس المتنبئين الدكتور والتر كوماريك - الحاصل على دكتوراه في العلوم - سيشاركهما في مسئولية وزارة الداخلية. وسيكون لكوماريك المسئولية العليا عن السياسة الاقتصادية، وسيكون تحته عضوان آخران من معهده: فلاديمير دلوهي، وهو عضو في الحزب الشيوعي، مثله مثل كوماريك. وكما هو متوقع عين ألفريد ماني اللامع فاسلاف كلاوس وزيرا للمالية وهكذا يمكن أن يرتاح الأمير فون شوارتسنبرج الآن فالكل يعرف وزير المالية!.

وكما في الروايات والقصص الخيالية، انتقل جيري دينيسبيتر من عمله كوقاد إلى منصب وزير الخارجية. ويماثل ذلك في العجب، أن ميروسلاف كوس، الفليسوف السلوفاكي المعروف وأحد الموقعين على "الميثاق ٧٧"، والذي طرد من الحزب الشيوعي بعد الغزو السوفيتي مثله مثل عشرات آلاف آخرين، تولي مسئولية "المكتب الفيدرالي للصحافة

والإعلام"، وأصبح بيتر ميللر العامل، وزيرا للعمل والشئون الاجتماعية، وحصل كل حزب من الحزبين الدمى والذين استقلا حديثا، وهما "الحزب الاشتراكي" و"حزب الشعب" اعلي منصبين في الوزارة. ورغم أن رئيس الوزراء ظل من الحزب الشيوعي، إلا أن ثماني وزراء آخرين فقط - من مجموع واحد وعشرين وزيرا، كانوا أعضاء في الحزب. ومن بين الوزراء الثمانية كان هناك وزيران هما: كوماريك ودلوهي، محسوبين على "المنبر" أكثر من كونهما محسوبين على الحزب الشيوعي.

كان نصرا غير عادي، تم بسرعة لا تصدق. وقد ألغى الإضراب العام الذي كان مزمعا القيام به في اليوم التالي، بطبيعة الحال، وبدلا من ذلك انطلقت "صفافير" المصانع وأجراس الكنائس تدق معا. وفي الأسبوع التالي، كان كلاوس وكارتو جوريسكي يعلنان عن تغييرات مالية وقانونية، لتبدأ مسيرة البلاد في طريق "اقتصاد السوق" و "حكم القانون": الطريق الذي بدا أنه خلق من العدم في تلك الحجرات المليئة بالبخار، حجرات الملابس وردهات الفانوس السحري، منذ أسبوعين فقط.

في يوم الأحد التالي، كان جيري دينيستبير، يقطع الأسلاك الشائكة على الحدود التشيكوسلوفاكية - النمساوية، ممسكا بمقص ضخم مع زميله الواس موك وزير خارجية النمسا. وقام الطلبة بمظاهرة، ساروا بها في نفس الطريق بالضبط الذي ساروا فيه في اليوم الأول منذ شهر واحد.

في هذه المرة لم يتعرض لهم رجال بوليس مسلحين بـالهراوات، لم يتعـرض لهم أحد من الخونات البيضاء، ولا نوى البيريهات الحمراء، لأنــه في هـذه المرة، كان البوليس تحت سيطرتهم، بالمعنى الحقيقي للكلمة.

وكما حـدث في بولنـدا والمجـر، كـان أحـد الأسـئلة البـارزة هـو انتخاب رئيس جديد. وقرر "المنبر" بسـرعة أن يكـون فلاسـلاف هـافل هـو مرشحه للفترة الانتقاليـة حتـى إجـراء انتخابـات حـرة، وانـه يجـب أن ينتخب في أقرب وقت ممكن، عن طريق البرلمان الفيدرالي. وبالمقابل اكتشـف الحزب الشيوعي فجأة حبا مشبوبا للديموقراطية، إذ قال أن الرئيس القـادم ينبغي أن ينتخـب بالاقـتراع الشـعبي المباشـر، وهـذا يسـتغرق وقتـا أطـول لتنظيمه. وكان الحزب يأمل من وراء ذلـك أن يخسـر هـافل بـهذه الطريقـة [ولنلاحظ أن الحزب المجري حاول أن يلعب نفـس هـذه اللعبـة بـالضبط]. وكان هناك أيضا تحركات جانبية فيما يخص اختيار وضع مناسب لألكسندر دوبتشيك، بأهميته كشخصية لعبـت دورا تاريخيـا، وكشـيوعي إصلاحـي، وليس بأقل أهمية كسلوفاكي. وحلت المسألتان بسرعة بإجراء مفاوضات بـين "المنبر" و"الحزب الشيوعي"، وبين هافل، ودوبتشيك شـخصيا. اتفـق فيـها على أن الكسندر دوبتشيك ينبغي أن يكـون رئيسـا لــ "المجلـس الفيـدرالي" (البرلمان) وأن فاسلاف هافل ينبغي أن يصبح رئيسا للجمهورية. وكان علـى

"الحزب الشيوعي التشيكوسلوفاكي" أن "يبتلع" الرجلين: "رجل ١٩٦٨" و "رجل ١٩٨٩".

في يوم ٢٨ ديسمبر انتخب "المجلس الفيدرالي" الكسندر دوبتشيك رئيسا للبرلمان. وفي اليوم التالي ٢٩ ديسمبر وبوجود دوبتشيك في مقعد الرئاسة، تم في احتفال "بقاعة التتويج" بـ "قلعة براغ"*، انتخاب فلاساف هافل رئيسا لما يزال يسمى "جمهورية تشيكوسلوفاكيا الاشتراكية". وتبع ذلك قداس مهيب في الكاتدرائية قام به الرجل الذي قال عنه فاسلاف مالي إنه "الرمز العظيم الثالث" لتلك الأحداث: الكاردينال فرانتسيك توماشيك. وفي المساء أقيم حفل ساهر كبير، رقص الناس في الشوارع: لقد أصبح لهم رئيس محرر ثان للجمهورية يجلس في مقعد مازاريك.

وكانت هناك، بطبيعة الحال، مصاعب لا حصر لها في الطريق إلى الانتخابات الحرة التي تقرر إجراؤها في يونيو ١٩٩٠. ومع ذلك، فقد بدا انه ما لم تعترض البلاد كارثة داخلية أو خارجية ضخمة، فإنها منطلقة في نفس الطريق الذي انطلقت فيه بولندا والمجر وألمانيا الشرقية، وربما بلغاريا ورومانيا، ولكنه طريق خاص معقد. الطريق من الشيوعية إلى الديموقراطية. لقد حدث الاندفاع؛ وزخم السير في هذا الطريق.

---

* "قلعة براغ" هي مقر رئاسة الجمهورية

أصبحت الأيام "العشرة" .. "أربعة وعشرين" وما رويته هو جزء صغير من القصة، وإن كان جزءا محوريا. وسيكون هناك أجزاء كثيرة حيوية أخرى، سيكون على آخرين روايتها: مثلا القصة من جانب الحزب - الحكومة، وحقيقة تفصيلات المفاوضات نفسها وكيف سارت. وما زال الوقت قريبا لكتابة "حسابات الموازنة"، ولكن هذا لا يمنعنا من محاولة كتابة بعض التأملات المبدئية.

لماذا حدث ما حدث في نوفمبر؟

في رأيي أن السؤال الحقيقي هو: لماذا لم يحدث ما حدث، من قبل؟ فتشيكوسلوفاكيا تاريخيا كانت أكثر الدول ديموقراطية قبل الحرب العالمية الثانية، وجغرافيا تقع براغ غربي فيينا العاصمة النمساوية، وثقافيا هي مدينة وسط - أوروبية. وفي عهد جوستاف هوساك، اتسعت الفجوة بين أرض الواقع، وأرض الوضع القانوني السيريالي الأكذوبة. وخلال السنتين الأخيرتين، نما عدد المستعدين للمخاطرة لكي يتمكنوا من التعبير عن آرائهم الحقيقية، نموا ذا مغزى: مئات الآلاف وقعوا علي عريضة "الحرية الدينية"، وأربعون ألفا وقعوا بيان "عدة جمل". الطلبة والممثلون. وعندما بدأت التحولات تأخذ مجراها في الجارتين بولندا والمجر، شعر المرء أن المسألة مسألة وقت قبل أن تتحرك الأمور في تشيكوسلوفاكيا.

وهكذا كان. تحركت ألمانيا الشرقية أولا. وإذا ما سأل المرء، لماذا سارت الأمور في تشيكوسلوفاكيا بهذه السرعة؟ لأتت الإجابة البسيطة بأن التشيك جاء دورهم بعد ألمانيا الشرقية، التي كانت القشة التي قصمت ظهر البعير، ولنتذكر أن أحداث ألمانيا الشرقية لم تشاهد على شاشة التليفزيون فقط، ولكنها شوهدت أيضا في براغ نفسها، حيث تدفق الألمان الشرقيون الهاربون على سفارة ألمانيا الغربية. لقد استفز الكبرياء الوطني. وشجع ميخائيل جورباتشوف التغيير السريع، بوضوح. كان الجميع مستعدين: ابتداء من النظارة "بالمسرح الواقعي" ببراغ الذين هبوا - يوم السبت الأول - واقفين يصفقون مرحبين بنداء الممثلين للقيام بإضراب عام، إلى الجماهير بميدان وينسيسلاف وهي تهتف "حانت الساعة"، إلى الصحفيين الذين بدأوا يكتبون على الفور التقارير الصحفية الصادقة، إلى العمال الذين لم يترددوا أبدا في القيام بإضراب ... كان الجميع مستعدين، كان الجميع قد عرفوا من تجارب جيرانهم أنه في الإمكان "فعلها".

وزيادة على ذلك، قدم لهم جيرانهم بعض الأفكار عن "كيفية فعلها". وبمعنى حقيقي كانت تشيكوسلوفاكيا هي المستفيدة، وما حدث فيها كان في النهاية حصاد عملية تعليم وسط - أوروبية، عملية استيعاب استمرت عشر سنوات كانت بولندا هي الأولى، لكنها هي التي دفعت أبهظ ثمن. إضراب احتلالي طلابي؟ بالطبع، كما حدث في بولندا. "عدم العنف" ؟

انه الوصية الأولى لكل حركات المعارضة بوسط أوروبا. الأحزاب الدمى تعود الى الحياة؟ كما حدث في ألمانيا الشرقية. "مائدة مستديرة" للتفاوض على المرحلة الانتقالية ؟ كما حدث في بولندا والمجر. وهكذا فسياسيا كان لتشيكوسلوفاكيا ما يسميه المؤرخون الاقتصاديون "ميزة التخلف". انه يمكنهم التعلم مما حدث للآخرين، ويمكنهم أيضا أن يتعلموا من أخطائهم هم أنفسهم.

ومع ذلك، فعندما يذكر كل ذلك، فليس هناك أحد في براغ يستطيع مقاومة الشعور بأنه لابد وإنه كان هناك عامل ما فوق مستوى العقلانية، ساعد على ما حدث. قال البعض مثلا أنها "آجنس أوف بوهيميا". وقال آخر في مقابلة صحفية: "إن العالم أجمع يتحرك من الديكتاتورية إلى الديموقراطية". وثالث يعتقد أنها "الملائكة". على أية حال إن اختيار هذا العامل فوق العقلاني أمر يعود إلى الاختيار الشخصي.

وإذا كانت هناك ملائكة تعمل، فقد كانت هناك شياطين أيضا. لقد شاهد المرء أكثر من مرة كيف زحفت شياطين الطموح والغرور والتكبر والفساد. داخلة "الفانوس السحري". على انه إذا أخذنا الأمور برمتها، فقد كان "المجلس المركزي" للمنبر في أراضي التشيك هيئة مؤثرة. كان ديموقراطيا إلى الدرجة التي يمكن توقعها، عقلانيا في ظل الظروف القائمة. أظهر عبقرية في تدبير الأمور، وتميز بالمزاج الطيب. ووضعت كافة

الخلافات السياسية في إطارها السياسي، ووضعت العقائد والمواقف في المكان الثاني، بعد الصالح العام. وحدث توازن معقول بين الحتميات السياسية والضرورات الأخلاقية. وفوق كل شئ استطاع الذين حرموا لمدة عشرين عاما من ابسط أسس إمكانية التغيير السياسي، أن يتجمعوا سويا، ليقولوا في أيام "هذا ما نريده. هذا هو وجه تشيكوسلوفاكيا الجديد الذي نريده". وهو وجه يستحق الدراسة.

ومع ذلك، كانوا محظوظين. فحتى بالمقارنة مع حركات المعارضة في بولندا والمجر وألمانيا الشرقية، كان ما حدث في تشيكوسلوفاكيا من فعل هواة سياسيين. جاءت لحظات عديدة في الأسبوع الثاني، شعر فيها المرء أنهم ضلوا الطريق في خليط المطالب: الرمزية والسياسية، مطالب الحد الأقصى ومطالب الحد الأدنى. وقد يبدو نسيان أجهزة القوة مثل وزارتي الدفاع والداخلية في نقاش حول الوزارة الجديدة، يبدو أنه إهمال كبير لعين الملاحظ الناقد. ثم عندما يلقي بالسؤال في اليوم التالي مباشرة في خطاب كتب على وجه السرعة، قد يبدو لنفس الملاحظ الناقد أن هذا مسرح وليس سياسة. لكن هكذا كانت فترة المد الشعبي. وهكذا كانت ملائمة الرياح الخارجية، بحيث انتهى كل شئ نهاية صحيحة.

"يا لتعاسة ذلك البلد الذي يحتاج إلى بطل" هكذا يصيح جاليليو في مسرحية برتولد بريخت. يا لتعاسة البلد الذي يحتاج إلى ثورات. فلمدة

عشرين عاما، بل ومن نواح كثيرة لمدة أربعين عاماً، كانوا مفقودين حقاً. حياة تحطمت، ودمار تم لا يمكن إصلاحه بأي حال. ولكن إذا فرض على بلد أن يخوض ثورة، فمن الصعب تخيل ثورة أفضل من تلك التي خاضتها تشيكوسلوفاكيا: سريعة، بدون عنف إطلاقا، ذات بهجة ومرح: ثورة ضاحكة حدثت دون أن تصاحبها أزمة اقتصادية، مثلما حدث في بولندا والمجر. وزيادة على ذلك، ولأن التغيير جاء سريعا للغاية - في ظرف شهر كان دلوهي وكوماريك وكلاوس في الحكم فعلا، يأخذون الخطوات اللازمة- كان لتشيكوسلوفاكيا فرصة حقيقية لعبور الانتقال الأكبر: من الديكتاتورية إلى الديموقراطية، ومن "الاقتصاد المخطط" إلى "اقتصاد السوق"، بآلام اقتصادية أقل نسبيا من تلك التي عاناها جيرانها، وإن كنت أؤكد على كلمة "نسبية".

وهكذا، في وقت عيد الميلاد، كانت الصور الماثلة أمامي وأنا أفترق عن براغ، هي صور السعادة. السعادة الجماعية كما رأيتها في ميدان وينسيسلاف، وصور السعادة على وجوه أفراد عرفتهم. تذكرت صورة بافل وهو يخطط لـ "هيئة تشريعية" من مجلسين في كوخ الوقاد الذي يسكنه، وتذكرت بيتر الذي أعطى فرصة كتابة فصل جديد أخير في تاريخ تشيكوسلوفاكيا، سينشر بطريقة قانونية.

عام الحقيقة

هذا هو العام الذي ماتت فيه الشيوعية في أوروبا الشرقية ١٩٤٩-١٩٨٩.

وهذا الشيء الذي أقيم على الأراضي المرسومة مجدداً لبولندا وتشيكوسلوفاكيا والمجر ورومانيا وبلغاريا، وجمهورية ألمانيا الديموقراطية التي خلفت بعد عام ١٩٤٩، ذلك الشيء الذي أطلق عليه -طبقا لوجهة نظر ذلك الذي يسميه- "الاشتراكية"، أو "الشمولية"، أو "الستالينية"، أو "دكتاتورية المكتب السياسي البيروقراطية"*، أو "الاشتراكية الحقيقية الكائنة"، أو "رأسمالية الدولة"، أو "دكتاتورية ما فوق الاحتياجات" أو بحياد شديد "النظام على النمط السوفييتي" إن ذلك الشيء لن تقوم له قائمة على الأرض بعد الآن أبدا. وقد نستمر في الجدل فنقول انه إذا لم يعد في استطاعتنا الحديث عن الشيوعية، فإنه بالمثل لم يعد في استطاعتنا الحديث عن شرق أوروبا كشيء مختلف عن باقي أوروبا. وبدلا من ذلك سيكون الحديث - مرة أخرى جغرافيا - عن وسط أوروبا، وشرق أوروبا الوسطى، وجنوب شرقي أوروبا، وشرق أوروبا، وسيكون التشديد في كل هذه الحالات

* جعل منها المؤلف تعبيرا كان يكتب من قبل وهو: Polit bureaucratic dictatorship - المترجم

على أوروبا وليس على الموقع. وستعود لنا، فوق كل شيء، شعوب وأمم ودول متفردة.

وبالتأكيد، وحتى بدون حدوث انعكاس سياسي - عسكري داخل الاتحاد السوفييتي، فسيكون هناك بؤس وصراعات ومظالم أخرى فوق تلك الأراضي، ولكنها ستكون مختلفة: جديدة وقديمة، ما بعد شيوعية، ولكنها أيضا ما قبل شيوعية. وفي أسوأ الحالات سيتربع دكتاتوريون جدد، ولكنهم سيكونون من نوع مختلف. فلن نرى مرة أخرى ذلك النظام بالذات المتميز بتركيز القوة السياسية والاقتصادية وأدوات القمع في يد حزب لينيني واحد يتجلى اجتماعيا كطبقة جديدة مميزة، في دول ذات سياسة محددة قسراً.

وإذا سرنا في شوارع براغ أو وارسو أو ليبزج، فمازلنا نستطيع مشاهدة البقايا الغبراء - الرمادية - المعتادة: واجهات المباني الستالينية - الكلاسيكية - الجديدة في كل ميادين "النصر"، وشوارع وترسانات بحرية ومصانع صلب مسماة باسم لينين، وموظفون في منتصف العمر صلع جاهزون بأكاذيبهم المفبركة المعدة سلفا والاستمارات الرخيصة التي يجب أن تملأ من أربع صور، وطوابير، وموقف "نحن نتظاهر بأننا نعمل، وأنتم تتظاهرون بأنكم تدفعون لنا أجورنا". ومع ذلك يتم إزالة الأدلة المادية بسرعة لابد وأنها تسبب بعض القلق للمحافظين (هناك مشروع في بولندا للاحتفاظ بكل

الأشكال القديمة فيما يشبه حديقة للترفيه، والاسم المقترح لها: "أرض ستالين".

وإذا كان عام ١٩٨٩ هو النهاية، فما هي بداية النهاية؟ إذا قرأنا الصحف أو سمعنا السيدة مرجريت تاتشر (رئيسة وزراء بريطانيا) تتحدث، فسيعتقد المرء أن التاريخ بدأ مع السيد ميخائيل جورباتشوف، ومن الناحية المقابلة المتطرفة الأخرى، كان هناك من يقول أن الشيوعية في أوروبا كان مقضيا عليها بالفناء منذ مولدها. ويقدم هذا الافتراض بدوره في أشكال عديدة، فيمكن للمرء أن يقول أن الشيوعية لم تكن قابلة للتعايش مع الثقافة السياسية لشرق وسط أوروبا، رغم إنه ليس من الواضح تماما لماذا تتوقف هذه الثقافة السياسية توقفا اعتباطيا عند الحدود الغربية للاتحاد السوفييتي. وبدلا من ذلك يمكن للمرء أن يقول إن الشيوعية كانت فكرة مدهشة محكوماً عليها بالموت، لأن شعوب شرق أوروبا لم تجد الطريق إليها بنفسها، ولكنها فرضت عليها بواسطة قوة أجنبية، لم تفهم هي نفسها هذه الفكرة. أو يمكن للمرء أن يقول أن الشيوعية غير قابلة للتعايش مع الطبيعة البشرية، وكفى. لقد كان الموت مكتوبا مع شهادة الميلاد، سواء بسبب التشوه - الوراثي، أو بسبب الولادة المتعسرة بالقيصرية. وقد يشير البعض في البلاد المعنية، بين هذين الموقفين المتطرفين، إلى "فرص مفترضة مختلفة فاتت"، أو إلى "نقاط تحول"، فشل تاريخ أوروبا الشرقية في أن يتحول

عندها. وعام ١٩٥٦، وكذا عام ١٩٦٨ هما أبرز عامين مرشحين من هذه الناحية.

وكما هي العادة، هناك عنصران من الصدق في كل هذه الادعاءات، رغم أنها توجد في واحدة أكثر من الأخرى. قال ونستون تشرشل مرة: "إنني لم اصبح رئيس وزراء الملكة لكي أصفي الإمبراطورية البريطانية"، وهو ما بدأ يفعله بالضبط. ولقد وصل ميخائيل جورباتشوف إلى السلطة قائلا انه سينقذ الإمبراطورية السوفييتية، وهو يتولى عملية تحللها. وكون موسكو سمحت للبلدان التي كانت تدور في فلكها بأن تقرر الكيفية التي تريد أن تحكم بها نفسها، كان بوضوح شيئا مفروغا منه. لكننا لا يمكن أن نفهم عمليات "تقرير المصير" لكل دولة منها عن طريق دراسة السياسة السوفييتية. ذلك أن الأسباب تكمن في مكان أخر: في تاريخ كل بلد بعينه، في تفاعله مع جيرانه الأوروبيين من الدول الشيوعية، وفي تفاعله مع أوروبا الأكثر حرية والأكثر رخاء والتي توجد إلى الغرب والشمال والجنوب.

وإذا كان علي أن أذكر تاريخا معينا "لبداية النهاية" في ذلك التاريخ الداخلي لأوروبا الشرقية، فسيكون يونيو ١٩٧٩. وقد يبدو من هذا أنني متأثر أكثر من اللازم ببولندا، ولكنني أومن أن الحج الأول العظيم الذي قام به البابا جون بول لبولندا كان "نقطة التحول". فهنا رأينا للمرة الأولى الوحدة الوطنية - الاجتماعية تظهر بشكل ضخم مستمر، سلمي

ومنضبط رغم ذلك: جماهير هائلة - هادئة ضد الحزب - الدولة. ولقد كان هذا في نفس الوقت هو السمة المميزة، والحافز المحلي الجوهري. على التغيير الذي حدث عام ١٩٨٩، في كل بلد من بلدان أوروبا الشرقية فيما عدا رومانيا (وحتى في رومانيا لم ينبع العنف أصلاً من الجماهير). وولدت "تضامن" بعد زيارة البابا بعام واحد. ومن المشكوك فيه أن "تضامن" كانت ستوجد لو لم تتم زيارة البابا لبولندا.

كان نموذج "تضامن" يتضمن بذور تطور المستقبل. فقد كان هذا النموذج رائدا لنوعية جديدة من السياسة في أوروبا الشرقية وحقيقة الأمر أنه لم يكن جديداً في أوروبا الشرقية وحدها: سياسة للتنظيم الاجتماعي الذاتي، وللتفاوض على التحول عن الشيوعية. فقد كان اللاعبون والقضايا المثارة والأشكال فيما بين عامي ١٩٨٠ و ١٩٨١ في بولندا، شيئا مختلفا في الأساس عن أي شيء شوهد في أوروبا الشرقية فيما بين عامي ١٩٤٩ و ١٩٧٩. ومن نواحي كثيرة، كانت نذيرا بما شاهدناه في دول أوروبا الشرقية كلها عام ١٩٨٩. ولو كانت هناك أية حقيقة في هذا الحكم، لقلنا أن هناك حكمة مناسبة على وجه الخصوص في تقابل الزعيم الروسي والبابا البولندي. فقد بدآها هما الاثنان، كل بطريقته الخاصة وبأسلوبه المختلف.

على أننا إذا أردنا أن نقدم في تاريخ أوروبا عاما نقارن به عام ١٩٨٩، فمن الواضح أن علينا أن نعود إلى الوراء، أكثر بكثير من عام ١٩٧٩،

أو حتى ١٩٤٩. فهل يكون ذلك التاريخ هو عام ١٧٨٩ في فرنسا؟ أم عام ١٩١٧ في روسيا؟ أو عامي ١٩١٨ و ١٩١٩ في أوروبا الوسطى؟ لكن عام ١٩١٨- ١٩١٩، كان نهاية الحرب العالمية الأولى. ربما كان أقرب نظير لذاك العام هو ١٨٤٨. انه هو بكل تأكيد: ربيع الأمم. إن المقارنات التي تكتب في عدة صفحات، لابد وأنها لا تزيد عن كونها رياضة ذهنية. لكنها مثل كل الرياضات الذهنية، لابد وأن تكون مسلية، وقد تساعد في بعض الأحيان على تركيز الذهن والفكر.

١٨٤٨ طبقا ل: أ.ج.ب.تايلور انفجر هذا العام بعد أربعين عاما من السلم والاستقرار. بينما يصف لويس نامبير ذلك العام وصفا أكثر تحديدا بأنه "نتاج ثلاث وثلاثين عاما خلاقا للسلام الأوروبي، سلام تم الحفاظ عليه بعناية مقصودة، على أساس مضاد للثورة". ويكتب نامبير: "لقد ولدت الثورة من الآمال، بمثل ما ولدها السخط". ولا شك انه كانت هناك خلفية اقتصادية – واجتماعية: محصول سيئ، وطاعون البطاطس، "..لكن العامل المشترك كان أيديولوجيا". ويقتطف نامبير من أحد أقوال الملك لويس فيليب المنفي، انه استسلم "لتمرد أخلاقي"، ويقتطف كذلك قول الملك غليوم ملك ورتمبيرج للسفير الروسي جوركاكوف بشتوتجارت: "لا أستطيع أن أمتطي حصاني محاربا الأفكار". وأطلق نامبير على مؤلفه العظيم عن "١٨٤٨": "ثورة المثقفين".

اندلع عام ١٩٨٩ من "احتفالات بأربعين عاماً" من السلام والاستقرار في أوروبا. هل نتذكر احتفالات "الناتو" بالذكرى الأربعين لإنشائه في شهر مايو. ففي أوروبا "يالتا"، كما كان الحال في أوروبا "فيينا" في القرن الماضي، كان السؤال الذي يتردد دائما هو : "سلام واستقرار ..لمن؟". لقد شعر الناس العاديون في أوروبا الوسطى والشرقية بالوجه السيئ لذلك السلام وذلك الاستقرار. وإذا دققنا الحسابات، فقد نخفَض الأربعين عاماً إلى ثلاثة وثلاثين، لأنه ربما تأكد القادة السوفييت تماماً فقط بعد سحقهم للثورة المجرية عام ١٩٥٦، أن الغرب لن يتدخل عسكرياً ليحدث اضطراباً في ذلك السلام الذي تم الحفاظ عليه بعناية على أساس من "الثورة المضادة".

ثورة نبعت من "الأمل"، كما نبعت من "السخط"؟ نعم مرة أخرى بكل تأكيد، ذلك أن السخط الاقتصادي كان موجودا بطريقة غالبة في بولندا وفي رومانيا، وكان موجودا باستمرار، وكان موجودا في كل دول أوروبا الشرقية وإن كان بطريقة أقل درامية. فقد استعار المؤرخ فريتز ستيرن، فيما يتعلق بهذا، ما قاله ميرابو في أعقاب "الثورة الفرنسية": "إن عجز الأمة، هو كنز الأمة". وإذا ما استبدلنا كلمة "الديون بالعملة الصعبة" محل كلمة "عجز" التي جاءت في كلام ميرابو، لأكتشف المرء أحد الأسباب الرئيسية في أن بولندا والمجر هما اللتان بدأتا الطريق في النصف الأول من عام ١٩٨٩.

ولكن خلافاً لبولندا في أغسطس ١٩٨٠، فلم يكن الوضع الاقتصادي هو الذي فجّر الاحتجاج الشعبي في دول أوروبا الشرقية عام ١٩٨٩، بل كان الآمال السياسية، والغضب الهائل من القمع الذي حاولت هذه النظم أن تحاصر به هذه الآمال.

ويمكن تسمية ثورة ١٩٨٩ أيضا "ثورة المثقفين" مثلها مثل ثورة ١٨٤٨. وبكل تأكيد كان استعراض العضلات العمالية في موجتي إضرابات عام ١٩٨٨، هو الذي دفع بالشيوعيين البولنديين إلى "المائدة المستديرة" الأولى عام ١٩٨٩. وبكل تأكيد كانت الجماهير في مظاهرات الشوارع في كل دول أوروبا الشرقية الأخرى هي التي أنزلت الحكام القدامى من عليائهم. لكن سياسات الثورة لم تكن من صنع العمال أو الفلاحين، بل كانت من صنع المثقفين: الكاتب المسرحي فاسلاف هافل، والمؤرخ برونيسلاف جيريميك والمتخصص في تاريخ القرون الوسطى، والصحفي الكاثوليكي تاديوش مازوفييسكي، والرسام باريل بوهلي من برلين (الشرقية)، وقائد الأوركسترا كورت مازور من ليبزج، والفيلسوفان يانوش كيش وجاسبار ميكلوش تاماس من بودابست، والبروفيسور بيتر رومان أستاذ الهندسة والشاعر ميرسيا ذينسكو من بوخارست. مضت أيام الشاعر شيللي، وأصبح الشعراء هم المشرعون المعترف بهم في العالم. كانت الجماهير في ميدان وينسيسلاف تهتف: "يحيا الطلبة" و "يعيش الممثلون". ويمكن مقارنة

البنيــة الاجتماعيــة لمنــابر المعارضـــة ["المنـــبر الجديـــد"، و "المنـــبر الديموقراطي"، و "المنبر المدني"] وأحزابها ومرشحيها للبرلمانات الجديدة، بالبنية الاجتماعية لبرلمان فرانكفورت أو الكونجـرس السـلافي في بـراغ عـام ١٨٤٨.

فكمـا هـو الحـال عـام ١٨٤٨، كـان العـامل المشـترك أيديولوجيـاً. فالتاريخ الداخلي لتلك الثورات هو تاريخ مجموعة من الأفكار حان وقتـها، ومجموعة من الأفكار ولّى زمانها. وقد تبدو هذه المقولة عجيبة، مـن النظـرة الأولى، أفلم تتوقف الأيديولوجيــة عـن أن تكـون قـوة دافعـة، منـذ سـنوات مضـت؟ فبكـل تـأكيد لم يعـد الحكـام يصدقـون أي كلمـة مـن اللغـو الــذي يرددونه، ولم يعودوا حتى يتوقعون من رعاياهم أن يصدقوه، بـل ولا حتـى يتوقعون من رعاياهم ان يعتقدوا أن الحكام يؤمنون به. ومن المحتمل أن هذا صحيح في معظم الحالات، رغم انه ما من أحد يعلم ما الذي يؤمن بـه بصـدق عجوز مثل ايريك هونيكر، وهو شـيوعي منـذ شـبابه المبكـر. (لا يجـب أن يغمط الإنسان أبداً القدرة الإنسانية على خداع النفس).

ومع ذلك فأحد الأشياء الـتي أظهرتـها تلـك الثـورات، هـي مـدى أهمية ذلك القناع الرفيـع المتبقـي مـن الأيديولوجيـة. إن قليـلا مـن الحكـام يرضى بالقول ببساطة: " نحن نمسك بالمدفع وأنتم ليس لديكم مــا تمسـكون به" ! أو "نحــن نمسـك بالسـلطة لأننـا في السـلطة". فالأيديولوجيــة وفـرت

الشرعية المتبقية، وربما حتى مكنت الحكام وخدامهم السياسيين - البيروقراطيين - على الأقل جزئيا - من خداع أنفسهم حول طبيعة حكمهم. وفي نفس الوقت، كانت الأيديولوجية شيئاً حيوياً لشغل الرأي العام - لاحتلاله - واستمرار هذا "الاحتلال". كان الجمع بين الرقابة على النشر واحتكار الحزب - الدولة لكل وسائل الإعلام، هما اللذان وفرا جيش ذلك "الاحتلال" - بالألفاظ والكلام- وكانت الأيديولوجية في صورتها الروتينية المتدنية لنشر الأخبار، هي ذخيرته. فمهما كانت بنى الكذب المنّظم تلك محتقرة وفاقدة لمصداقيتها، فقد استمرت تؤدي مهمة مانعة حيوية: أنها لم تعد تعبئ أحداً، وإن استمرت تمنع التعبير العام عن آمال مشتركة وحقائق عامة والصدق.

وزيادة على ذلك، فإنه حين كان النظام يطلب من المواطن العادي إبداء علامات على التواؤم معه، كان قد تمكن بذلك بطريقة ما، من توريط المواطن العادي معه. ومن السهل الآن أن ننسي انه حتى "ما قبل أمس" كان أهالي ألمانيا الشرقية وتشيكوسلوفاكيا يعيشون حياة مزدوجة، ما يصرحون به علنا، غير ما يبطنونه وما يقولونه في جلساتهم الخاصة. لقد كان ذلك موضوعاً أساسياً لأعمال فاسلاف هافل في العقد الماضي وهو موضوع أعاد تناوله في رسالته التي وجهها إلى شعبه كرئيس للجمهورية بمناسبة العام الجديد ١٩٩٠. كان أسوأ شيء، كما قال، "هو الجو الأخلاقي المدمّر.

كنا جميعاً مرضى أخلاقياً، لأننا تعودنا جميعا أن نقول شيئاً، ونفكر في شيء آخر". وقال أيضاً: "لقد أصبحنا جميعاً متعودين على النظام الشمولي، وقبلناه كحقيقة لا يمكن تغييرها، لقد جعلناه يستمر ويستمر .. ولا يمكن أن يكون أحدنا مجرد ضحية لذلك النظام، لأننا جميعاً ساعدنا على خلقه". وكان هافل قد كتب من قبل "أن الخط الحرج للصراع لم يكن بين الشعب والدولة، بل كان يمر داخل كل فرد منا. فكل واحد كان ضحية النظام ونصيره في ذات الوقت". شاهدت لافتة فوق مذبح بإحدى كنائس برلين الشرقية تعبر عن الفكرة الأساسية السابقة نفسها، كانت تقول: "أنا قابيل وهابيل".

وحتى نتفهم ماذا كان يعني أن يقف إنسان عادي وسط جماهير محتشدة في ميادين مدن وسط أوروبا وينشد مع الجماهير الشعارات التلقائية الخاصة، علينا أولاً أن نقوم بمجهود تخيلي لكي نفهم شعورهم حين كانوا يضطرون إلى دفع الضريبة اليومية للنفاق العام. فعندما كانوا يقفون ويهتفون سوياً، فإنهم لم يكونوا يضمدون جراح مجتمعهم، وإنما كانوا يضمدون انقساماً في شخصياتهم. كان لكل شيء صلة بالكلمة، بالصحافة، بالتليفزيون، وكان له الأهمية الأولى لتلك الجماهير. كان "الاحتلال" القابل للاستمرار مؤذ لهم مثل الاحتلال العسكري. كان تنظيف البيئة اللغوية، بمثل حيوية تنظيف البيئة الطبيعية. وبالمثل كان الطابور الطويل الذي

يصطف كل صباح في ميدان وينسيسلاف، في الضباب الثلجي، من أجل صحيفة "العالم الحر"، هو واحد من أعظم المشاهد رمزية عام ١٩٨٩.

كان الشعار العام في تلك السنة - وليس في تشيكوسلوفاكيا وحدها، هو الشعار "الهوسيتي" القديم الذي تبنّاه مازاريك: " سيسود الصدق". وكما يتحدث الإنجليز عن "لحظة الصدق" بالنسبة لشيء ما، فقد كانت سنة ١٩٨٩ هي "سنة الصدق" بالنسبة للشيوعية. وهناك معنى حقيقي في أن هذه النظم عاشت بالكلمة، وماتت بالكلمة.

فبعد كل شيء، ما الذي حدث؟ إن آلافا قليلة ثم عشرات الآلاف، ثم مئات الآلاف نزلت إلى الشوارع، ولم ينطقوا إلا بكلمات معدودة. قالوا: "استقيلوا"، و"لن نعود عبيداً بعد الآن" و "انتخابات حرة" و "الحرية"، ثم سقطت أسوار أريحا. ومع سقوط الأسوار، انهارت الأحزاب الشيوعية، هكذا ببساطة وبسرعة مدهشة. فبنهاية عام ١٩٨٩، كان "حزب العمال الاشتراكي المجري" قد انقسم إلى قسمين وهجره أغلبية أعضائه نهائيا، وتبعه "حزب العمال البولندي الموحد" في يناير ١٩٩٠، وبعد ثلاثة أشهر فقد "الحزب الاشتراكي الألماني المتحد" في ألمانيا الشرقية دوره القيادي، وترك اسمه، ونصف عماله على الأقل. ويذكرنا العفن الداخلي لتلك الأحزاب بملاحظة ذكرها شاعر ألماني عام ١٨٤٨ "إن الملكية قد ماتت، رغم أن الملوك مازالوا يعيشون"!.

باستثناء نموذج رومانيا الصارخ الفريد، لم يكن هناك عنف مصاحب لكل تلك الثورات. فمثل "تضامن" في عامي ١٩٨٠-١٩٨١، كانت تلك الثورات مثالا للتناقض التاريخي في كلمتي "ثورة سلمية". فلم تقتحم حصون باستيل، لا ولم تنصب "جيلوتين"، ولم تستخدم أعمدة الكهرباء إلا لإضاءة الشوارع فقط. وكانت رومانيا وحدها هي التي شهدت الدبابات وفصائل الإعدام. أما في البلاد الأخرى، فقد كان العنف الوحيد هو ذاك الذي استخدم في البداية من جانب "البوليس". وضع المتظاهرون في براغ وبرلين الشرقية شموعاً مضاءة أمام البوليس الذي استجاب باستخدام الهراوات. ولم يكن نشيد المارسليز ١٩٨٩ يقول "إلى السلاح يا مواطنين"، بل كان يقول: "إلى الشوارع يا مواطنين". وتوجد تقاليد "عدم العنف" في تاريخ كل المعارضات الديموقراطية في وسط أوروبا وشرقها خلال الثمانينات. ويرجع ذلك جزئيا إلى أسباب برجماتية، فقد كان لدى الجانب الآخر كل الأسلحة. لكن الأمر يرجع أيضاً إلى أسباب أخلاقية. كان ذلك إعلانا من جانب المعارضة عما يجب أن تكون عليه الأمور. كانت المعارضة تريد أن تبدأ بنفس الطريقة التي تريد أن تستمر بها. فالتاريخ كما قال أدم ميتشنيك قد علمهم أن هؤلاء الذين يبدأون باقتحام الباستيل، سينهون ببناء باستيل جديد.

على أن الشيء الجدير بالملاحظة أيضاً، من وجهة النظر التاريخية، هو انعدام أي عنف مضاد لثورات ١٩٨٩، باستثناء رومانيا. لقد

سلك البوليس مسلكاً وحشياً في ألمانيا الشرقية وبالذات يوم العيد القومي [لجمهورية ألمانيا الديموقراطية في ٧ أكتوبر]. وحدث ذلك في تشيكوسلوفاكيا وبالذات يوم ١٧ نوفمبر. وفي بولندا استمر الانتشار المنظّم لقوي الثورة المضادة عبر سبع سنوات، منذ إعلان "حالة الحرب" يوم ١٣ ديسمبر ١٩٨١ وحتى ربيع ١٩٨٩. لكن ما أن أخذت هذه الثورات تشق طريقها، حتى انعدمت إجراءات القمع المضاد بشكل مدهش. فقال حكام أوروبا الشرقية الشيوعيون مثلما قال الملك وليم ورتمبرج: "لا أستطيع امتطاء فرسي ضد الأفكار". لكن هنا يجب على المرء أن يتساءل: "ولم لا؟ ..". إن جزءاً كبيرا من التاريخ الحديث لهذه البلدان ملئ بحكام امتطوا خيولهم ضد الأفكار، ويمتلئ منذ عام ١٩٤٥ بحكام امتطوا دباباتهم ضد الأفكار. وحتى عام ١٩٨٩ كانت أكثر الشعارات استخداما في المنطقة من بعض أبيات من قصيدة للشاعر البولندي سيسبريان نورفيد من القرن التاسع عشر:

جيوش ضخمة وجنرالات شجعان

شرطة سرية وعلنية، ومن الجنسين

فلمن تحتشد كل هذه القوات

ضد بضعة أفكار! .. . ليس هذا بالجديد

فلماذا إذن اختلف الوضع عام ١٩٨٩؟ يمكن اقتراح ثلاثة أسباب:
جورباتشوف، وهلسنكي، و"توكيفيل". فالخط السياسي الجديد للاتحاد السوفييتي الذي دشّنه جينادي جيراسيموف (المتحدث الرسمي - المترجم) يوم ٢٥ أكتوبر باسم "مبدأ سيناترا" - أي "فليعمل كل بطريقته" - بدلا من "مبدأ بريجينيف" كان جوهريا بشكل واضح. ففي ألمانيا الشرقية لم تقم موسكو بالتوضيح للقيادة الألمانية، أن القوات السوفييتية لن تستخدم في القمع المحلي فقط، بل ويبدو أيضاً أن موسكو عمدت أيضاً على ما يبدو أن توضح موقفها هذا للغرب وأهالي ألمانيا الشرقية على السواء. وفي تشيكوسلوفاكيا ساعد الاتحاد السوفييتي الثورة بأن أعلن عن شجبه لما حدث من "تدخل لقوات حلف وارسو عام ١٩٦٨". لقد استفادت شعوب شرق أوروبا قاطبة من الاعتماد المزمن للصفوة الحاكمة على الاتحاد السوفييتي، ذلك انه حين حرمت تلك الصفوة من عكازات الكلاشينكوف السوفييتية، لم تستطع الوقوف على قدميها. وكانت رومانيا هي الاستثناء الذي يثبت القاعدة. فليس من قبيل الصدفة أن تكون أجهزة الأمن في تلك الدولة الأكثر استقلالية عن موسكو ولهذا المدى الطويل، هي الأكثر شراسة ودموية واستمرارية.

ومع ذلك، فلا يكفي عامل "جورباتشوف" وحده لتفسير عدم استخدام تلك الصفوة الحاكمة لقوات الأمن التي كانت ما تزال قوية، للدفاع

عن "الخندق الأخير" لسلطتهم ومزاياهم الخاصة. فهل يكون من الخيال الجامح اقتراح أن تكرار الغرب لاتفاقيات هلسنكي لعب دوراً جزئياً على الأقل، في تصرفات السلطات الحاكمة ولولا ذلك لأصدروا أوامرهم بمواجهة المظاهرات بالعنف والقمع. ويتمثل "عامل هلسنكي" هذا في إصرار الغرب على اتباع أنماط دوليه معينة لسلوك كل دولة، وتوق حكام أوروبا الشرقية في نفس الوقت لاكتساب الاحترام الدولي، والصلة المحسوسة بين هاتين النقطتين وائتمانات العملة الصعبة التي تحتاج إليها هذه الدول بشدة. ومع ذلك، فلم يكن هناك ما يمنعهم من استخدام القمع إذا كانوا مازالوا مقتنعين بحقهم في الحكم.

لذا نقول أن العامل الثالث كان هو في النهاية العامل الحاسم، وهو العامل الذي تتسم به الأوضاع الثورية التي وضعها الكسيس دي توكفيل منذ أكثر من قرن مضى: ألا وهو فقدان الصفوة الحاكمة لإيمانها بحقها الخاص في الحكم. فقد خرج عدد من الصبية إلى الشوارع وصاحوا ببضع كلمات وضربهم البوليس فقال الصبية: "ليس لكم لدينا الحق في أن تضربونا"، ورد الحكام العتاة: "نعم ليس الحق في أن نضربكم، وليس لدينا الحق في الحفاظ على الحكم بالقوة، ولم تعد الغاية تبرر الوسيلة". والحقيقة أن الصفوة الحاكمة وخدامها المسلحّين وصموا أنفسهم بعدم استعدادهم للوقوف بأية حال للدفاع عما ادعوا لفترة طويلة أنهم يؤمنون به، ووصموا أنفسهم كذلك

بالعجلة التي أبدوها في تبني ما كانوا لفترة يندون به كـ "رأسمالية" و "ديموقراطية بورجوازية". فعبر أوروبا الشرقية كنت تسمع بهدوء حركة تغيير الجلود: فيوماً ينددون بليخ فاليسا، وفي اليوم التالي مباشرة يصفقون له، ويوماً يحتضنون ايريك هونيكر وفي اليوم التالي يسجنونه، ويوماً يصفون هافل بأحقر الصفات وفي اليوم التالي ينصبونه رئيساً للجمهورية.

أطلق على عام ١٨٤٨ "ربيع الأمم" أو "ربيع الشعوب"، وتكلم الثوريون في جميع البلاد باسم "الشعب"، لكن الصراع بين الأمم قديمها وجديدها حطّم التضامن الدولي للشعوب، بينما تحطم التضامن المحلي للشعب بيد الصراع بين المجموعات الاجتماعية، بما أصبح يطلق عليها اسم "الطبقات". كتب أ.ج.ب. تايلور: "إن الاشتراكية والقومية.. كقوتين جماهيريتين - هما نتاج عام ١٩٤٨". وعلى مدى قرن كامل بعد ١٨٤٨ وحتى حدث الغطاء الجليدي الشيوعي تحول وسط أوروبا إلى ميدان معركة للأمم والطبقات.

فماذا كان ١٩٨٩ ربيعاً له؟ ولمن؟ هل للشعب؟ ولكن بأي معنى؟ لقد هتفت أول تجمعات كبيرة للجماهير في ألمانيا الشرقية "نحن الشعب"، وفي بولندا والمجر ورومانيا وتشيكوسلوفاكيا غرقت الجماهير في بحر من الأعلام القومية، رفعوا عقيرتهم بالأناشيد القومية القديمة. وفي المجر ورومانيا قطعوا رموز الشيوعية من وسط أعلامهم. وفي ألمانيا الشرقية لم

تظهر في البداية أعلام ولم ترتفع أناشيد، لكن ظهرت الأعلام بعد ذلك بالتدريج: أعلام ألمانيا الغربية، ومن قبلها أعلام ألمانيا الموحّدة.

ويقرأ المرء في كل تعليق يكتب في الصحافة الغربية عن أوروبا الشرقية، عن احتمال انتعاش ما يسمى بـ "القومية" في تلك المنطقة. ولكن ماذا يعني هذا؟ هل يعني أن الناس أصبحوا يفخرون - مرة أخرى - بأنهم تشيك أو بولنديين أو مجريين أو ألمان؟ هل يعني أن القلوب ترفرف عند رؤية العلم القومي وأن الحناجر تنتفض عند غناء النشيد القومي؟

إن الوطنية ليست هي القومية. ولا يتضمن ما أعيد اكتشافه، بالضرورة، العداء لأمم أخرى. لقد كانت جميع تلك الحركات وبدون استثناء، وطنية، لكن لم تكن جميعها قومية. والحقيقة أن معظم النظم التي تولت السلطة بعد النظم الشيوعية كانت أقل قومية في خطواتها الأولى التي خطتها، بدرجة ملحوظة. فلقد أتبعت حكومة تاديبيش مازوفييسكي في بولندا أسلوباً أكثر ليبرالية وتنوراً بدرجة قاطعة في كل من المسألتين اليهودية والألمانية، مقارنة بأي حكومة سابقة، بل إنها تعرضّت للانتقاد من جانب الشيوعيين البولنديين بسبب المسألة الألمانية. وتعمد الرئيس فاسلاف هافل أن يشكر - في أول تصريح له - "جميع التشيك والسلوفاك والقوميات الأخرى. وتعرضت ملاحظته التي أدلى بها في وقت مبكر بأن تشيكوسلوفاكيا" تدين بالاعتذار لألمانيا لطردها ألمان السوديت بعد الحرب

العالمية الثانية"، لانتقاد شرس من الشيوعيين هي الأخرى. وفي رومانيا انطلقت شرارة الثورة عندما تضامن أهالي مدينة تيماشوارا الرومانيين مع مواطنيهم ذوي الأصل المجري. ولا يمكن - إلا بصعوبة شديدة - مجاراة سوء المعاملة التي تلقاها الأقليتان المجرية والألمانية في رومانيا في عهد نيكولاى تشاوشيسكو.

هناك أمثلة معاكسة لتلك التي قدمت بطبيعة الحال، فواحدة من أسوأ ملامح الثورة الألمانية على سبيل المثال، كانت تجاوزات التأييد الشعبي لحملة قام بها الحزب الشيوعي والحكومة ضد المهربين ونهازي الفرص من البولنديين، وكذلك الإساءات التي وجهت للطلبة الأفارقة والعمال الفيتناميين. ولم يكن الصراع الداخلي المرير في السياسات المجرية - من "المنبر الديموقراطي" والديموقراطيين الأخر، خال من تيار عرقي تحتي، عندما تساءل بعض زعماء "المنبر الديموقراطي" عن مدى "مجرية" بعض أعضاء "الديموقراطيين الأحرار". ورد هؤلاء على "المنبر" باتهامه بمعاداة السامية... وتظاهر آلاف البلغار ضد إعطاء الحكومة الجديدة، الأقلية التركية المسلمة حقوقها.

وإذا ما أمعن المرء النظر قليلا، فسيجد صراعات كامنة واضحة حول أقليات أخرى، وبالذات: المجريون في رومانيا،

والرومانيون في الاتحاد السوفييتي (مولدافيا)، والغجر في عديد من البلاد. هناك أيضاً استخدامات سياسية كامنة للشعور المعادي للسامية، وصعوبة في إيجاد توليفة تشيكية - سلوفاكية تماما في تشيكوسلوفاكيا. ثم هناك مشكلات الحدود القائمة، التي تقف وراءها جميعاً حدود ما بعد عام ١٩٤٥، مثل الحدود الألمانية - البولندية على خط الأودرنيس*.

ذلك تعتبر قائمة هذه المشاكل قصيرة نسبياً إذا ما قورنت بقائمة مشاكل أوروبا الوسطى عام ١٩٤٨ أو عام ١٩١٨، ١٩١٩. فمعظم الأمم لها دول خاصة بها ومعتادة على حدودها الجديدة. والخريطة من الناحية العرقية أكثر تجانساً بكثير مما كانت عليه عام ١٩٤٨ أو عام ١٩١٨. فكما لاحظ ايرنست جلنز فالخريطة الأن هي صورة رسمها موديلياني وليس كوكوشكا [الرسامان الرئيسيان بالطبع هما هتلر وستالين، وكانت فرشاة الرسم المستخدمة هي الحرب والإجلاء والقتل الجماعي]. وقد تنمو الصراعات القومية والعرقية مرة أخري بين تلك الدول وداخل كل منها، كما حدث في أوروبا الشرقية قبل الحرب العالمية الثانية، خاصة إذا ما تدهور

---

* تم الاتفاق على هذه الحدود كأحد شروط الوحدة الألمانية، عندما اعترفت ألمانيا الغربية بتلك الحدود - المترجم.

وضعـها الاقتصـادي. أو قـد يتـم تخفيـف تلـك الصراعـات القوميـة - والعرقيـة باسـتمرار كمـا حـدث في غـرب أوروبـا فيمـا بعـد الحـرب العالميـة الثانيـة، وبـالذات عندمـا يتحسـن الوضـع الاقتصـادي في الـدول المعنيـة في ثنايـا عمليـة تكاملـها في "السـوق الأوروبيـة المشـتركة" و "الجماعـة الأوروبيـة" الأكـبر. لكـن ينبغـي أن يظـهر السـجل التـاريخي أن عـام ١٩٨٩ لم يتمـيز بصراعـات قوميـة وعرقيـة حـادة في أوروبـا الشـرقية، غربـي حـدود الاتحـاد السـوفييتي، علـى العكـس مـن ذلـك تمامـاً، كـان عامـاً للتضـامن بـين أمـم المنطقـة وداخـل كـل دولـة منـها. وفي نهاية العـام سـاندت كـل دول شـرق ووسـط أوروبـا الـتي حـررت نفسـها، شـعب رومانيـا، مسـاندة رمزيـة وإنسـانية. ربيـع الأمـم إذن ليـس هـو بـالضرورة ربيـع "القوميـة".

لم يكـن أكـثر مـا يلفـت النظـر علـى أيـة حـال، هـو المشـاعر القوميـة، وهـو مـا كـان يمكـن التنبـؤ بـه بشـكل واضـح. وكـان أكـثر مـا يلفـت النظـر هـو الأفكـار والكلمـات الأخـرى الـتي استحوذت علـى أكـبر اهتمام. ففـي بولنـدا الـتي توصـم في أحيـان كثـيرة بأنـها قوميـة أكـثر مـن الـلازم، لم تكـن الكلمـة الـتي اسـتخدمت في أكـثر الأحيـان لتصـف الشـعب في تعارضـه مـع السـلطات هـي "الأمـة البولنديـة" بـل "المجتمـع البولنـدي". واسـتخدمت كلمـة "المجتمـع" في تشيكوسـلوفاكيا بطريقـة

مناسبة. رغم أن ذلك كان في أحيان أقل. وهنا لا يمكن أن تكون كلمة المجتمع معادلة أو بديلة ببساطة لكلمة "أمة" لأن المسألة تتعلق بأمتين. وكان مما له مغزى في كلتا الحالتين، الحديث عن تقرير المصير القومي. وتم التأكيد في كل مكان - بشكل واع مقصود - على وحدة الأنتليجنتسيا والعمال والفلاحين. ولقد خلق هذه الوحدة، بشكل جزئي، العدو المشترك. وعندما انكسرت السلطة الشيوعية، وبدأت السياسات البرلمانية الحقيقية، تم حوار صحي حول المصالح الاجتماعية المتعارضة. وهكذا لم تكن أكثر المجموعات تميزاً وتصميماً في البرلمان الأوروبي الجديد هي "تضامن" أو الشيوعيين، ولم تكن اليسار ولا اليمين، بل كانت مجموعات الفلاحين والزراعيين من كل الأحزاب. يجتمعون معاً ويتشاورون لتقديم مصالحهم الفئوية.

ورغم هذا فالانقسامات الاجتماعية ليست بنفس عمق انقسامات القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين، ولم تقوّض الثورات الجديدة. وهنا تكمن مفارقة تاريخية، فقد خلقت الشيوعية - إلى حد كبير - وحدة اجتماعية ساهمت بطريقة حاسمة في انهيار الشيوعية. فقد نتج عن الجمع بين المساواة المقصودة والسخافات غير المقصودة، توزيع للثروة عبر المجتمع كله، توزيع لم يكن مستوياً بقدر ما كان بلا أي أساس. فأستاذ الجامعة قد

يكسب أقل من عامل مناجم. والمهندس قد يكسب أقل من الفلاح. والسباك الذي يملك بضعة دولارات أو ماركات في حال أفضل من أمير لا يملك عملة صعبة على الإطلاق. والعامل يسكن في نفس المنزل الذي يسكنه الطبيب أو المهندس أو الكاتب. هذا في نفس الوقت الذي كان يجمعهم كلهم الإحساس بالفارق العظيم بينهم وبين الطبقة الحاكمة الشيوعية - النومينكلاتورا. وكان يطلق على جميع أفراد هذه الطبقة الحاكمة في كل هذه البلدان كلمة "هم" أي أوني oni [وهي كلمة أصابتها الشهرة على إثر نشر كتاب تيريزا تورانسكا الذي يضم مقابلات مع ستاليني بولندا]. كانت الطبقة الحاكمة متميّزة بملابسها وسياراتها السوداء -ذات الستائر المسدلة على نوافذها- ومحلاتها ومستشفياتها الخاصة، بل ولغتها وسلوكها. وعندما طلب من الجماهير المحتشدة في براغ أن تخلي الطريق لسيارة إسعاف، فعلوا ذلك وهم يهتفون: "نحن لسنا مثلهم!.. نحن لسنا مثلهم"!.

وفي نفس الوقت كان هناك مستوى عال بدرجة ملحوظة من الوعي السياسي الشعبي. ومرة أخرى كان ذلك يرجع، بشكل جزئي، إلى النظام الشيوعي نفسه. فلدى الجميع التعليم الأساسي على الأقل، وكان ذلك التعليم مصبوغاً بصبغة سياسية عالية منذ اليوم الأول. وكان رد فعل البعض على صبغ التعليم بهذه الصبغة السياسية، هو التصميم على الانسحاب إلى حياة خاصة، وعدم تسيّس منهجي. ولكن لم يكن هناك شك في أن الأفكار

والكلمات لها أهمية كبرى ونتائج حقيقية للحياة اليومية، بسبب تسييس التعليم وذيوع الأيديولوجية.

وهناك مفهوم لعب دوراً أساسياً في تفكير المعارضة في الثمانينات. إلا وهو مفهوم "المجتمع المدني". كان عام ١٩٨٩ هو ربيع المجتمعات التي تتوق لأن تكون مدينه. وقد لا يعجب المنظّرين السياسيين هذا المفهوم البدائي الذي يفكر فيه الرجال والنساء العاديين، عن ماهية بناء "مجتمع مدني". لكن نوعاً من ذلك المفهوم كان موجوداً، ويتضمن العديد من المطالب الأساسية. فيجب أن تكون هناك أشكال للمجتمع على المستوى القومي والإقليمي والمحلي والمهني، ولابد وأن تكون نابعة من الناس، تطوعية وصادقة وديموقراطية أولاً وأخيراً. ليست محكومة ولا مسّيرة من قبل الحزب أو الحزب- الدولة. ويجب أن يكون الناس "مدنيين" أي: مهذبين، متسامحين، وفوق كل شيء لا يستخدمون العنف، مدنيين ومتمدنين، يجب أخذ فكرة المواطنة بكل جدية.

تمكنت الشيوعية من تسميم كلمات كثيرة في التيار الرئيسي للتاريخ الأوروبي، ليس أقلها، كما بيّن هذا الكتاب مراراً، كلمة "الاشتراكية". ولكنها بطريقة ما لم تستطع تسميم كلمة "مواطنة" وكلمة "مدني" رغم أنها استخدمتهما بأساليب منحرفة. فالشيوعية تناشد المسئولية المدنية للمواطنين وهي تعني بالنسبة لها "أن إهدأوا، ودعونا

نتعامل مع أولئك الطلبة المتعبين" أما لماذا لم تتمكن من تسميم هاتين الكلمتين فليس لدى إجابة جاهزة، لكن الحقيقة انه حين أرادت مجموعة "تضامن" البرلمانية تسمية مجموعتهم، أطلقوا عليها "نادي المواطنين" البرلماني، وأطلقت الحركة التشيكية على نفسها اسم "المنبر المدني"، وعندما بدأت مجموعات المعارضة في ألمانيا الشرقية عملها وصفت نفسها بـ "المبادرة المدنية" [في حالة ألمانيا الشرقية كان الاسم في الحقيقة مستورداً من ألمانيا الغربية، ولكن تظل الحقيقة أنها استوردت هذا الاسم وليس غيره]. كانت لغة المواطنة مهمة في كل تلك الثورات، فقد شبع الناس من كونهم مجرد تروس في مجتمع مفكك عمداً إلى جزئياته: لقد أرادوا أن يصبحوا مواطنين، رجالاً ونساء متفردين ذوى كرامة ومسئولية، لهم حقوق ولكن عليهم أيضاً واجبات، يتشاركون بحرية معا في مجتمع مدني.

وهناك نقطة أخيرة عن الوصف الذاتي للثورة، ربما تستحق الذكر. فكما لاحظ رالف داهيرندوف، على غموض التعريف الألماني الذي يمكن أن يترجم إما إلى "المجتمع المدني" أو "المجتمع البرجوازي"، فقال إن ماركس دمج عن قصد دائرتي العصرية، ثمرتي الثورتين الصناعية والفرنسية: البورجوازي والمواطن. وقد تذكرت هذه الملاحظة حين دعا متحدث في إحدى الاجتماعات الجماهيرية بليبزج إلى "التضامن مع حركة البورجوازية في تشيكوسلوفاكيا. الحركة البورجوازية! ولكن حين يتأمل

المرء المسألة، يجد صدقاً أعمق في إساءة التسمية الظاهرية تلك. لأن ما كانت تقوله معظم حركات المعارضة في كل دول وسط وشرق أوروبا، والمؤيدين لها، : نعم ماركس كان على حق، فالشيئان متصلان بطريقة وثيقة، ونحن نريد كلاهما: الحقوق المدنية، وحقوق الملكية، الحقوق الاقتصادية والحرية السياسية، الاستقلال المالي والاستقلال الفكري. كل منها يؤيد الأخر. فنحن نريد أن نكون مواطنين، ولكننا أيضاً نريد أن نكون من الطبقة الوسطى. نريد أن نكون مواطنين وبرجوازيين. توم بين وأيضاً توماس مان.

وهكذا كان ١٩٨٩ ربيعاً للأمم، ولكن ليس بالضرورة للقومية، ربيعا للمجتمعات التي تتوق لتصبح مجتمعات مدنية، وكان فوق كل شئ ربيعا للمواطنين.

غيّر ربيع المواطنين وجه أوروبا بالفعل. وما بدا ممكناً في بداية ١٩٨٩، بدا مؤكدا عند بداية ١٩٩٠. ستكون هناك أوروبا جديدة ولن تعود "يالتا" هي الرمز الماضي لها. ستكون فيها مكانة مختلفة للبلدان التي كانت توصف قبلا بأوروبا الشرقية. ولسوف تكون فيها على الأقل ألمانيا الأقل تجزئة.

لقد انتهى عام ١٨٤٨ نهاية سيئة بسبب الجمع بين قوى الرجعية الداخلية والخارجية. على أن القوى الخارجية كانت هي الحاسمة. أما في بداية ١٩٩٠، فلم تكن هناك قوى رجعية خارجية يمكن مقارنتها بالقوي

الرجعية عام ١٨٤٨ فلم يقم البروسيون بثورتهم الخاصة ولم يسحقوا ثورات جيرانهم. ولم يقمع النمساويون ثورة الإصلاح المجرية، بل ساعدوها عام ١٩٩٠. وماذا عن الروس؟ هنا كان التحول بمثابة معجزة إلى الدرجة التي أشار فيها رسميون أمريكيون وبريطانيون إلى أنهم يرحبون بتدخل عسكري سوفييتي يسحق "كتائب الموت" التابعة للسيكيوريتات في رومانيا. ولكن كلا... ففي رومانيا كما في تشيكوسلوفاكيا، وفي المجر كما في بولندا وبلغاريا، لبس القادة والمعلقون السوفييت لباس القديسين فقالوا أنهم لم يحلموا أبداً بالتدخل في الشئون الداخلية لدولة أخرى ذات سيادة.

ومع ذلك، لم تقف الحركة الشعبية لتقرير المصير الاجتماعي والوطني، عند الحدود الغربية للاتحاد السوفييتي. فقد شجّع ما حدث في أوروبا الشرقية دول البلطيق، هذا إذا لم نذكر الرومانيين في مولدافيا السوفييتية. وماذا لو بدأت الأرضية السياسية تتحرك في أوكرانيا؟ هكذا كان من الممكن أن نتصور حدوث رد فعل عكسي داخل الاتحاد السوفييتي في بداية ١٩٩٠. ومن المنطقي أن تشك إذا ما حاولت قيادة عسكرية في موسكو أن تستخدم القوة المسلحة لاسترجاع السيادة الروسية غرب الحدود السوفييتية لعام ١٩٤٥. ألن يكونوا مشغولين بما فيه الكفاية بالحفاظ على الإمبراطورية الموجودة داخل الحدود السوفييتية لفترة ما بعد الحرب الثانية؟ وإذا قرروا غزو إحدى بلدان أوروبا الشرقية، فمن المنطقي أن يقوموا بغزوها جميعاً.

وعندئذ... ماذا سيستعيدونه؟ هل هي تلك الكيانات المحطمّة التي كانت بالأمس الأحزاب الشيوعية في شرق أوروبا؟ من الواضح أن حدوث أي عملية معاكسة من جانب الاتحاد السوفييتي كان سيجعل الحياة أقل راحة بكثير في أوروبا الجديدة، وسيؤثر مباشرة على تطورات في ألمانيا مازالت محتلة جزئياً بقوات سوفييتية. ولا يكفي هذا في حد ذاته لإرجاع الخريطة إلى ما كانت عليه قبل ١٩٨٩.

وهناك أسئلة لا تحصى يجب أن تسأل حول أوروبا الجديدة تلك. ومن الواضح أن أكثر تلك الأسئلة إلحاحاً هو: كيف يستطيع الغرب أن يساعد في تحريك دولة شيوعية سابقة إلى ديموقراطيات ليبرالية؟! وأسأل نفسي سؤالاً أقل وضوحاً، ليس كيف نستطيع مساعدتهم، بل كيف يمكن أن يساعدوننا؟ ما الذي يستطيع أن يأتي به مائة مليون أوروبي شرقي، خاضوا تجربة صعبة على مدى أربعين عاماً، إلى أوروبا الجديدة، وإلينا في الغرب؟ ابتهج التشيك بالإشارة إلى أن ٨٩ هي ٦٨ مقلوبة (باللاتينية). لكن إحدى الاختلافات الملحوظة بين عامي ٦٨ و٨٩، هي عدم وجود مفكرين غربيين مكتشفين في هذه المنطقة العجيبة ليوتوبيات جديدة: "اشتراكية ذات وجه إنساني"، و"الطريق الثالث" الأسطوري.

وهناك بطبيعة الحال تشكيلة كاملة من أحزاب وبرامج واتجاهات جديدة. ولسوف يكون من سوء التصرف أن نسند إليها رسالة واحدة. ولكن

إذا ما فحص المرء ما تقوله تلك الأحزاب المختلفة عن القضايا الأولية للسياسة والاقتصاد والقانون والعلاقات الدولية، فسيجد إجماعاً تحتياً جديراً بالملاحظة. ففي السياسة تقول: ليس هناك ديموقراطية اشتراكية، بل هناك ديموقراطية فقط. وهي تعني بالديموقراطية ديموقراطية برلمانية متعددة الأحزاب، مثلما تمارس في أوروبا الغربية والشمالية والجنوبية المعاصرة. وهي تقول ليس هناك شرعية اشتراكية، وإنما هناك شرعية فقط، وهي تعني بذلك حكم القانون الذي يضمنه استقلال القضاء المثبت دستوريا. وهي تقول – وربما كان ذلك القول بالنسبة لليسار أهم إعلان: ليس هناك "اقتصاد اشتراكي"، وإنما هناك اقتصاد فقط. والاقتصاد لا يعني اقتصاد سوق اشتراكي، وإنما اقتصاد سوق اجتماعي، ليس اقتصاد أوتاسيك، وإنما اقتصاد لودفيج ايرهارد. بالطبع هناك اختلاف كبير في تلك البلدان بين الفريد مانيين والهايكسيين على سبيل المثال. وقد يذكر كينز بالخير. لكن الاتجاه العام واضح وضوحاً مطلقاً: في اتجاه اقتصاد آليته السوق، به ملكية خاصة واسعة المدى لوسائل الإنتاج والتوزيع والتبادل. ويفرض التحول إلى مثل هذا النظام مشاكل فريدة ينبغي البحث لها عن حلول أصيلة. ومازال هناك تأييد واسع الانتشار في معظم تلك البلاد لتوزيع الثروة بشكل متساوٍ نسبياً، وهي الثورة التي تخلق بالطريقة المذكورة التي يطبق بها الاقتصاد؛ وكذا الدولة رعاية اجتماعية قوية. لكن النموذج الأساسي في تلك الجوهريات الثلاث

للسياسة والقانون والاقتصاد هو بين ذلك الموجود في سويسرا والموجود في السويد.

وتبدو السويد الآن كالمثال المقبول تقريباً من جميع من يسمّون أنفسهم اشتراكيين، من برلين إلى فلاديفوستوك. لكن إذا ما عاد ماركس ثانية، أفلن يصف النموذج السائد للإنتاج في السويد بالرأسمالية؟ وبكلمات أخرى، تبدو أن المقولة الأساسية لليسار لم تعد أفضل وسيلة لإنتاج الثروة، بل أفضل وسيلة لتوزيعها – (ويأتي النقد الأكثر أساسية للأشكال الناجحة للإنتاج، من "الخضر" ولكن ليس من الاشتراكيين).

ومن الواضح أن الدولة في بلدان أوروبا الشرقية، ستلعب دورا أكبر مما تلعبه معظم بلدان أوروبا الغربية، لسنوات قادمة، لأسباب عملية وتاريخية محضة. لكن ذلك لا يعني بالضرورة أن الشعب يريدها أن تفعل ذلك، على العكس من ذلك: فقد عانوا من تدخل الدولة كل ذلك الوقت الطويل، وقد يقررون أنهم يريدون قدراً أقل من تدخل الدولة. وليست استطلاعات الرأي العام والمسح الاجتماعي ذات فائدة هنا، لأن معظم الناس لم يكادوا أن يبدأوا في التفكير في تلك المسائل، دعك من مواجهتها في الواقع الصعب للتحول الاقتصادي. ويبدو لي الحظر المعاكس بين المثقفين الذين بدأوا يجابهون تلك المسائل: أي النظر إلى "السوق الحر" كعلاج لكل

الأمراض الاجتماعية والسياسية والاقتصادية. ومن هنا تنبع شعبية هايك. ويكاد المرء أن يقول أن "السوق الحرة" هي أحدث يوتوبيا في وسط أوروبا.

ومن السهل أن ننسى الآن أن الشيوعية لم تجد أشكالاً أحدث وأفضل من الاقتصاد والسياسة، فحسب، بل أيضاً وسائل أحدث وأفضل لتنظيم الأمور فيما بين الدول. وأطلق على ذلك الأسلوب الجديد اسم "الأممية الاشتراكية"، التي وضعت مقابل "القومية البورجوازية"، على أن ما حدث في الممارسة هو تصاعد "القومية الاشتراكية" و"الأممية البورجوازية" وأصبح هناك صيغاً متعددة "للأممية البورجوازية": "صندوق النقد الدولي" و"حلف شمال الأطلنطي" (الناتو)، و"الجات" و"أوسيد" و"الدول السبع". أما في المحتوى الأوروبي فقد كانت "السوق الأوروبية المشتركة" هي أهم صيغة منها. وهناك مقترحات أكثر من أن تحصى الآن لتحقيق أشكال جديدة للعلاقات بين الدول في أوروبا الشرقية، سابقاً، ولكي نعطي حتى ولو مثلاً واحداً، فقد أحيا سياسيون بولنديون فكرة تشكيل اتحاد فيدرالي بين بولندا وتشيكوسلوفاكيا. لكن لو سأل المرء عن النموذج التحتي للعلاقات الجديدة بين تلك الدول، ولحل صراعاتها القومية والعرقية والاقتصادية القائمة فالإجابة الواضحة هي: "السوق الأوروبية المشتركة".

ولا يعني هذا، فقط، انهم يريدون الانضمام إلى "الجماعة الأوروبية" القائمة انضماماً كاملاً بأسرع طريقة ممكنة، بل يعن أيضاً انهم يأملون في إمكانية أن تحل صراعاتهم وعداواتهم بنفس الأسلوب الذي حلت به مثلاً الصراعات بين ألمانيا وفرنسا. وهذا الموقف ينطبق، على ما يبدو لي، حتى على تلك المجموعات التي لا تعترف اعترافاً قاطعاً بالنموذج الخاص "بالجماعة الأوروبية" كنموذج يحتذى. وفي الحقيقة أن المرء يجد صعوبة بالغة ليجد في أوروبا الغربية، أوروبيين متحمسين مؤيدين لجماعة أوروبية فوق القومية تسمى "أوروبا الموحدة"، على عكس أوروبا الشرقية، التي تمتلئ بهم. وأثناء سفرياتي بين قسمّي القارة المقسمّة، اعتقدت في بعض الأحيان أن الانقسام الحقيقي هو بين أولئك الذين "لديهم" أوروبا في الغرب، وأولئك الذين يؤمنون بها - في الشرق. والجملة التي يستخدمها الناس لتلخيص الموضوع، في كل مكان من بلدان أوروبا الشرقية هي: "العودة إلى أوروبا".

وهنا أكرر السؤال: ما الذي يستطيع هؤلاء المتحمسين أن يأتوا به إلى أوروبا الجديدة؟ ذلك أنني إذا كنت على حق في تحليلي الأساسي فانهم لا يستطيعون تقديم أي أفكار جديدة أساسية في القضايا الكبرى للاقتصاد أوالقانون أو العلاقات الدولية. فالأفكار التي حان وقتها هي أفكار قديمة عادية اختبرت من قبل (الأفكار الجديدة هي التي مضى وقتها!). فهل

يمكن أن تكون مشاكلهم الفريدة هي التي يقدمونها لنا. مشاكلهم التي تجذب الاهتمام من الناحية النظرية وإن كانت ثقيلة الوطأة من الناحية العملية؟ هل يقفون على الباب كشحاذين يحملون روايات عن الوقت الذي ضاع؟ أم يحملون في طيات أثمالهم كنوزاً مخبأة؟.

خلال سفرياتي عبر تلك المنطقة في العقد الماضي، وجدت كنوزاً: أمثلة من شجاعة أخلاقية وتكامل فكري عظيمين. رفعة وسمو، صداقة عميقة، حياة أسرية، زمان ومكان لمناقشات جادة وللموسيقى والأدب، لا تقاطع بالضوضاء المستمرة لعالمنا الذي تقوده وسائل الإعلام، والمقلق بطريقة مبالغ فيها بالاتصالات التليفونية والإذاعات التليفزيونية. مسيحية في شكلها النقي الأصلي، نوعيات من العلاقات بين رجال ونساء من خلفيات مختلفة تماما وديانات كانت متعادية بشدة فيما سبق؛ وروح رائعة للتضامن. هنا تصبح مخاطرة وضع الأمر في شكل مثالي عاطفي مخاطرة شديدة، لأن الزائر المميّز يتمتع بهذه المزايا دون أن يدفع الثمن. فليس هناك أي شك في أن أي حساب عملي أو كمي سيجد أن التكاليف كانت أعلى بكثير من المزايا. لكن سيكون من الأسوأ الادعاء بأن تلك الكنوز غير موجودة وغير حقيقة. لقد كانت حقيقية.

وبالنسبة لي يظل السؤال الأكبر بعد ١٩٨٩ هو: ما الذي سيبقى من هذه الأشياء الطيبة بعد التحرير، - هذا إذا بقي شيء!؟ وهل كانت

الجماعة السكانية جماعة تشترك في مصير واحد فقط لا غير؟ وهل كانت تلك الصفقات هي مجرد استخدامات لحظ معاكس؟.

وحتى إذا لم يحدث تراجع في الاتحاد السوفييتي، ولم يحدث رد فعل عنيف ولا تحول لا - ليبرالي في هذه أو تلك من بلدان شرق أوروبا، أفلن يكنس تلك الكنوز الاندفاع ناحية الثراء؟ فكما لاحظ صديق مجري: "لقد اجتزت أربعين عاماً من الشيوعية، ولكني غير متأكد من أنني سأجتاز عاماً واحداً من الرأسمالية". ولن يكون هذا التأثير هو فقط الصدمة المفتتة التي يسببها الاستهلاك المتزايد، أحد أقوى الأسلحة الرهيبة التي عرفها الإنسان. إنها ستكون الصدمة الأخشن والأسوأ في تأثيرها للتحول من "اقتصاد مخطط" إلى "اقتصاد سوق" بكل ما يصاحبه من ضربات: البطالة، وانعدام العدالة والمساواة، والاعتماد على العرض والطلب.

ولن يساعد التفكير المبني على التمنيات أحداً. وللأسف يمكن للمرء أن يرسم صورة مظلمة لآفاق أوروبا الشرقية، بدقة عالية من التحليل المنطقي: وهي صورة يبدو فيها المستقبل بعد - الشيوعي، شبيه لدرجة كبيرة بالماضي قبل - الشيوعي... منطقة من الدول الضعيفة المعتمدة على الغير، والمتميزة بالعداوات القومية وعدم المساواة والفقر. آنذاك ستبدو ١٩٨٩ لمن قاموا بها وللمؤرخين، نقطة مضيئة، قصيرة العمر، بين معاناة الأمس ومعاناة الغد.

وليس هذا المصير حتمي. أما هل يمكن تجنب هـذا المصير. فـهي مسألة تعتمد بدرجة كبيرة جدا على التزام وحـذق الغـرب عمومـا وأوروبـا الغربية على وجه الخصوص، وفوق كل شيء علـى ألمانيـا الغربيـة. وإذا مـا قمنا بصياغة مناسبة لقلنا أن الشكل الجديد لأوروبا الجديدة يعتمد علـى أن تظل ألمانيا غربية.

لكن .... حتى إذا تحققت مخاوف هذا المسـتقبل المظلـم، فسـيبقى شيء؛ على الأقل في الذاكرة والثقافة والروح. فعلى الأقل منحنا الأوروبيـون "هناك"، بوضوح وثبات نابعين من تجربة مريرة، إعادة صياغة القيـم الـتي نمتلكـها بـالفعل، لحقـائق قديمـة ونمـاذج اجتـازت الاختبـار، للأشـياء الجوهرية الثلاث: الليبرالية والديموقراطية والجماعـة الأوروبيـة بصفتـها الموطن الأوروبي الوحيد والموجود حقيقة. فعام ١٩٨٩ في شرق أوروبـا مكمّـل فكريا وروحيا لعام ١٩٩٢ في غرب أوروبا.

وكمـا يبـدأ آدم ميكيفـير قصيدتـه بـان تـادييش في أشـهر قصيـدة بولندية:

ليتوانيا يا أرض الأباء

إنك غالية مثل الصحة،

لا يقدرك حق قدرك،

إلا من فقدك!

فإذا ما وضعنا كلمة "أوروبا" محل كلمة "ليتوانيا" فقد نحصل على أعمق درس من عام العجائب: ١٩٨٩.

ملحق

يوجز التفسيرات النظرية للأحداث التي أفضت إلى سقوط الأنظمة (الشيوعية) في دول أوروبا الشرقية عام ١٩٨٩ عن مقال للمفكر الألماني جورجين هابرماس (في يونيو ١٩٩٠).

... صدرت تفسيرات متنوعة، ليست بين أية واحدة منها والأخريات مساحة مشتركة، للتغييرات [التي شهدتها دول أوروبا الشرقية في السنوات الأخيرة]، وسأقدم - فيما يلي - ستة نماذج لهذه التفسيرات التي راجت في المناقشات الدائرة. التفسيرات الثلاثة الأولى تُزكي الفكرة الاشتراكية، والثلاثة الأخريات تنتقدها. ويمكن ترتيب المجموعتين ترتيباً متقابلا على النحو التالي: التفسيرات الستالينية، واللينينية، والشيوعية الإصلاحية - من جانب - وتفسيرات ما بعد الحداثة، والمعادية للشيوعية، والليبرالية - من الجانب الآخر.

التفسيرات التصحيحية

يرى المبررون الستالينيون للأمر الواقع، وهم في هذه الأيام قليلون ومتفرقون، يرون أن هذه التغييرات ليست ثورية، بل إنها - في نظرهم - معادية للثورة، ويحاولون فرض شروح ماركسية فقدت القدرة على التأثير في مسار العمليات غير المألوفة لإعادة النظر والإصلاح. في وسط أوروبا وألمانيا الشرقية، كان قد ظهر - على نحو يزداد وضوحاً - أن من كانوا في القاع أصبحوا غير راغبين في استمرار الأوضاع على ما كانت عليه، كما أن من كانوا في القمة أصبحوا غير قادرين على الإبقاء عليها. كانت أجهزة أمن الدولة تواجه بغضب الجماهير (وليس بمجرد حفنة محدودة العدد من مثيري الشغب المستوردين)، تماماً كما سبق أن حدث (في الثورة الفرنسية)

حين توجه الغضب الجماهيري ضد الباستيل. كذلك جاء القضاء على احتكار الحزب لسلطة الدولة ليبدو كشبيه بإعدام لويس السادس عشر.

كانت الحقائق واضحة إلى درجة لا يستطيع أشد اللينينيين تشددا تجاهلها. هكذا قدم مؤرخ محافظ، هو يورجين كوزينسكي، تنازلا حين استخدم مصطلح "الثورة المحافظة" ليقول أن التغييرات لم تكن إلا إصلاحات للتطهر الذاتي، في سياق عملية ثورية طويلة الأمد. ولا جدال في أن هذا التفسير ما يزال يعتمد على تأريخ أصولي للصراع الطبقي، تبدو نهايته وكأنها معروفة سلفا. وفلسفة للتاريخ من هذا النوع - من وجهة نظر منهجية خالصة - إن هي ألا فلسفة ملتبسة ومشكوك فيها. وحتى لو نحينا هذه الملحوظة المنهجية جانبا، فإنها عاجزة عن تفسير هذا النمط من الحركات والصراعات الاجتماعية (ردود الفعل القومية والأصولية) التي بزغت واستثيرت بفعل الملابسات البنيوية للنظم الحكومية والاجتماعية لاشتراكية الدولة State Socialism . أضف إلى ذلك أن التطورات السياسية في وسط أوروبا وألمانيا الشرقية في الأثناء، كانت قد تجاوزت كل ما يمكن أن تقدمه فكرة إصلاح اشتراكية الدولة لذاتها.

وهذه التطورات تشكّل الحجّة الأساسية ضد الموقف الثالث المتمثل، على نحو مثير، في عودة دوبشك* من منفاه الداخلي ليظهر في ميدان ونشسلاس (عام ١٩٨٩). وفي ألمانيا الشرقية، أيضاً، كان الهدف الأسمى لنسبة كبيرة من المعارضة التي بدأت الحركة الثورية وقادتها (في مراحلها الأولى على الأقل) - هو تحقيق نوع من الاشتراكية الديموقراطية، وهو ما أطلق عليه اسم "الطريق الوسط" بين رأسمالية محكومة بضوابط دولة الرفاه - من جانب، واشتراكية الدولة، من الجانب الآخر.

وبينما يرى اللينينيون أن عليهم أن يصححوا التطورات الخاطئة التي أحدثتها الستالينية، فإن الشيوعيين الإصلاحيين يرجعون وراءً إلى ما هو أبعد. ففي تجاوبٍ مع كثير من التيارات النظرية للماركسية الغربية، يبدأ الشيوعيون الإصلاحيون من مُنطلق فكري يرى أن الفهم اللينيني للثورة البلشفية أفسد الاشتراكية من البداية حين زكى ملكية الدولة لوسائل الإنتاج، وليس جعلها "ملكية اجتماعية مشتركة بأساليب ديموقراطية" democratic socialisation، ومن ثم مهّد الأرض لإقامة وترسيخ أبنية سلطوية بيروقراطية منفصلة عن التركيب الاجتماعي. وتوجد تنويعات أخرى للطريق الثالث يتوقف كل منها على تفسير وفهم أصحابها لثورة

* الكسندر دوبشك (١٩٢١-١٩٩٢) - زعيم الحزب الشيوعي التشيكوسلوفاكي الذي قاد محاولة إصلاح ذاتي شهيرة (عرفت باسم حركة ربيع براج عام ١٩٦٨)، أجهضها احتلال سوفييتي لتشيكوسلوفاكيا في سبتمبر من نفس العام (المترجم).

أكتوبر (١٩١٧). ذلك أنه وفقا لقراءة متفائلة. شارك فيها - مع آخرين - قادة حركة ربيع براج، يمكن مقرطة (أي إكساب الطابع الديموقراطي) اشتراكية الدولة مقرطة جذرية، تجعلها قادرة على التطور لتصبح نظاماً اجتماعياً جديداً أرقى من نظم ديموقراطية الوفرة الجمعية في الغرب. وثمة طبعة أخرى ترى أن أفضل ما يمكن أن يأتي به طريق وسط بين النظامين اللذين وُجدا في الواقع - هو إصلاح ديموقراطي راديكالي لاشتراكية الدولة، (يترتب عليه استحداث آليات لا مركزية للرقابة والمحاسبة) مع اقتصاد متنوع، يمكن أن يكون - على الأقل - مكافئاً لاقتصاد دولة الرفاه التي وصلت إليها المجتمعات الرأسمالية المتقدمة في الغرب بعد الحرب العالمية الثانية، عبر سلسلة من التنازلات والحلول الوسط. ويمكن أن يتوج هذا البحث بالوصول إلى بناء دولة غير شمولية، أي دولة على نموذج الديموقراطيات الدستورية، ولكنها لن تكون نسخة تقلدها، وإنما ستكون متممة لها - فيما يتعلق بالمزايا (الضمان الاجتماعي النسبي والتنمية النوعية) أو المعوقات التي يتعرض لها النظام (في مجالات تطوير قوى الإنتاج والابتكار). وهذا التفسير، على ضعفه، يستند - أيضاً - على إمكانية إيجاد ما اصطلح على تسميته "سوق اشتراكي" ذي فاعلية. ويرى البعض أنه يستحيل إحداث هذا التحول وفقا لتصورات معدة سلفا، ويرى آخرون أن هذا ينبغي الاهتداء إليه خلال المحاولة والخطأ. بل إن مارتن جرافين دونوف، وهو من المدافعين المرموقين عن الليبرالية يرى أن "الحلم

الذي يداعب الرؤى هذه الأيام، حلم توحيد الاشتراكية من نوع اقتصاد السوق، بإعمال قليل من الخيال وقليل من النهج التجريبي، هذا الحلم يمكن أن يبدو قابلا للتحقيق - ذلك أن كلا من الطرفين يمكن أن يصحح الآخر". وتلك وجهة نظر تسمح بإصلاح شيوعي عرضة للفشل، وذلك أمر يتعارض مع التفسيرات اللينينية، حيث يصبح ولا مكان لإدعاء القدرة على التنبؤ بمسار التاريخ.

نستطيع الآن أن ننسي الجدل الفكري الذي دار حول إمكان أن تصلح الاشتراكية الحكومية نفسها وتسير في نهج التطور الديموقراطي خلال تثويرها من داخلها. ولا يخامرني شك (بعد الآثار المروعة للتركة الستالينية والمخاطر المتعاظمة لتحلل الاتحاد السوفييتي إلى مكوناته القومية) * - في أن مثل هذه المضاربات الفكرية يصبح لها مكان في حالة الاتحاد السوفييتي أيضا. وإذا كانت فرضياتي صحيحة، فإن السؤال: هل يمكن أن تنهج ألمانيا الشرقية الطريق الوسط - يظل بلا إجابة. ذلك أن معرفة المسار لن تتأتى إلا من خلال تجربة تتسم بكثير من "الخيال والبراجماتيه"، تكتسب الشرعية بالرضا والقبول الشعبي. غير أن غالبية الناس، أثناء ما فات من الزمان، قررت بوضوح شديد ألا تسمح بمثل هذه

* نذكر أن هذه الفقرة كُتبت في صيف ١٩٩٠، حيث كانت النظم الشيوعية قد انهارت في دول أوروبا الشرقية، بينما لم تكن الشيوعية السوفييتية قد سقطت بعد. وإن كانت كل نذر السقوط ومقدماته قد بدت واضحة للعيان (المترجم)

التجربة. وهذا أمر يمكن أن نتفهمه تماما - بعد أربعين عاما من الكوارث. هذا قرار يستحق أن يقابل بالاحترام، خاصة من طرف أناس لن يصيبهم أي ضرر إذا حدثت أية نتائج أو تداعيات سلبية للتجربة. وعليه، فلننتقل الأن للنظر في التفسيرات الثلاثة الأخرى الناقدة، وغير الموالية للاشتراكية.

التفسيرات غير الموالية، الناقدة، للاشتراكية

أشد المواقف تطرفا، على هذا الجانب، ما يزال غير معبر عنه في صياغة مقنعة تماما، وذلك هو موقف نقاد ما بعد الحداثة. فمن منطلق النقد ما بعد الحداثي للعقل"postmodern critique of reason"، فإن هذا النهوض الجياش، السلمي أساسا، إن هو إلا ثورة قامت لتنهي عصر الثورات، لتكون هي نقطة المواجهة للثورة الفرنسية، لكي تتصدى بجسارة لاجتثاث الرعب (الذي ولده العقل) من الجذور. فالأحلام المزعجة، التي ولدت عفاريت القرنين الأخيرين وشياطينهما، تنتهي الآن. ولكن ما يستيقظ ليس هو العقل، وإنما العقل نفسه هو الكابوس الذي ينزاح حين نستيقظ.. ولكن، هنا أيضا، لا تنسجم الحقائق مع هذا النموذج للتاريخ الذي يستمد هذا الإلهام المثالي من نيتشه وهيدجر. ذلك أنه وفقا لهذا التفسير تحول الروح الذاتية دون رؤية واضحة للعصر الحديث. وتزعم الغلبة عليه - بينما الحقيقة أن الثورات الأخيرة (التي قامت لتستعيد

أشياء من الماضي) اعتمدت - تماما - المناهج والمعايير المأخونة من المخزون المتعارف عليه للعصر الحديث. حيث تمكنت جماهير غفيرة تجمعت في الميادين واحتشدت في الشوارع، تمكنت - وللغرابة - من القضاء على سلطة أنظمة مسلحة من قمة الرأس حتى القدم. أليس هذا هو - بالضبط - الحركة التلقائية الجماهيرية، التي كانت هي النموذج الذي فضله عدد كبير من المنظرين الثوريين، وإن كان قد ساد تصور، حتى وقت قريب، بأنه انتهى. حدث هذا، طبعا، ولأول مرة، في مناخ غير تقليدي في مجال عالمي من شهود ومراقبين (شاركوا في الأحداث وإن جزئيا)، خلقهم الحضور الدائم للوسائط الإلكترونية. أضف إلى ذلك أن المطالب الثورية استمدت القوة من الشرعية العقلانية لشعارات السلطة للشعب وحقوق الإنسان. هكذا تسبب التسارع التاريخي في الانصراف عن تصديق الفرضية التي تصورت أننا بصدد توقف (أو نهاية) للتاريخ، كما قضت على الصورة الأخرى التي رسمها دعاة ما بعد الحداثة لبيروقراطية عالمية شاملة مكتملة التصلب، أطلقت العنان لنفسها، متجاهلة أي قانون أو شرعية. فالتقويض الثوري للاشتراكية البيروقراطية، على خلاف ذلك، يبدو وكأنه مؤشر على أن الحداثة توسع حدودها، حيث تقوم روح الغرب بإلحاق الشرق بها، ليس فقط بصفتها مدنية تكنولوجية، وإنما أيضا بتقاليدها الديموقراطية.

أما من وجهة النظر المعادية للشيوعية Anti – communist point of view فإن التغييرات الثورية التي حدثت في الشرق تعني الانتصار النهائي في الحرب الأهلية الكوكبية التي بدأها البلاشفة عام ١٩١٧، فهي ثورة أخرى تنقلب ضد أصولها. وعبارة "الحرب الأهلية الكوكبية" The global civil war ترجمة لمصطلح "الصراع الطبقي العالمي" من اللغة المستخدمة في النظرية الاجتماعية إلى اللغة التي استخدمها هوبز في نظريته عن السلطة. وصاغ كارل شميث الخلفية الفلسفية والتاريخية لهذه العبارة المجازية. يرى هذا التفسير أن فلسفة التاريخ التي سادت بالثورة الفرنسية وشاركت في الدعوة للمثل العليا لأخلاقياتها الكونية، أصبحت هي القوة الدافعة لحرب أهلية خططت لها، في البداية، النخب المثقفة، ثم امتدت فاعليتها للساحة العالمية. وجرى توسيع هذه الفرضية لتصبح نظرية شديدة التضخم للحرب الأهلية الكوكبية، في اللحظة التي كان فيها الصراع بين الشرق والغرب قد بدأ لتوه. وعلى الرغم من أن الفكرة هنا هدفها فضح اللينينية، إلا أنها معتمدة عليها، كما تعتمد الصورة في المرآة على الأصل التي هي انعكاس له. غير أن المادة التاريخية تستعصي على قبضة العناد الأيديولوجي حتى لمؤرخ واسع العلم مثل إرنست نولت الذي تقدم، منذ وقت قصير، بأطروحة تذهب إلى أن الحرب الأهلية الكوكبية قد انتهت. ذلك انه قد افترض نمطا للفرقاء الذين خاضوا هذه الحرب يجعل من اللازم أن نتعامل مع السياسات التي جسدتها شخصيات الاختلافات بينها كبيرة

(مثل موسوليني وهتلر. وتشرشل وروزفلت، أو كينـدي وريجـان) كمـا لـو كانت كلها مصاغة من نفس الطينة المعادية للشيوعية. هكـذا تتخـذ العبـارة المجازية "الحرب الأهلية الكوكبية" تفسـيرا بـزغ أثنـاء مرحلـة بعينـهـا، شديدة السخونة، للحـرب البـاردة، ويثبـت هـذا التفسـير ليكـون توصيفـا بنيويا، يدعم بالمساجلات الحادة، لجعله صالحا لتوصيف عصر بأسره.

لم يبق، بعد، إلا التفسـير الليـبرالي، الـذي بـدأ بالاقتصـار علـى ملاحظة أن نهايـة اشـتراكية الدولـة هـي بدايـة الاختفـاء النـهائي للحكـم الشمولي من أوروبا، وأننـا نشـهد نهايـة عصـر بـدأ بالفاشـية، وأن الأفكـار الليبرالية للتنظيـم الاجتمـاعي تسـود في الشـكل الديموقراطـي الدسـتوري، واقتصـاد السـوق، والتعدديـة الاجتماعيـة. والنبـوءة المتعجلـة "بانتـهاء الإيديولوجيا" يبدو وكأنها - أخـيرا - تصبـح حقيقـة. ولا يشـترط أن يسـلم المرء بنظرية تلغي الفوارق بين الأشكال المختلفة للشـمولية وتعتبرهـا كلـها شيئا واحدا، ومن ثم يتجاهل الاختلافات بين ما هو نظام استبدادي سلطوي ومـا هـو فاشـي، ومـا هـو اشـتراكي وطـني ومـا هـو سـتاليني، ثـم مـا هـو بعد/ستاليني- لا يحتاج المرء أن يكون كذلك ليتبين أوجه التشابه بينـهما في مـرآة الديموقراطيـات الغربيـة الجمعيـة Western mass democracies. وتحلل أعراض الشمولية في الأنظمة البيروقراطية الأوروبية، كما في أسبانيا والبرتغال، وما يصحب ذلك من تطور اقتصاد سوق له استقلالية عـن النظـم

السياسي - كل ذلك يغذي فكرة أن موجه الحداثة تطمو وتزحف للوصول إلى وسط أوروبا وشرقها.

هذا جزء من مقال What does Socialism Mean Today للمفكر الألماني Jurgen Habermas في كتاب After the Fall الصادر عن دار VERSO عام ١٩٩٠.

• ترجمها عن الألمانية إلى الإنجليزية Ben Morgan وعن الإنجليزية إلى العربية سعد زهران.

كتب للمترجم

- ثورة الصومال - نفذ -

مكتبة مدبولي - القاهرة - ١٩٧٤

- آفاق التعديد في مصر - نفذ-

مؤسسة روزاليوسف - القاهرة - ١٩٧٤

- موقف الكنيسة المصرية من إسرائيل والصهيونية - نفذ-

دار القاهرة للثقافة العربية - القاهرة- ١٩٧٥

- شيلي: الثورة والثورة المضادة - نفذ-

دار الثقافة الجديدة - القاهرة -١٩٧٥

- قبرص بين أنياب حلف الأطلنطي

القاهرة - ١٩٧٦

- اليهود والصهيونية في الولايات المتحدة الأمريكية

دار العربي للنشر - القاهرة - ١٩٧٧

- عاصفة على قرن أفريقيا

القاهرة - ١٩٧٧

- "ربيع براج" وشتاء موسكو القارص - نفذ -

١٩٧٨

- "تضامن" تواجه النظام الشيوعي – نفذ –

١٩٨١

- تسلل المصالح الأمريكية إلى الوطن العربي – نفذ –

دار الهمزاني – عدن – ١٩٨٤

- كارثة العصر: الإنسان يدمر كوكبه

دار سعاد الصباح – ١٩٩٢

- حرب البوسنة والهرسك

دار المستقبل – القاهرة – ١٩٩٢

- حريق القاهرة: في الوثائق السرية البريطانية

سلسلة كتاب الهلال – مؤسسة دار الهلال – يناير ١٩٩٦

ترجمات

تطور الاقتصاد السوفييتي	بقلم يوري بروشوك - نفذ - مكتبة يوليه - القاهرة - ١٩٦٥
العصر الذري	مجموعة مقالات علمية - نفذ مكتبة يوليه - القاهرة - ١٩٦٦
أصل الأرض والكواكب	تأليف ب. ليفين - نفذ - دار الكاتب العربي - القاهرة- ١٩٦٨
نظرية في أصل الأرض	بقلم الأكاديمي اوتوشميت - نفذ - دار المعارف - القاهرة - ١٩٦٩
القمر في انتظارنا	بقلم روبرت خوزيه - نفذ - سلسلة كتاب اليوم - ١٩٦٩
عصر الإنسان أم الروبوت	بقلم ج. بولكوف دار الثقافة الجديدة - القاهرة - ١٩٧٣
اليسار الجديد	بقلم بولشاكوف - نفذ - دار الثقافة الجديدة - القاهرة - ١٩٧٦
إمبريالية المساعدات	بقلم تيريزا هايتر دار ابن رشد - بيروت - ١٩٧٩

عبد الناصر ومعركة الاستقلال الاقتصادي

مكتبة مدبولي - القاهرة - مراجعة - دار الكلمة - ١٩٨٠

ثورة الساندينستا - نفذ -

دار الهمزاني - عدن - ١٩٨٤

المخابرات الإسرائيلية

٨ طبعات في القاهرة وبيروت وعدن

حرب الخليج والنظام العالمي الجديد

مكتبة مدبولي - ١٩٩١

صناعة الفقر العالمي بقلم تيريزا هايتر

الأهالي - ١٩٩١

الاستعداد للقرن الواحد والعشرين بقلم بول كنيدي

مكتبة مدبولي - القاهرة - ١٩٩٣

رقم الإيداع ٧٠١٦ / ٩٩

الترقيم الدولى 9 - 8708 - 19 - 977

مطبعة الثقافة الجديدة

ت ٤٩٢٨٩١٣ الإسكندرية

تصميم الغلاف : **الفنان هشام بهجت عثمان**

المؤلف: تيموثي جارتون آش

أستاذ بكلية سانت انتوني بجامعة اكسفورد وهو يكتب الآن بانتظام في مجلة "نيويورك ريفيو أوف بوكس" الأمريكية. وصحيفة "ذي انديبندانت" اليومية البريطانية.

منذ ما يربو على عشرين عاما قام بزيارة برلين للبحث في أرشيفها في الفترة الهتلرية أثناء الحرب العالمية الثانية. ولكنه كتب عن ألمانيا الشرقية في ظل حكم هونيكر. باللغة الألمانية. فمنعت كتاباته. ومنع من دخول البلاد. فذهب إلى بولندا. وكتب "تاريخ تضامن". وترجمت إلى البولندية ووزعها أعضاء "تضامن". لكن الحكومة البولندية وضعت اسمه في القوائم السوداء. ولم يسمح له بدخولها أيضا. فذهب إلى براغ حيث حضر أحد اجتماعات "ميثاق ٧٧". لكن البوليس السري التشيكي طرده من براغ. وهكذا توالت كتاباته عن دول أوروبا الشرقية. وله عدة كتب عن المنطقة.

من المقدمة:

تعلقت آمال مئات الملايين من البشر بوعود الاشتراكية وظل هذا الأمل بالنسبة لهؤلاء البشر. متطابقا مع الأمل في مستقبل هذه الأنظمة والحق أن ما حققته هذه الأنظمة. حتى الستينات. كان جيدا. غير أن التاريخ يشهد بأن أداء هذه الأنظمة بدأ يضعف باطراد حتى جاء عام ١٩٨٩ ليكون. في شرق أوروبا. هو عام الانهيار.

وتمكن اليسار الذي بدأ ينهض في التسعينات. من تمزيق كثير من ستائر التعتيم على أشكال النضال الشعبي ضد هذه الأنظمة. أو محاولات الإصلاح أو التغيير.

إن مؤلف هذا الكتاب شاهد عيان. كان له حضور. يكاد يصل إلى درجة المشاركة -وإن كانت جزئية - في الأحداث التي أفضت إلى سقوط الأنظمة التي كانت قائمة. حتى ٨٩ بلاد: بولندا والمجر وتشيكوسلوفاكيا وألمانيا الشرقية.

ويتضح من الأحداث. كيف أن الطاقات الشعبية الكامنة والمكبوتة كانت انتفاضات الجماهير وتحركاتها كانت هي العامل الداخلي الحاسم في إسقاط هذه الد البيروقراطية التي كانت تبدو بالغة القوة و البأس. وكان هذا الحضور الجماهيري. هي ال في سد الطريق أمام محاولات قوى اليمين المتطرف لدفع البلاد إلى منحدر الفاشية ومايزال الضمان لاستكمال إقامة نظم دستورية. تجعل من وعود الاشتراكية المتحضرة أقرب منالا.

